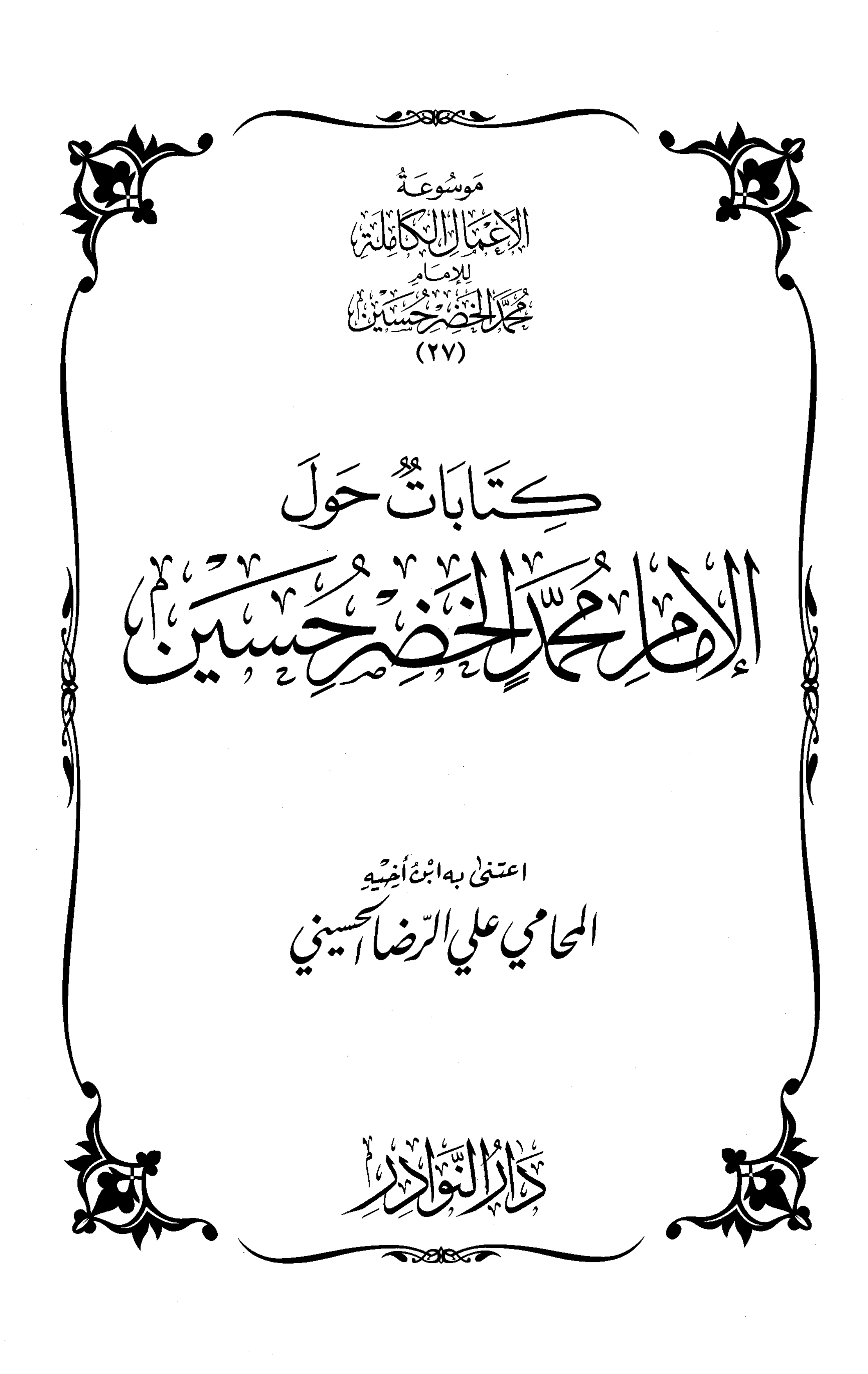
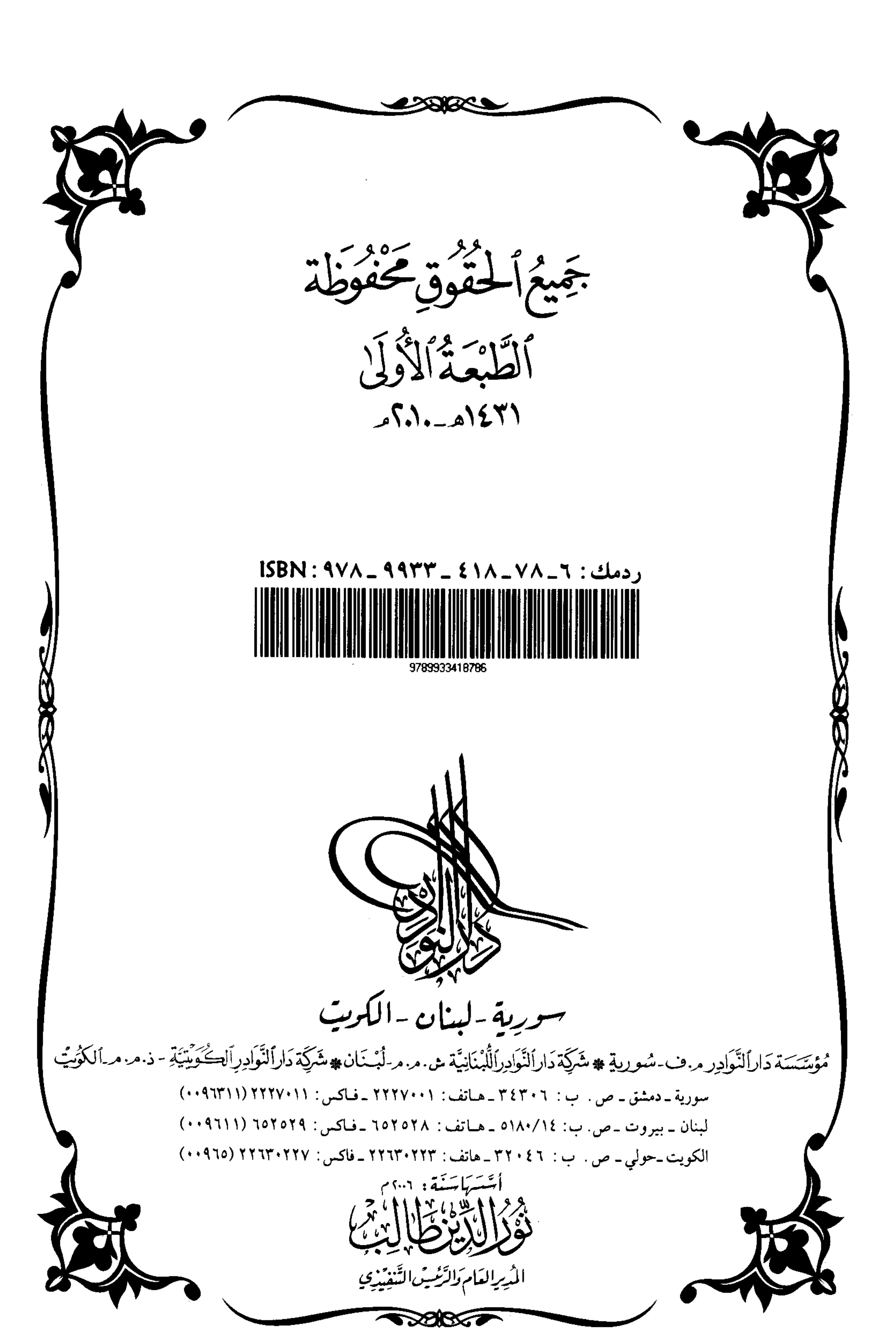


موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(٢٧)

كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٦ - ٧٨ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933418786

دار النوادر

سورية - لبنان - الكويت

مُؤسَّسَة دار النَّوادِر م.ف - سُورية ✽ شَرِكَة دار النَّوادِر اللُّبنانيَّة ش.م.م - لُبنان ✽ شَرِكَة دار النَّوادِر الكُوَيتيَّة - ذ.م.م - الكُوَيت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أَسَّسَهَا سَنَة : ٢٠٠٦م

نُور الدِّين طَالِب

المُدِير العَام والرَّئيس التَّنفِيذِي



المقدمة

من خلال البحث العلمي الجادّ، والجمع والتحقيق لآثار الإمام محمد الخضر حسين طوال مدة تربو عن عشرين عاماً، كنت أجد بين يدي كتابات لمفكرين وباحثين ورجال صحافة منشورة في الجرائد اليومية، والصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية، وفي المصنفات والكتب، تتحدث في مسيرة الإمام ومراحل حياته.

تحفظت على تلك المقتطفات والمنتخبات بين أوراقي في المكتبة، وأنا أحرص عليها حرص البخيل على ديناره، وأعود إليها من حين لآخر، فأجد ورقاتها في ازدياد، حتى إذا تجمعت في سِفر، نادتني الأمانة العلمية أن أخرجه إلى النور.

لم تكن الغاية من نشر هذه الكتابات في كتاب، ووضعها تحت نظر القارئ، التطلع إلى المزيد من الشهرة للإمام، أو الافتتان بعبارات الثناء المرصعة، والمدائح البليغة، وهو أبعد من عرفنا من أهل العلم عن السعي وراء الإطراء والأضواء طوال حياته المباركة.

ولم يكن المرمى من إخراج الكتاب المفاخرة والمباهاة بكلمات التعظيم التي خطتها أقلام الكاتبين في مصنفاتهم المجموعة، فهي كلمات لا تزيد في صحيفة الإنسان عند ربه. وإنما هي الأعمال تنطق بعظمة صاحبها، وهي القول

الفصل يوم الحساب.

المراد الذي نرجو ثواب النفع به: أن يستفيد الدارس والمحقق والمؤرخ من التراجم والبحوث، ويجدوا بغيتهم التي يسعون وراءها، وعندما تحصل الفائدة العلمية، فهي الغاية والرجاء من هذا الكتاب.

من الواضح في هذه التراجم: التشابه البعيد في السرد والعرض، وتكرار الوقائع والأحداث بين ترجمة وأخرى، لا سيما الحديث عن الولادة والنشأة، والدرجات العلمية، والإقامة والترحال، وتعداد المؤلفات إلى الوفاة.

لا بد للكاتب الذي يخوض في البحث العلمي ليترجم علماً من الأعلام أن يتطرق بإيجاز أو إطالة إلى مراحل الحياة، ومن خلالها يتعرض إلى الأفكار والآراء، ويبث دراسته التي قصدها في مقاله أو كتابه.

إن هذا الكتاب «كتابات حول الإمام محمد الخضر الحسين» تعبير عن مطالعات كَتَبَتِها، وأنظارهم وآرائهم التي ارتأوها في مسيرة الإمام عِلماً وعملاً، وجهاداً شاقاً من أجل رسالة الإسلام، وإعلاء كلمة الله في المعمورة. ولا يعني بالضرورة قبولنا بكل ما ورد فيها من أقوال ـ ولنا وجهة نظر خاصة ـ، ولكن قدمناها على حالاتها للتاريخ والمعرفة والأمانة العلمية. واكتفيت بذكر بعض التعليقات الموجزة في الهامش لا بد منها.

وطريقتنا في تقديم الكتاب: إيراد البحوث والمنتخبات حسب تواريخ صدورها، وذكر أسماء الكتّاب، وبيان المراجع التي أخذنا عنها من الصحف والمجلات والكتب، وتدوين كل ذلك في الهوامش ومطالع كل فصل.

وأدرجنا في أواخر الكتاب: (النشرة الأدبية لجمعية شباب الخضر بن الحسين النفطي)، بعض أبوابها؛ خدمة للتراث، وإحياء لتلك النشرة التي تمثل

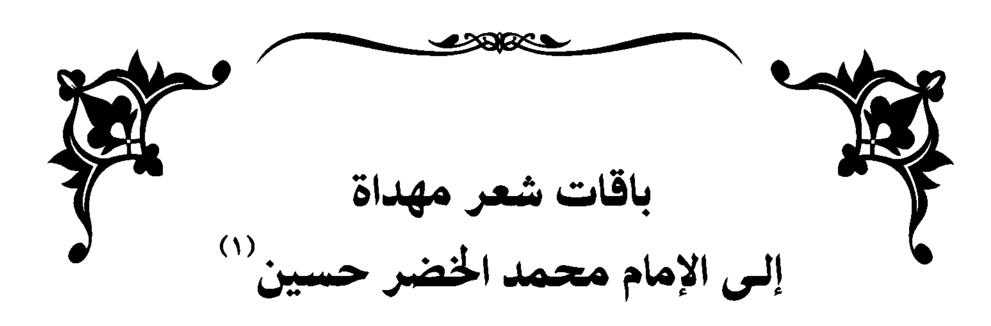
وفاء تونس لعظمائها، وبالخصوص أبناء مدينة «نفطة».

جدير بي، ولزامٌ علي في هذا الموقف، أن أشيد بالكلمات الطيبة الطاهرة التي تلقيتها من السادة العلماء والكتّاب، وتلامذة الإمام، والباحثين والجامعيين خلال قيامي بالواجب الديني في جمع ونشر هذا التراث الرائع.

ربنا تقبل أعمالنا خالصة لخدمة الإسلام، والحمد لله أن جعلنا من المسلمين، والحمد لله على نعمة الإسلام.

علي الرّضا الحسيني





باقات شعر مهداة
إلى الإمام محمد الخضر حسين[1]

شعر: علي الرضا الحسيني

باقــات شــعري مهجتــي فيهــا   وإلـى الإمـام (الخِـضْرِ) أرويهـا
وعلــى مقــام الطهــر أنثرهــا   مقرونـــة بوفـــاء مهـــديها
مهمــا نظمــت قــصائداً تتلــى   فأنــا المقــصّر لــستُ أوفيهــا
فــي القلــب حــبٌّ لا تُــصوِّرُهُ   كــفٌّ ولــو بلغــتْ مراميهــا

* * *

وفــاء[2]

وفـــاؤكَ لا يُماثِلُـــه وفـــاءُ   وعزْمُـــكَ لا يُكافِئُـــه الثَّنـــاءُ
هـــو الإخـــلاص لا يدريـــه إلا   رجـــالٌ فـــي طبـــائعهم إبـــاءُ
ومـا قبْرُ (الإمـام الخـضْرِ) شمـساً   ولكـــنْ فيـــه تَـسْتلقي ذُكـــاء[3]

---

(١) أبيات من الشعر نظمتها بمناسبات مختلفة في الإمام محمد الخضر حسين، ونشرت في ديواني «تونسيات»، وديواني «بثينة».

(٢) ديوان «تونسيات» ـ أبيات نظمتها بمناسبة زيارة الوزير الأول في تونس المرحوم السيد الهادي نويرة لقبر الإمام في القاهرة باحتفال رسمي.

(٣) ذكاء: الشمس.

وليس مُقامُه في مِصْرَ إلاّ ... دليلٌ أن تونُسَنا عَطاءُ
تَباهى الأزْهَرُ المعمورُ فيه ... وللإسلامِ في (الشَّيخِ) ارْتقاءُ

* * *

في المرسى[1]

وفي (المرسى)[2] دُعِينا للعَشاءِ ... فأكْرِمْ بالديارِ وباللقاءِ
أَعَدْنا ذِكرياتٍ خالداتٍ ... ومِنْ عهدِ المحبةِ والإخاءِ
هُنا (البحرانِ)[3] قد فاضا عُلوماً ... هنا (القَمَرانِ)[4] في أسنى ضياءِ
كذا تسري المودَّةُ من جدودٍ ... إلى الأحفادِ في أجلى صَفاءِ

* * *

جامع الزيتونة[5]

وقفتُ عند مَنارِ الدّينِ أسْألُه ... يا منبعَ النّورِ أينَ العلْمُ والأَدبُ؟
أين الشُّيوخُ بناةُ المجدِ ما صَنعوا ... أين (ابن عاشور) أين (الخِضْرُ) والشُّهبُ[6]

---

(١) دعيت إلى العشاء في قصر آل عاشور بالمرسى. وتذكرت صداقة الإمامين الكبيرين، فقلت الأبيات بالمناسبة.

(٢) المرسى: ضاحية من مدينة تونس على البحر، يقطن بها آل عاشور.

(٣) البحران: الإمام محمد الخضر حسين، والإمام محمد الطاهر بن عاشور.

(٤) القمران: كناية عن الضياء المشع من وجهي الإمامين.

(٥) إن جامع الزيتونة قلعة إسلامية أنجبت العديد من العلماء، وله الفضل الأكبر في استقلال تونس ودول المغرب العربي. نظمت الأبيات في إحدى زياراتي للجامع الأعظم.

(٦) الإمام محمد الطاهر بن عاشور والإمام محمد الخضر حسين.

ما باله أظلَم المِصْباحُ من وَهَنٍ ... ودمعةٌ من ذرى المحرابِ تَنْسكِبُ؟!

يا وَيْحَ نفسي على الإسلام ينهَشُهُ ... نابٌ ويعبَثُ في (الزيتونة) العَطَبُ

لن يهدمَ الشَّرُّ أبراجاً مشيدةً ... على الفضيلةِ أو تمضي بها النُّوَبُ

وطفْتُ في قلعة الإيمانِ أُخبِرُها ... أنَّ البقاءَ لها ما عَاشتِ العربُ

تونس ـ جانفي ـ كانون الثاني ١٩٧٨م

* * *

بهجة الإسلام[١]

يَسْقيكَ مِنْ عِلْمِ الألى أكواباً ... ويُريكَ من سحرِ البيانِ عُجابا

فَذٌّ حوى كلَّ العلومِ بصَدْرِه ... ثمَّ ارتقى في العالمين شِهابا

في كلِّ فنٍّ قولُه موسوعةٌ ... وبِطُرفَةٍ يُملي عليكَ كتابا

فسَلِ المنابرَ هَلْ علاها مثلُه ... وتملّكَ الأسماعَ والألبابا؟

بحرٌ من الإيمانِ غابَ قرارُهُ ... يهديك من درٍّ الحديثِ صَوابا

طودٌ من العرفانِ يسكبُ حكمةً ... في كلِّ أرضٍ تعْشَق الآدابا

يا بهجةَ الإسلامِ فوقَ جبينهِ ... كمْ ذا فتحتَ إلى المعارف بابا

وكشفتَ عن وجه الشريعة غُمَّةً ... وأزحتَ عن تاريخها الأَوْصابا

هذا هو (الخِضْرُ الحسينُ) بفضلِه ... طربتْ دمشقُ وصفَّقتْ إعجابا

---

(١) ديوان «بثينة». قيلت بمناسبة إحدى زيارات الإمام محمد الخضر حسين لمدينة دمشق.

ماذا أقــول؟[1]

لمّا دنا ومددْتُ مِـنْ شـوقي يـدي — للقائِـه أحسَـسْتُ قلبـي فـي اليـدِ
صـافحتُ كفّـاً أبْـدَعتْ وتفنَّنَـتْ — بـصياغةِ الـدُّرِّ النّفـيس الجيِّـدِ
جمعَ الفصاحةَ والبلاغة والحجى — والـصِّدْقَ فـي قلـمٍ أَبِـيٍّ أَصْـيَدِ
أمّـا الوفـاءُ فإنَّـهُ مـن أهْلِـهِ — وسـيوفُه عـن حَقِّهـا لـمْ تُغْمَـدِ
وافـى كتابُـكَ شـامخاً فـضممْتُه — من بعْـدِ تقبيـلِ الغِـلافِ الأمجدِ
وتلوتُـه وأعـدْتُ منـه تـلاوةً — وسعدتُ بالبحثِ الفريـدِ الأوْحـدِ
مـاذا أقـول؟ لقـد هتفـتُ مُناديـاً — بُشراكِ تـونسُ بالأديـب (محمَّـدِ)

* * *

مشيخة الأزهر[2]

يتـساءلونَ هنـاكَ مـا الخَبَـرُ؟ — لمـا بَـدا فـي الجـامِعِ القمـرُ
وتهامَـسوا فـي كـلِّ زاويـةٍ — وتـصايحوا وتطـايرَ الـشَّررُ
مِـنْ تُـونُس الخـضْراءَ صـاحِبُها — بـالعِلْم والإيمـانِ يـأتَزِرُ
مـا آزَرَتْـهُ قبيلـةٌ كثُـرَتْ — أفرادُهـا حتّـى ولا مُـضَرُ

---

(١) ديوان «تونسيات». أهداني الأستاذ الأديب التونسي محمد مواعدة كتابه القيم «محمد الخضر حسين حياته وآثاره»، فنظمت إليه هذه الأبيات.

(٢) ديوان «بثينة».

ـ عندما استلم الإمام محمد الخضر حسين مشيخة الأزهر، قامت ضجة في صفوف الفجار الذين لا يعترفون أن الأزهر لجميع المسلمين، ونظمت الأبيات.

جاءتْــه طَوْعــاً مــن فــضائلهِ لا الأهـلُ لا الأنـصارُ قـد نـصَروا

* * *

أم المشاهير[١]

ما أقربَ اليوم بالأمْسِ الذي التقيا فيه الحفيدانِ في روضاتِ عاشـورِ

إنّي أرى (الطَّاهرَ) المبرورَ مُنْشرحاً يعانِقُ (الخِضْرَ) في عُرْسٍ من النُّور

يحـقُّ واللهِ للخـضراء إن فَخَـرَتْ بالفرقـدين أضـاءا كُـلَّ ديْجـورِ

لو أن تونسَ لـم تُنْجِـبْ حرائرُهـا إلاّ همـا لغَـدَتْ أمَّ المـشاهيرِ

* * *

دمشق ترحب بالإمام محمد الخضر حسين[٢]

مَرْحَبــاً بالإمــامِ يُكْــرم جِلَّــقْ فتعــالى بهــا الإبــاءُ وحَلَّــقْ

وتغنّــى فــي دَوْحهــا كــلُّ شـادٍ وانْتـشى القلـبُ باللّقـاءِ وصَـفَّقْ

فـي عيـونِ الجميـع تلقـى سَلاماً وابتـساماً علـى الـشّفاهِ ورَوْنَـقْ

مرحبــاً بالإمــام خيْــرِ إمــامٍ بــكَ قلبـي مــن الرَّجـاءِ تعلَّـقْ

* * *

---

(١) ديوان «بثينة».

- بين الإمامين محمد الخضر حسين ومحمد الطاهر بن عاشور أخوة كانت مضرب الأمثال في تونس. وقد اجتمعت في المرسى بالحفيد الصديق الدكتور عياض بن عاشور عميد كلية الحقوق مرات عديدة.

(٢) ديوان «بثينة». أبيات نظمت في إحدى زيارات الإمام لمدينة دمشق.

الوسام[1]

شَــرُفتُ وزانَنــي ذاك الوســامُ ... وفـي الـصدْرِ الرَّحيـبِ لـهُ مُقـامُ
كفــاني أنَّ تُــونُسَ كرَّمَتْنــي ... وتــونسُ كلُّهــا الأهْــلُ الكِــرامُ
ومــا نِلْــتُ الــذي فــاخَرْتُ فيــه ... وصــاحِبُهُ هُــوَ (الخِـضْرُ) الهُمـام
وللخِضرِ الحُسينِ تطيـبُ ذِكْـرى ... بُطــولاتٍ يُــسطِّرُها حُــسامُ
لَـهُ التَّكْـريمُ فـي الـدُّنيا وحقّـاً ... بـصَدْرِ (الخِـضْرِ) يفْتَخِـرُ الوِسـامُ
حمـى عـن تـونُسٍ ولهـا تَنـادى ... وشُــقِّقَ عنــدَ طَلْعتِــه الظَّــلامُ
تقلَّــبَ فــي بــلادِ الله غــازٍ ... مِـنَ (الخـضراء) تـدْعوهُ (الـشَّآمُ)
وفي (استنبول) ناضـلَ فـي ثبـاتٍ ... وفــي (بــرلينَ) عَــزْمٌ لا يُـضامُ
وحـطَّ رِحالَـهُ فـي (مِـصْرَ) طـوداً ... مــن الإيمــانِ ظلَّلَــهُ الغَمــامُ
أتــاه الأزهــرُ المعمــورُ يزهــو ... بمــشْيَخَةٍ ترأَّسَــها الإمــامُ
فقلَّــدَ تــونسَ الخـضراءَ تاجـاً ... وأوســمةً تحــارُ بِهــا الأنــامُ
وكَـمْ أنجَبْـتِ تـونُسُ مـن عظـيمٍ ... حَكَتْـهُ الـشمسُ والبَـدْرُ التمـامُ
لــزينِ العابــدينَ مزيــدُ شُـكْرٍ ... وللخِـضْرِ الحُـسَيْنِ لَـهُ الـسّلامُ

---

(١) ديوان «بثينة». منحني السيد الرئيس زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية التونسية وسام الجمهورية، وقلدني إياه في حفل بقصر قرطاج العامر بتونس في (٢٣ ربيع الأول ١٤١٧هـ ـ ٧ أوت آب ١٩٩٦م) نظراً لما قمت به من جمع وتحقيق تراث الإمام محمد الخضر حسين وغيره من رجالات تونس. وإن السيد الرئيس قصد تكريم الإمام بوضعه الوسام على صدري.

الإمام محمد الخضر حسين[١]

هذا الإمامُ (محمدُ الخِضْرُ) الـذي هــزَّ الـسيوف وسـدَّدَ الأقلامـا
فهو الفتى والكهلُ والـشيخُ فَـسَلْ عنـه المنـابرَ واسـأل الأيَّامـا
فـي كـل ميـدان أتـاه مُجلِّيـاً رفـعَ الأذانَ وحطَّـمَ الأصـناما
(ابنُ الحسين) وابْنُ سيدة النِّسا[٢] مـن أرضَـعَتْهُ لبانَهـا إسـلاما
نـسبٌ إلـى شـرف النبـوة ينتمـي أَكْـرِمْ بـه نَـسَباً زكـا إلهامـا
دَعْ أصـلَهُ وصـفاتِه وانظـرْ إلـى أمجـادِهِ تـروي لـكَ الإِقْـداما

* * *

الإمام محمد الخضر حسين[٣]

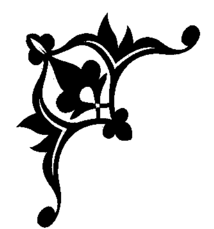
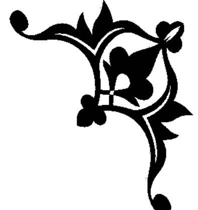
ألا إنّ الإمـام الخِـضْرَ بحْـرٌ وفـي أعماقِـه الـدُّرُّ الثميـنُ
حبـاهُ اللهُ فِكْـراً عبقريـاً وقلبـاً فيـه إخـلاصٌ متيـنُ
تناهَـتْ كـلُّ مكْرُمـةٍ إليـهِ وأشـرقَ مـن معارفـه الجبيـنُ
تـصدّى للـضَّلالِ بـسيْفِ حـقٍّ وينـصرُهُ علـى الأعـداء ديـنُ

---

(١) ديوان «بثينة». أبيات قلتها في مقدمة كتاب «الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر».

(٢) والدته السيدة البارة المرحومة حليمة بنت سيدي مصطفى بن عزوز التي أشرفت على تعليم الإمام في طفولته، ومن الشهيرات بالتقى والصلاح. ولدت بتونس سنة ١٢٧٠هـ، وتوفيت بدمشق سنة ١٣٣٥هـ.

(٣) ديوان «بثينة».

الشجرة المباركة[1]

يعرّف شهودُه الأجلَّ الأمثل، الأمجد العلامة الأفضل، والفهامة الأمثل، صدر المدرسين، وعمدة البلغاء المدققين، وافتخار العلماء الراسخين، الذي جمع شمل العلوم ونسق نظامها، ورفع منار الإفادة وضاعف إعظامها، منهج منهاج العلوم، وجمع جوامع المنطوق والمفهوم، وإرث العلم كابراً عن كابر، الحائز من الكمالات ما قصرت عنه عقول الأكابر، المشار بالتعظيم إليه، والمفرد المتفق بالثناء عليه، أصيل الجدَّين، وشريف النسبين، الشيخ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن أحمد بن عمر بن أحمد بن علي بن عثمان معرفة صحيحة تامة، ويشهدون مع ذلك بأنهم لا زالوا منذ نشؤوا وعقلوا يسمعون سماعاً فاشياً مستفيضاً جارياً على ألسنة الثقات من أهل العدل وغيرهم إلى أن حصل لهم العلم بذلك، وقام عندهم مقام اليقين؛ كوجود مكة المكرمة، والمدينة المنورة ـ زادهما الله تشريفاً وتعظيماً ـ.

فإن الأجلَّ الشيخ محمد الخضر المذكور شريف النسب، إدريسي حسني من أحفاد الولي الصالح الشيخ سيدي علي بن عثمان المذكور، وإن نسبه المذكور متصل بالجناب الرفيع سيد الوجود ﷺ، ومشهور بذلك بين

---

(١) النسب النبوي الشريف للإمام محمد الخضر حسين، والكتابة مأخوذة عن الأصل المحفوظ في مكتبتي.

الناس، وحائز للنسب المذكور، لا يعلمون من طعن عليه في ذلك، كل ذلك في علمهم، وعليه أدوا شهادتهم هنا مسؤولة منهم لسائلها، بالإذن من مولانا الإمام مرجع الخاص والعام، نعمة الله تعالى في هذا الزمان على الأنام، قدوة المحققين، وفخر العلماء الراسخين، إذا أتعب راحته بقلم الفتيا، أراح أرواح أهل الدنيا، تضحك ببكاء أقلامه الطروس، ويري في صورة خطوطه حظوظ النفوس، مفرد الزمان، إلا أنه قائم مقام الجمع، والمستغرق أوصاف الإنسان، عند كل منطق وسمع، أوحد العلماء الأعلام، الشيخ سيدي محمد بيرم مفتي الأنام، لا زالت أقلام الفتوى مشرّفة ببنانه، والأحكام الشرعية موضحة ببيانه، تلقى منه مشافهة بتاريخ يوم الإثنين سادس صفر الخير من عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف، والثالث عشر من جانفي سنة ثلاثة عشر وتسعمائة وألف.

واتصال نسب الشيخ المشهود فيه أعلاه، وسلسلة أجداده الأخيار، هو أنه الشيخ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن أحمد بن عمر بن الموفق ابن محمد بن أحمد بن علي بن عثمان بن يوسف بن عمران بن يوسف بن عبد الرحمن بن سليمان بن أحمد بن علي بن أبي القاسم بن علي بن أحمد ابن حسن بن سعد بن يحيى بن محمد بن يونس بن لقمان بن علي بن مهدي ابن صفوان بن يسار بن موسى بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر ابن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

شهد به:

المكرم الأجل العلامة الشيخ الصادق النيفر، الشريف ـ معروف.

شهد به :

المكرم الأجل الفقيه الخير الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ معروف .

شهد به :

المكرم الأجل الفاضل المختار ابن المنعم الشيخ محمد التولة ـ معروف .

شهد به :

المكرم الأجل الخيـر محمد ابن المنعم العلامة عبد القادر البغدادي ـ معروف .

شهد به :

الأجل الفقيه العلامة الشيخ قدور بن حمودة باصوم ـ معروف .

شهد به :

الأجل الخير التالي كتاب الله عبد القادر بن إبراهيم الشريف ـ معروف .

شهد به :

الأجل الأمثل المرعي الأمين ابن المنعم العلامة إبراهيم بوعلاق ـ معروف .

شهد به :

الأجل الفقيه النبيه الشيخ محمد بن صالح شُهر بوصبع الورتتاني ـ معروف .

شهد به :

الأجل الفقيه النبيه الشيخ أحمد ابن الحاج بلقاسم الشعنبي ـ معروف .

شهد به :

الأجل الخير محمد عبد النبي أمين القوطاجية ـ معروف .

شهد به :

الأجل الخير المسن عمر ابن المرحوم أحمد العتكي، به شهر ـ معروف .

شهد به :

الأجل الخير المسن الحاج الطاهر ابن الحاج عباس ـ معروف .

شهد به :

الأجل الخيّر الخذار ابن المرحوم إبراهيم الرياحي ـ معروف .

شهد به :

الأجل الأمثل شقيقه عبد اللطيف الوكيل الرسمي ـ معروف .

الحمد لله :

يعرف شهيداه الشهود المذكورين أعلاه كالمعرفة أعلاه، ويشهدان مع ذلك بأن كل واحد منهم عدل رضيّ ممن تُقبل شهادته، وترضى أحواله، ويعمل بها شرعاً كل ذلك في علمهما، وعليه أديا شهادتهما هنا مسؤولة منهما لسائلهما بالإذن والتاريخ أعلاه .

شهد به :

الأجل الأمثل الخير محمد ابن المرحوم علي شهر بن فدير .

شهد بذلك :

الأجل الأمثل العفيف الطيب ابن المنعم محمد الأكبر بوخريص ـ معروف نفسه .

الحمد لله :

حرر شهادة الشهود المذكورين أعلاه أصلاً وتزكية، وقبلها منهم بالإذن والتاريخ أعلاه فقير ربه محمد بن الحبيب المكي .

ختم ٢٠ في العشرين من صفر الخير عام أحد وثلاثين وثلاثمائة وألف .

الحمد لله :

وبمثل ما شهد به الشهود أعلاه يشهد فقير ربه، الراجي حسن عقباه، الصادق المحرزي ـ لطف الله به ـ.

الحمد لله :

وبمثل ما شهد به الشهود المذكورون أعلاه يشهد فقير ربه علي بن رمضان.

يشهد العاقد ثبوت وصحة النسب الطاهر لفضل صاحبه المشار إليه أعلاه، فقير ربه علي خليفة ـ وفقه الله تعالى ـ.

وبمثل ما نظمته الشهادة أعلاه يشهد فقير ربه أحمد بن عبدالله العياري ـ لطف الله به ـ.

أما بعد:

حمداً لله تعالى الذي أطلع في سماء النبوءة المحمدية نجوم عرفانها، وأسنى من أنوارها ما يقصر الشكر عن عظيم شأنها، والصلاة والسلام التامين الأكملين على الذات الشريفة المحمدية، وعلى أهل البيت المطهر، والأصحاب أهل الشرف الأقعس الأطهر، فقد طالعت هذا الرسم المتضمن نسب السادة المحررة أسماؤهم في مضمونه، الساطعة أنوار نسبهم في غضونه، وعلمت أنه أخذ من الثبوت حقه، مفيد حق الإفادة مستحقه، لا سيما وواسطة ذلك العقد، المبرء من الوصم والنقد، الفاضل الأكمل الأرضى الزكي الشيخ محمد بن الخضر بن الحسين.

فقد أتم الله عليه النعمة بشرف النسب؛ إذ حظي به بشرف العمل المكتسب، أفاض الله على الجميع سجال كرمه، وختم للجميع بالحسنى،

وبوأنا بفضله المقام الأسنى. آمين.

واعلم بذاك من يشهد على هذا الرقيم العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد الشريف، نقيب السادة الأشراف ـ أخذ الله بيده، في يومه وغده ـ. آمين. في ٣٠ ربيع الأول، وفي ٢٦ فيفري سنة ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م.

* **الحمد لله** الذي جعل النسب المحمدي أكرم الأنساب، ونظم العترة الطاهرة في سلك المقربين والأحباب، وأجلُّ الصلوات وأكمل التحيات من المولى الوهاب، لمختاره المرسل رحمة عامة لأولي الألباب، وآله وصحبه الحائزين به من المفاخر اللباب، المفتوح لهم من أبواب الفوز أعظم باب.

أما بعد:

فقد قرت العين برؤية هذا العقد الثمين، الذي جواهره في أصداف السؤدد الأسنى، وفروعه كأصوله أهل المناقب الحسنى، فأكرم بمن خصه الله بهذا الانتساب العالي، وألبسه حلل العلم والفضل والمعالي، فرع زكي من هاته الشجرة المباركة الطيبة الثمار، التي لها في روض الصحة والقبول أتم قرار، ألا وهو العالم الحسيب، الخلاصة الأريب، المدرس الشيخ السيد محمد الخضر بن الحسين، ولا جرم أنه حق على كل مسلم تعظيم هؤلاء السادة ووداهم، وهل جزاء من هم أمان لأهل الأرض إلا إكرامهم وإسعادهم. نسأل الله الكريم المتعال، أن يقدر لنا الفوز بحبهم في الحال والمآل، والسلام.

حرره فقير ربه مصطفى بن الخوجة
المفتي الحنفي بتونس في ربيع الأنور ١٣٣١هـ

* **الحمد لله** الذي خص العترة النبوية بمزيد الاحترام، وبسط لهم من

فضله موائد الإكرام، وجعلهم أمان الأرض، وظل وارف من رواقه بالطول والعرض، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى، مصباح السؤدد الذي لا يقضى ولا يطفى، وعلى آله وأصحابه، وكل من تحلى بآدابه.

أما بعد:

فقد تيمنت بهذا الرسم المبارك الذي أثبت لصاحبه النسب الشريف، وأوجب له من الفضل التليد والطريف، بلغه الله إسعاده، ورزقه الحسنى وزيادة، وأعاد علينا من بركة آل البيت الطاهر، ما يستفيد منه الباطن والظاهر. آمين.

حرره الفقير إلى ربه تعالى محمد الطيب النيفر،
المفتي المالكي بالمملكة التونسية ـ وفقه الله تعالى ـ
في ٩ شعبان الأكرم سنة ١٣٣١

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فقد تيمنت بمطالعة هذا النسب الصحيح الثابت بالبينة أعلاه، وأشهد بما شهدت به هذه البينة، وأنا فقير ربه محمد الأزهري بن مصطفى بن عزوز، خادم الطريقة الرحمانية، وشيخ الزوايا العزوزية بتونس، وكتب في شعبان ١٣٣١هـ.

* **الحمد** لله على نعمه التي لا تعد، ومننه التي لا تحد، والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد تشرفت بمطالعة هذا النسب الشريف، شامخ القدر المنيف،

وما احتوى عليه من قلائد الفخر، عبيقة النشر، والشمس لا تحتاج لبرهان، والحق لا يخفى على العيان، والعبد الحقير أشهد بما شهدت به البينة أعلاه بالشهادة بالسماع الشائع على ألسنة الثقات وغيرهم منذ نشأنا إلى ساعة التاريخ. حقق الله لنا هذا الانتساب بجاهه عند الله. آمين. كتبه ببنانه فقير ربه أحمد الأمين بن المدني بن عزوز ـ لطف الله به في سائر أحواله، وأدام له بأحسن حال نعمة الجيرة بالنبي وآله ـ آمين. ٨ في شوال المبارك سنة ١٣٣١هـ المدرس بالحرم النبوي.

الحمد لله:

* بعدما تشرفت بهذا النسـب الشـريف، المشـتهر ذكره بين الخاص والعام، شهدت بما شهدت به تلك البينة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وأنا الفقير إلى ربه محمد المصطفى بن التارزي بن عزوز، التونسي، المدرس بالحرم النبوي بالمدينة المنورة ـ زادها الله تكريماً ـ في ٨ شوال سنة ١٣٣١هـ.

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى:

وبعد:

فقد تشرفت بالاطلاع على هذه الشجرة المباركة، شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأشهد بما شهد به الشهود أعلاه شهادة بلا ريب. نشأنا على سماع اتصال هذا البيت بالحضرة المحمدية نسباً فاطمياً ثابتاً، ينطق به كل لسان، ويعتقده كل جنان. يتحدث به كل صادر ووارد من العلماء والأشراف والعامة وغيرهم. لا أسمع إلا ذلك منذ عرفت اليمين من الشمال

إلى وقتنا هذا، فعلى الواقف عليها أن يعرف مقام صاحبها بالاحترام؛ لاتصال نسبه بسيدنا المصطفى ﷺ، مع ماله من الفضل والعلم، والعقل والحلم، كَثَّر الله من أمثاله في الإسلام.

كتبه محمد المكي بن عزوز،
مدرس التفسير والحديث في دار الفنون بالآستانة
ـ وفقه الله، ومنحه رضاه ـ.
بتاريخ ١١ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٣١هـ

بخير من دعا الورى ... إلى الصراط الأقومِ
وآله أهلِ التقى ... والشرفِ المسلَّمِ
أسلك مسالكَ الرضا ... بأحمدَ بنِ بيرمِ

قاله وكتبه عبد ربه أحمد بيرم،
شيخ الإسلام بتونس في ٢٤ أشرف ربيعي سنة ١٣٣١هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* **بعد حمده تعالى**، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، ولمن لآل بيته والى.

وبعد:

فقد اطّلعت على هذه النسبة الحسنية الشريفة لصاحبها الصديق الصادق العالم النحرير السيد الشيخ محمد الخضر من أشراف تونس الغرب، وعين علمائها وفضلائها، ونزيل دمشق الآن. وقد حازت هذه العائلة الكريمة شرف العلم والنسب. وقد يحق لها الافتخار بهذا النسب المصدق عليه من

علماء أبرار، وسادة أخيار ـ نفعني الله برجاله وأهله ـ.

كتبه الفقير لله ـ عز شأنه ـ
محمد أديب تقي الدين الحصني الحسني
نقيب السادة الأشراف بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

* يا ربنا لك الحمد حمداً يوافي نعمك، ويكافئ مزيدك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد سيد أنبيائك ورسلك، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار.

وبعد:

فقد أطلعني صديقنا الأخ بالله الشيخ الأجل الفاضل الأمجد العالم الأوحد الشيخ محمد الخضر على هذا النسب الشريف، والعقد اللطيف، المتصل بسيد الرسل الكرام، عليه وعليهم أفضل صلاة وأتم سلام. فقرّت برؤياه العين، وزال عن القلب الغين، فجزاه الله خير الجزاء في هذه الدنيا وفي الأخرى. ونفعنا بهم جميعاً. آمين.

كتبه الفقير محمد أبو الخير عابدين،
الحسني الدمشقي مفتي دمشق الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد:

حمداً لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. فأقول: إني قد تشرف ناظري، وابتهج خاطري، بالاطلاع على نسخة

هذا النسب الشريف، المحتوي من الطهارة على ما لا يحاوله الخيال الطريف، فتأثر منه مشام القلب لبروق أنواء التونسية في دمشق الشام، وصقل منها العارضان، فكأنما سُقي سقي البشام.

أسأل الله العظيم، بحرمة نبيه الكريم، أن ينفعني وإياه من بركات رجاله العظام، أئمة الدين وأساطين الإسلام. قاله أقل الأنام:

محمد أسعد صاحب زاده،

العثماني نسباً، الخالدي النقشبندي طريقة ومشرباً

بسم الله الرحمن الرحيم

* **الحمد** لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه.

وبعد:

فقد أطلعني الصديق العزيز والأخ في الله فضيلة الأستاذ الشيخ زين العابدين بن الحسين الحسني شقيق المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الخضر ابن الحسين بن علي الحسني شيخ الجامع الأزهر على هذا النسب الشريف المتصل برسول الله ﷺ، فابتهجت به نفسي، وقرت به عيني. وأسأل الله الكريم أن يجزيه خير الجزاء، وينفع به المسلمين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

نقيب أشراف الشام

الفقير محمد سعيد الحمزاوي

١٢ صفر ١٣٩٦هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* **الحمد** لله الذي جعل نسبة نبينا محمد ﷺ فوق كل نسب، واختار المختار من أشرف العرب.

وبعد:

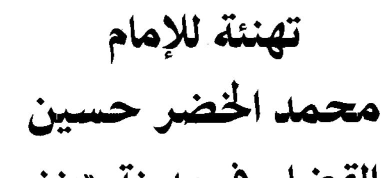
فإني قد تشرفت بهذه السلالة الطاهرة النبوية، والعترة الزكية الحسنية ـ أمدنا الله بمددهم الرباني، والفيض الرحماني، وحفظهم وتولاهم، وأطال تعالى في الإسلام تشريفهم ـ.

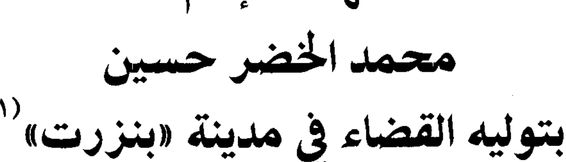
آمين آمين.

كتبه العبد الفقير في باب الله
محمد عيد السفرجلاني، عفي عنه. آمين
بدمشق الشام الشريف. ربيع الأول









تهنئة للإمام محمد الخضر حسين بتوليه القضاء في مدينة «بنزرت»[1]

* **الإمام محمد الطاهر بن عاشور:**

أيها السادة الأعيان! ويا أيها الصديق النحرير!

إذا تنازع العقل والوجدان، افتقرت اللغة، وضاق البيان، فالوجدان يقنع النفس بما تجده محضراً، والعقل يصرفها إلى غب الشيء وفائدته المرجوة.

وأنا الآن تتجاذبني قوتان بجاذب متضاد: أراني فيها مبتهجاً مسروراً بارتقاء صديقنا النحرير، واسطة عقد جمعنا في هاته الليلة النيرة، على حين أجدني ـ مهما تذكرت لازم هذا الارتقاء؛ من مبارحته نادي أنسنا ـ أَسِفاً على بُعد من أبعته نفسي، واتخذته صديقاً خالصاً منذ سبع سنين.

ولكني أغالب وجداني، وأجمع حافظتي، وأزجر لساني، فأغلِّب السرور على الأسف، وكذلك ينتصر أحد الخصمين على قِرنه متى قامت الحجة.

---

(١) أوراق مخطوطة بخط الإمام محمد الطاهر بن عاشور تتضمن الخطاب الذي ألقاه مساء يوم ١٥ ربيع الثاني ١٣٢٣هـ في داره بالمرسى من الضواحي الشمالية لمدينة تونس، بمناسبة تولية الإمام محمد الخضر حسين القضاء في مدينة «بنزرت».

وهذه الكلمة تمثل مدى سمو وصفاء الصداقة بين الإمامين ـ رضوان الله عليهما ـ.

وهذا احتفالنا الآن يمثل انتصار العقل على الوجدان، فلنا أن نعتبره رسماً محسوساً يشخص معنى فلسفياً علياً.

ما كان للعقل أن ينتصر على وجداننا القوي، لولا تجلي المستقبل من خلال هذا الارتقاء باسماً عن نتائج علمية، وأريج ثناء تفخر به الفيئة الأدبية (وربما غُلب القوي بابتسامة تملك لبّه) سيظهران للعيان في استقامة وكمال صديقنا هذا، اللذين لم يزالا مجهولين عن كثير من الذين لم يبتلوا أخلاقه، كما يجهل شذى العنبر من لم يختبره.

وقد عرفت الحكومة من صديقنا هذا، وعرف الناس منه، بما جاءت مجلته العلمية العظمى[1]، التي أنشأها في السنة الماضية من البرهان على أن في الطبقة العلمية العربية التونسية، المتهمة بالبعد عن الشعور بالحاجات القومية، رجالاً يقتاد الواحد منهم الأفكار، ويأتي بالآيات والأعمال الكبار.

هكذا جعل رفيقنا هذا بمجلته لهاته الفيئة اسماً شهيراً في النهضة، وهو اليوم يرفع شأن أهل التحرير في أعين من يسوء ظنهم فيه؛ إذ يرون كافة ثقة الحكومة، لهذا أسهم بواحد من رجال القلم.. وهو بذلك ثاني رجل في الإسلام ارتقى من دور التحرير إلى مقام الخطط الشرعية، ولعلكم تعرفون أن الأول هو الأستاذ الشهير الشيخ محمد عبده.

عجباً لناموس الارتقاء كيف تأخذ نظائره بأيدي الاتحاد، فتنتاب الأفكار كما تنتاب الأمم والأفراد.

---

(١) إشارة إلى مجلة «السعادة العظمى» التي أصدرها الإمام محمد الخضر حسين بمدينة تونس.

لقد مضى حين من الدهر على مرسى «بنزرت» الجميلة المنيعة، كانت تعد مع الأخريات، فلما أتاح لها حكم القدر أن يعتني بها المعتنون، فتكون من أشهر المراسي الحربية على ساحل البحر المتوسط، وأن تصبح كما هيّأتها الخِلقة من المملكة التونسية على صورة العين من رأس الفتاة العربية[1]. استدعت نباهتها السياسية إصلاح حالها المدنية، وابتدأت بإصلاح قضويتها؛ لأن القاضي هو سوط عدل الله يرفع على الظالمين؛ حتى يُصلح الناس أجمعين.

وعسى أن يقوم من شذى الثناء على صديقنا في تلكم الأصقاع، ما تفاخر به بقية البقاع، فتهرع كلها تطلبه إلى وظائفها وتنصاع.

أريد أن أختم قولي، فألتمس منك أيها الصديق المخلص، أن تتقبل مني أبيات أملاها عليّ الضمير، على بُعد ما بيني وبين الشعر:

قسماً بإحساس المودَّة بيننا	أكَّدتُ في ملأ من الأحباب
لَسرورُ ساعات تذكّرِ أُنْسَكُم	في النفس أحلى من نَوال طِلاب
والآن قُدِّر أن يشطّ مزارُنا	حتى يعوَّض جمعُنا بكتاب
ولتلك في قلب الصديق حزازةٌ	ما هي دون نوافذ النشّاب
لكنَّ للعدل المضيَّع دعوة	تقضي علينا بامتثال جواب
فاهنأ بهذا الارتقاء وكُن به	مَثَلَ الفضيلة مظهرَ الإعجاب

(١) أردت الإشارة إلى هيئة المملكة من الخريطة، فإنها تشبه فتاة عربية مادّة يدها للشرق، وبنزرت منها بمكان العين من الرأس شمالاً. «هذا التعليق للإمام محمد الطاهر بن عاشور في المخطوط».

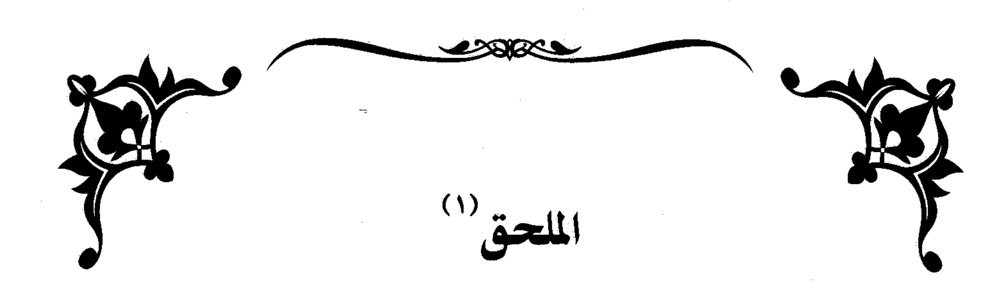
وإليـك أيها الصـديق تحية طيبة، تصحبونها معكم؛ لتذكركـم وداداً لا يفنى وإن طال الزمان، وتفارقت الأبدان[1].

(توقيع الإمام محمد الطاهر بن عاشور)

❒ ❒ ❒

(١) وفي نهاية المخطوط، دوّن الإمام محمد الطاهر بن عاشور بخطه هذه الكلمات:
«خطاب ألقيته على مأدبة وداع الشيخ النحرير محمد الخضر بن حسين، إذ تعين قاضياً ببنزرت في يوم السبت مساء ١٥ ربيع الثاني ١٣٢٣ بمنزلي بالمرسى، وبحضور طائفة من الأعيان، ومن رجال القلم والعلم».

(توقيع الإمام محمد الطاهر بن عاشور)



الملحق[1]

ينتظر السادة الحاضرون ما سألقيه على هذا البساط من العبارات في تهنئة صديق الجميع بولايته خطة القضاء.

وبودي لو تستنزل الدراري، فأنظمها في جِيْدِ مديحه عقداً، أو تكون لي قدرة على تجسيم ألفاظ الهناء، وترصيعها بالجواهر واليواقيت. أو في الأقل أكون ذا براعة في صوغ البيان، واستجلاء عرائسه البديعة للعيان، حتى أظهر من المعاني الشعرية ما يكون لها التسلط على شعور الشاعر وذوق الأديب.

أقول هذا، ولا أرى محيصاً عن إظهار ما يضمه الفؤاد من صور المسرّة، وما ترسمه فيه من أشكال الانشراح.

فإن أحسن ليالي أيامي، هاته الليلة التي وقفت بها أمام صديقي هذا مهنئاً له بهاته الخطة الشريفة، بعد أن ترقبناها من الزمان، ورجوناه تغيير رسوم أخلاقه الموقوفة على الشح والبخل.

---

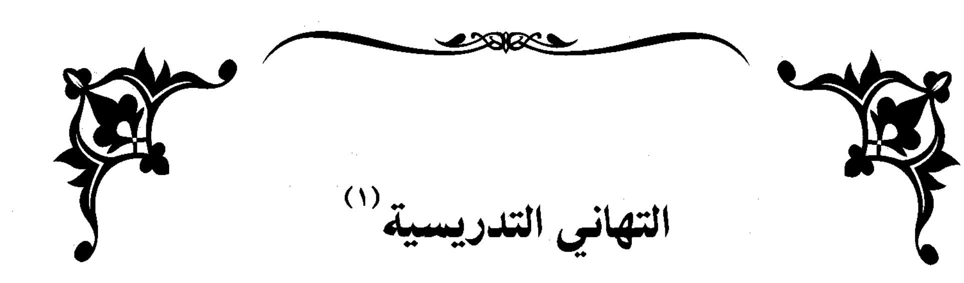
(١) ضُمت إلى الأوراق المخطوطة بيد الإمام الطاهر بن عاشور، ورقة بخط الأستاذ عبد الملك بن عاشور، وهو أخو الإمام، تضمنت بعض الأقوال التي وردت على لسان الإمام محمد الطاهر في الحفل، وأثبتناها بنصها.

ورجائي منك أيها الصديق، أن تغفر زلاته، وتغلب الآن حسناته على سيئاته، وتتقبل من ودودكم الهنا، فقد نيل المنى[1].



(١) العبارات أعلاه، وقع سردها على مائدة وداع، أعدها أخونا الشيخ سيدي الطاهر ابن عاشور بمناسبة ولاية صديقنا الشيخ سيدي محمد الخضر بن الحسين خطة القضاء ببنزرت ـ في ١٥ ربيع الثاني عام ١٣٢٣ .

(توقيع عبد الملك بن عاشور)



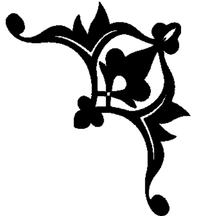
التهاني التدريسية[1]

الشاعر صالح السويسي القيرواني

أنعم ببشرى بها طير الهنا صدحا ... والقلب من طرب قد صار منشرحا
أنعم بخطة تدريس بها ابتهجت ... نفس الذي عن طريق الحق ما برحا
قد حازها (الخضر) الراقي بهمته ... صرح المعالي بحزم للسما نطحا
يا (ابن الحسين) رعاك الله من رجل ... عنه الثناء كمسك في الورى نفحا
أنلتَ كلَّ صديق من ولايتكم ... كأس المسرة حتى قلبه طفحا
لله درك من فرد به بزغت ... شمس العلوم ومن إيمانه رجحا
والمرء إن حسنت منه سريرته ... نال الكمال وحاز الخير والمنحا
فاهنأ بخطة علم أنت بهجتها ... واسعد بفضلك ما زند النُّهى قدحا

---

(١) جريدة «المعارف» العدد ٢٣ الصادر في ٢٢ جمادى الثانية ١٣٢٥هـ ـ أوت آب ١٩٠٧م ـ تونس. وجاء في مقدمة القصيدة تحت عنوان: (التهاني التدريسية): اتصلنا بقصيدة رائقة في تهنئة صاحب الفضيلة والكمال، العالم الأديب الشيخ سيدي محمد الأخضر بن الحسين المدرس الثاني بجامع الزيتونة الأعظم لإحرازه على منصب التدريس المشار إليه.
نظم عقدها الثمين فضيلة الأديب السيد صالح السويسي القيرواني. (ولم تنشر هذه الأبيات في ديوان الشاعر المطبوع).

تهنئة الأدباء[1]

محمد الطاهر بن العربي النفطي

جميل التهاني في جليل الرغائب لعمرك عن مثلي من إحدى الضرائب

ويجدر بي أن لا أرى متغاضياً متى اهتزت الأعطاف من كل جانب

ليجري نفسي فوق طرسي محبّراً ويهتف لُسْني في إقامة واجب

وأشدو برنّات الثنا وضروبه لكي أجعل الأذواق صيد مطالبي

كما اصطادها ذاك الهمام وقد غدا به مُيَّلَ الأكوار وفدُ المناصب

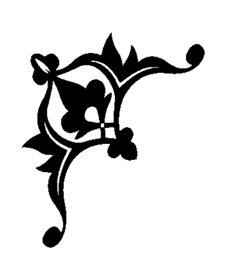
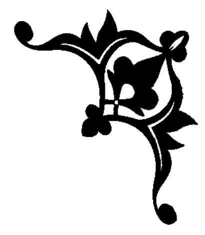
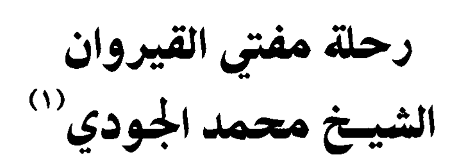
توزع ذكراً عند بادٍ وحاضرٍ فبين أنوفٍ نشره وذنايب

أهنيكم (يا ابن الحسين) بما تلى وإن لم أكن فذاً فلي أجر صائب

وقلت أهنيكم وإن كنت مخطياً حذارك أن تعتدّها من مثالبي

(١) جريدة «المعارف» العدد ٢٤ الصادر في ٢٩ جمادى الثانية ١٣٢٥هـ - ٨ أوت آب ١٩٠٧م - تونس. وجاء في مقدمة القصيدة: «اتصلنا بالقصيدة الآتية تهنئة لأستاذ العلم والأدب الشيخ سيدي الخضر بن الحسين بمناسبة ارتقائه لخطة التدريس. نظم عقد دررها الثمينة الأديب الكامل السيد محمد الطاهر بن أبو بكر بن العربي النفطي المتطوع بالجامع الأعظم. وخدمة للعلم والأدب ننشرها بنصها مع الافتخار على صفحات «المعارف».

وإلا صواب القول أهني وظيفكم بكم وأهالي الجامع المتطارب
على أنني أهني الأنام بأسرهم خصوصاً بني الآداب زهر المراكب
وذلك لما أعربت أن بيننا لواء التساوي مستحث الكتائب
رعى الله أعلاماً رعوا حرمة لِما ا دّخرت فمازوك امتياز الأقارب
أما سمعوا استدلالك الصبح واضحاً وقولك صبحاً كاشفاً عن غرائب
وليس ذوو التمييز غيرهم وإن يجزهم فمن أهل الحجا في المغارب
وما أنت إلا فوق ما أمّلوا بها وهل بخسوا يوماً حقوقاً لطالب
نهضت مكبّاً للمعالي مزاحماً وذاك بأطراف النهى لا المناكب
وعزّزت مجد الجَدِّ بالجِدِّ سالكاً حُزون الثنايا معضلات العواقب
وما زال هذا دأبك الدهر دائماً إلى أن خفضت النجم غب نواصب
فتِي خطّة أمّتك عن وجا ألمَّ بها من قبل تثقيف ثاقب
أتتك تجر الذيل معلقة بما يليها بُعَيدٌ عند نشر الذوائب
تطوَّلْ عليها بالقبول وجلِّها كأبهى مهاة حليها بالترائب
بدرسك للآداب درساً مشرفاً لنا عن بسيط وافر متقارب
فنأتيك منها والعِياب مجفَّف ونرجع من مغذاك بجر الحقائب
فلولاك لم ندرِ المبرّد كاملاً ولولاك لم يونق يتيم الثعالبي
ومن مفصحٌ عن ثعلب وفصيحه إذا أنت لم تبد الصفي لصاحب
وهل أنسوا من مؤنس أو تقلدوا قلائد عقيان وحنّوا لراغب
وإني أرى لابن الحسين مواقفاً يسلمها لابن الحسين كواهب
متى ردَّ طرفاً في لآلئ نظمكم يعضُّ بناناً حيث فاه بعائب

رحلة مفتي القيروان
الشيـخ محمد الجودي[1]

وكان ممن اجتمعت به بالشام: الأخ العزيز الفاضل، العالم العامل، الشيخ سيدي الإمام محمد الخضر بن الحسين، كان من المدرسين بجامع الزيتونة، وهاجر إلى الشام، ورتب بمدرسة أسست لمدة نحو شهر، وجعل له في المرتب ما يساوي مئة وسبعين فرنكاً، وهي مدرسة تشتمل على عشرة أقسام، تزاول حفظ القرآن العظيم، والعلوم الشرعية والطبيعة.

وكان من المعلمين بها أخوه الشيخ زين العابدين، له في المرتب ما يساوي مئة وثلاثين فرنكاً.

وقد زرناها، فوجدناها في غاية الاتساع والانتظام، وبوسط صحنها خصة وحوض كبير، وهو يتدفق ماء، وبيوتها علوية وسفلية، وبوسط الصحن

---

(١) رحلة مفتي القيروان الشيخ محمد الجودي المتوفى سنة ١٩٤٣م إلى الحج وبلاد الشام. نسخة خطية في كراس بخط المؤلف. بمكتبة الأستاذ إبراهيم شبوح. وقد زودني مشكوراً بورقات مصورة عن المخطوط، والتي تتعلق بالإمام محمد الخضر حسين، والشيخ محمد الجودي التميمي القيرواني (١٢٧٨ ـ ١٣٦٢هـ = ١٨٦١ ـ ١٩٤٣م) مسند وفقيه ومؤرخ، نشأ في القيروان، وله عناية بالتاريخ والتراجم والبحث عن الكتب النادرة، زار الديار المقدسة للحج ثلاث مرات، وزار دمشق. من مؤلفاته: «تاريخ قضاة القيروان».

جنينة مغروسة أشجاراً، يتنزه بها التلامذة عند خروجهم للراحة.

واجتمعنا بمديرها، واسمه محمد كامل القصاب، وهو رجل في غاية الرياضة واللطافة، وله معارف جمة على الطراز الحديث، فتلقانا بأحسن الملاقاة، وفرح بنا كثيراً، وقدم لنا القهوة.

وكان ممن اجتمعنا به مع الشيخ الأخضر، إخوته: الشيخ الجنيد، والشيخ العروسي، وأخوهم الشيخ المكي معلم بالمدرسة العثمانية الدمشقية، والشيخ حسونة ابن أخيهم، وزرنا هاته المدرسة صحبة الشيخ العروسي، وتلقانا مديرها بالترحاب والإكرام، وعرفنا، وفرح بنا فرحاً شديداً، وهو الشيخ محمد كامل القصاب، رأسها السيد محمد كامل القصاب، ومديرها أحمد جودت المارديني، وأستاذ العلوم الدينية السيد محمد الحمصي، ومدرس الأخلاق الشيخ إبراهيم رمضان، وأستاذ القرآن اثنان هما: الشيخ محمد الحلواني، عبد القادر السرداني، وأستاذ العلوم العربية سليم أفندي الجندي، ومحمد أفندي البزم، ومحمد المكي بن الحسين التونسي أخ الشيخ الأخضر، وأستاذ الرياضية عبد الغني أفندي المحملجي، وكذا الطبيعيات، وأستاذ الرياضية واللغة الفرنساوية درويش أفندي القصاص، أستاذ التاريخ توفيق بك البساط، اللغة الفرنساوية مصطفى أفندي كاظم، والجغرافية واللغة العثمانية الأمير فايز الشهابي، حسن الخط والرسم موسى أفندي الشلبي، وسليم أفندي الحنفي، والتركية والفقه محمد أحنف الحقفي، والأعداد والحساب أفندي الحمصي، ومبادىء القراءة والكتابة توفيق أفندي، وأستاذ الرياضة البدنية وناظر المدرسة رضا أفندي الحلو.

وعرض علينا أربعة من أصغر التلامذة، لا يتجاوز سن الواحد سبعة

أعوام، وناولني مصحفاً، وقال: عين لهم مكاناً يقرؤون منه، ففتحت المصحف، فأول ما رأيت: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[الأعراف: ٥٨]، فناولته أحدهم، فقرأ قراءة تدبر مع حسن أداء، وإعطاء مخارج الحروف حقها، ثم سئل عن معاني الألفاظ، فأجاب بأحسن جواب، ثم سئل عن معاد الضمائر وإعراب الكلمات، فأجاب كذلك، لم يتلعثم في جوابه، ثم وقف أحدهم، وسرد قصيدة المعري التي منها:

وإنـي وإن كنـت الأخيـر زمانـه　　　لآتٍ بمـا لـم تـستطعه الأوائـل

مع إشارة حسية بيده، وإعراب لكل ما سئل عنه من الأبيات، وبيان المعاني؛ بحيث أني شاهدت ما يبهر العقل من الأجوبة الحاضرة على صغر السن، ثم أذن لهم بالذهاب، فقاموا بآداب، وودعونا، وخرجوا.

ثم دعا أربعاً من قسم أعلى منهم، فأتوا بما هو أرقى، وكانت القراءة في المصحف من قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾[يوسف: ١٦]، فبينوا، وأعربوا، وفسروا المعاني بأحسن تفسير، ثم سئلوا عن الجغرافية، فأجابوا عن القطر المصري والأفريقي ومن احتله، ومن جملة ما ذكر عن تونس: أن جميع الدول صادقت على الاستعمار، إلا الدولة العثمانية فلم تصادق.

ثم سئلوا: هل يمكن للإسلام عود شبابه؟ فأجابوا: نعم، يعود باتباع ما جاء به الشرع، والاتحاد، فسئل عن الدليل، فأجاب بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣]. ثم قام أحدهم، وسرد قصيدة حماسية، تبعث النفوس على الشهامة وعلو الهمة، ثم أذن لهم بالانصراف بعد أن سقاهم المدير القهوة، وخرجوا بالآداب كالأول. واستأذنا بالخروج، وقام المدير مشيعاً لنا لباب المدرسة.

وأخبرنا الشيخ الخضر ـ لما أعلمناه بما ذكر ـ بأن ما وقع من إكرامنا لم يقع لغيرنا، وأن عادته إذا أتى أكبر كبير، يذهب معه للأقسام، ويقول له: سل عما شئت، ولا يعرض للوافد، ولا يشيعه، وكان ذلك في يوم الأحد المذكور.

وفيه زرنا العلامة النحرير، فريد عصره الشيخ بدر الدين، عالم البلد بدار الحديث، التي كان بها الإمام النووي وغيره، وهي مدرسة كبرى، فوجدنا الشيخ ببيت منها، وهو رجل مسن عليه علامة الصلاح، وحوله كتب، وهو يتدفق علماً، فسأل سي العربي بسيس عن أحوال المسلمين مع الدولة الحامية، فأجابه بأن الشعائر مقامة على أحسن ما يكون، وأنهم أحسن من غيرهم في الدول الأجنبية، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال: روينا بالسند إلى رسول الله ﷺ: «الحب في الله، والبغض في الله من الإيمان»، ثم سألته أن يجيزني، فأجابني إلى ذلك.

واستدعانا الشيخ الخضر للعشاء بداره، وحضر معنا إخوته وابن أخيه، وذكر لنا أنه لما ذهب إلى المدينة المنورة في رمضان، أنشأ قصيدة في مدح النبي ﷺ، ووعدني بإعطاء نسخة منها، وذكر أنها نشرت بالجرائد الشرقية، والتمستها منه ليسلم لي الجريدة التي فيها. وجرت بيننا مذاكرات أدبية، وأنشدنا بيتين، ذكر أن رجلاً أتى إلى صلاح الدين الأيوبي بمروحة، وقال له: هذه هدية لم ينلها أحد من أسلافك، ولا من الملوك، فغضب صلاح الدين، فقال له: اقرأ ما بها، فإذا بها منقوش:

أنا من نخلة تجاور قبراً ساد من فيه سائرَ الناس طرّا

شـــملتني ســـعادة القبـــر حتـــى صرت في راحة ابن أيـوب أُقـرا

فسرّ بذلك، وأجازه.

وذكر أن الشيخ سالم بوحاجب قرأ بين يدي الملك الناصر باي تونس «فتح المتعال في مدح النعال» للمقري، وكان بخط الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي، فأنشأ بيتين على هذا المثال لم يستحضر إلا الثاني، وهو:

شـــملتني ســـعادة الخـــط حتـــى صرت في كف ناصر الدين أُقـرا

وقد اجتمعت بمجلس مولانا العالم سيدي محمد أمين السفرجلاني بمسجد السنجقدار بتلامذته الأفاضل ذوي الأخلاق الحسنة الطيبة: سيدي الحاج محمود رمضان الدمشقي، وسيدي الحاج محمد الشرايبي، وسيدي الحاج علي بن سعيد حافز، والسيد رسلان الرفاعي، وسيدي كمال بن مصطفى الإمام، والشيخ إبراهيم بن مصطفى العطري.

وفي يوم الاثنين من ٢٢ صفر، زرنا مقام القطب الغوث سيدي محيي الدين، ورأينا بتابوته بيتين:

قبـر محيـي الـدين ابـن العربـي كـــل مـــن لاذ بـــه أو زاره

قـضيت حاجاتــه مــن بعــدما غفـــــر الله لـــــه أوزاره

وبأركان القبة الأربع:

إنمـا الحـاتمي فـي الكـون فـرد وهـــو غـــوثٌ وســـيدٌ وإمـــام

إن ســألتم متــى تــوفي حميــداً قلـت أرخ (مـات قطـب همـام)

مولده سنة ٥٦٠ ـ وفاته سنة ٦٣٨

وبلصبق ضريحه ضريح ابنه سيدي عماد الدين جوفيه، وجوفيه ضريح

ابنه الآخر سيدي سعد الدين. وتوفي هذا الثاني المجاهد عبد القادر بن محيي الدين وعلى قبره:

لله أفق صار مشرق دارتي ... قمرين هلا من ديار المغرب
الشيخ محيي الدين ختم الأوليا ... قمر الفتوحات الفريد المشرب
والفذ عبد القادر الحسني الأمير ... قمر المواقف ذا الولي ابن النبي
من نال من أعلى رفيق أرخوا ... (أزكى مقامات الشهود الأقرب)

في ١٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ

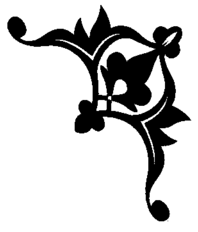
وكان الذي بالمقام السيد محمد سليم الأكرمي الدمشقي، وابن عمه الشيخ مصطفى، وبعد زيارتنا للشيخ محيي الدين، زرنا ضريح الشيخ عبد الغني النابلسي، وهو بيت لطيف فيه قبره، وقبليه بيت صغير به قبر ابن ابنه سيدي مصطفى النابلسي، وأبو مصطفى إسماعيل بن الشيخ عبد الغني، والبيتان بوسطه مسجد جامع خطبه.

وبعد زياراتنا للمقامات المذكورة، توجهت مع الفاضل الكامل سيدي العروسي بن الحسين لحضرة الأستاذ سيدي بدر الدين، واستلمنا منه الإجازة التي وعدنا بها، ووجدناه يقرئ في «مختصر السعد على التلخيص» في مذهب الاستعارة بالكتاب على مذهب الجمهور، والسكاكي، بأحسن تقرير مع رياضة تامة. وكان من الحاضرين بدرسه الشيخ عبد الرحمن[1]. .

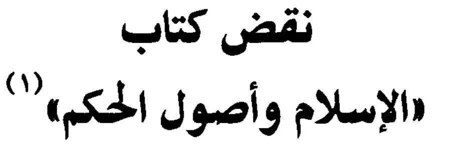


(١) انتهت الأوراق المصورة من الرحلة، والمرسلة لي.





نقض كتاب
«الإسلام وأصول الحكم»[1]



منذ عام تقريباً ظهر في عالم المطبوعات كتاب، كان لما تضمنه واشتمل عليه من آراء ونظريات، له مظهر فاتن، وباطن مظلم، فانخدعت بالمظهر عقول، ونفذت إلى الباطن عقول، فاحتدم الجدل، وثارت عاصفة وعاصفة، إحداهما تناقش الكتاب من الوجهة الدينية، والأخرى تحاسب المؤلف من الوجهة السياسية.

واشتدت العاصفتان حتى ألقت إحداهما مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» خارج زمرة العلماء، واقتلعت الثانية بعض الوزراء من كراسيهم اقتلاعاً، تلاه حرمان الشيخ علي عبد الرازق مؤلف الكتاب من مركزه في القضاء الشرعي.

وليس عجيباً أن يثير هذا الكتاب مثل هاتين العاصفتين، ففي اسمه ما يدل على خطورة موضوعه، وعلى أن مؤلفه قد تعرض للخلافة، وللخلافة في نظر العالم الإسلامي وغير العالم الإسلامي أهمية عظيمة، ومكانة خطيرة؛ لأنها تمثل معنى الحكومة التي تقود المسلمين وتسوسهم، ولأنها المجمع

---

(١) مجلة «المكتبة» الجزء الثاني من السنة الثانية، الصادر في رمضان ١٣٤٤هـ. وهي مجلة شهرية تبحث عن المؤلفات وقيمتها العلمية، ومديرها الأستاذ عبد العزيز الحلبي ـ القاهرة.

الذي تجتمع حوله قلوب المسلمين على اختلاف مشاربهم، وتباين جنسياتهم، والمصدر الذي تصدر منه بواعث حركتهم، ودواعي سكوتهم.

على أن مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وقد تعرض لهذا الموضوع الخطير بصفته عالماً من علماء الإسلام، وقاضياً من قضاة المحاكم الشرعية في مصر، لم يتجه في مباحثه الاتجاه الذي كان يجب أن يتجه فيه مؤلف اجتمع له مثل هاتين الصفتين الإسلاميتين، ولم يبن آراءه ونظرياته التي قصد إلى إذاعتها وترويجها بتأليف هذا الكتاب على أدلة تشهد بأنه درس العلوم الإسلامية، وتشبّع بمبادئها، وفهم أغراضها ومراميها، وأدرك حقيقة المصالح والثمرات التي يستفيدها الناس بالعمل بها، والسير على منوالها، بل كان اتجاهه في مباحثه اتجاه رجل يخالف المسلمين في عواطفهم وميولهم، وكانت الأدلة التي أقام عليها آراءه ونظرياته أدلة رجل لم يدرس العلوم الإسلامية، ولم يدرك أسرارها، ولم يتشبع بمبادئها، وإنما هو رجل مهوّش أراد أن يستثمر ماله من صفة دينية في سبيل نشر مبادىء وآراء لا تقبلها العلوم الإسلامية، ولا ترضاها العقول السليمة، ولا تؤيدها أدلة صحيحة، فكأنما كان كل همه أن ينتزع من النفوس يقينها واطمئنانها، ويحل محلهما الشك والاضطراب.

ولسنا نتهم الرجل بسوء النية، وفساد الطوية، ولكنا نظن أنه كان يقرأ للعلماء الأجانب أكثر مما يقرأ للعلماء المسلمين، وإن ذلك قد أثر في نفسه حتى خضعت لآراء الأجانب، واعتادت تلقيها بالقبول دون موازنة بينها وبين الآراء الإسلامية، وتمييز ما فيها من طيب وخبيث، وكان من أثر ذلك أن ضعفت الآراء الإسلامية في نظره، وانحطت قيمتها، وانطفأ نور أدلتها، والعقول مهما

رجحت، فلن تسلم من خطأ، والنفوس مهما قويت، فلن تبرأ من ضعف. وفوق ذلك، فإن موضوع كتابه من الموضوعات المتروكة التي يجهلها أكثر الناس، والتي لا يكاد يستطيع البحث فيها بحثاً علمياً صحيحاً إلا أفراد قليلون من علماء المسلمين. . . كل هذه العوامل مجتمعة هي التي أثرت في مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، فحملته على أن يخرج للناس كتابه الذي أثار ما أثار من عواصف شديدة، وجدل عنيف.

على أن لكتاب «الإسلام وأصول الحكم» فائدة عظيمة لم نكن لنحصل عليها لولا صدوره، ولم يكن ليستفيد منها كثير من الناس لو لم يثر ما أثار من عواصف وجدال.

تلك هي تحرك العلماء إلى البحث في هذه الموضوع، والكتابة فيه، مبينين وجه الحق والصواب، كل بقدر ما وسعه طوقه، وأحاط به علمه. فقد بقيت الصحف المصرية عدة شهور تنشر الفصول الممتعة، والمقالات الضافية في هذا الموضوع، والناس يقرؤونها باهتمام عظيم، ورغبة صادقة.

ولكن هذه الفصول والمقالات التي كانت تنشرها الصحف، لم تكن خالصة للبحث العلمي البريء الذي يهدم الشكوك، ويزيح عن وجه الحق سحب الغموض والإبهام، بل كانت مشحونة بما أثارته كهرباء الغضب والحنق التي استولت على أكثر الكاتبين؛ مما حطّ من قيمة هذه المقالات، وذهب برونقها، وأضعف من فائدتها.

لذلك بقي أكثر الناس يعتقدون أن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لا يزال قائماً يبث الشكوك والأوهام في النفوس والعقول، حتى ظهر كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» الذي ألفه فضيلة الأستاذ (السيد محمد

الخضر حسين) أحد مدرسي جامع الزيتونة، وأحد قضاة المحاكم الشرعية بتونس سابقاً.

فقد تناول هذا الكتاب نقض ما جاء في «كتاب الإسلام وأصول الحكم» مما يخالف المبادئ الإسلامية، ويحود عنها، بطريقة تدل على رسوخ قدم الأستاذ السيد محمد الخضر في العلوم الإسلامية والعربية، وتضلعه منها تضلعاً يجعله في صفوف كبار العلماء الباحثين الذين يعرفون كيف يصلون بالقارئ إلى الحق الناصع في رفق وسهولة، دون أن يرهقوا ذهنه، أو يحرجوا صدره.

فأدلة ناصعة، ولغة بينة، وقصد في التعبير في غير غموض أو إبهام، وأدب صريح، وخلق متين، يدل على أن صاحبه ممن تأدبوا بالأدب الإسلامي، وتشبعوا به، وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]. ثم حسن ترتيب وتنسيق في المناقشة وسوق الأدلة، لا يدع في نفس القارئ مجالاً للشك، ولا يترك شبهة تتردد في صدره دون أن يقضي عليها قضاء نهائياً.

كل ذلك في تواضع العالم الصادق النظر، النزيه الغرض، الذي لا يقصد من بحثه وجدله إلا إحقاق الحق، وإزهاق الباطل.

ونريد أن نأتي لك بمقدمة كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»؛ لتقوم عنا بإرشادك بعضَ الشيء إلى قيمة الكتاب، ومقدرة مؤلفة الفاضل، فقد نشعر بالعجز عن إيفائه حقه من المدح والتقريظ. قال:

«وقع في يدي كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق، فأخذت أقرؤه قراءة من يتغاضى عن صغائر الهفوات، ويدرأ تزييف الأقوال

بالشبهات. وكنت أمر في صحائفه الأولى على كلمات ترمز إلى غير هدى، فأقول: إن في اللغة كناية ومجازاً، ومعميات وألغازاً، ولعلها شغفته حباً حتى تخطى بها المقامات الأدبية، إلى المباحث العلمية، وما نشبت أن جعل المعاني الجامحة عن سواء السبيل تبرح عن خفاء، وتناديها قوانين المنطق فلا تعبأ بالنداء. وكنت ـ بالرغم من كثرة بوارحها ـ أصبّر نفسي على حسن الظن بمصنفها، وأرجو أن يكون الغرض الذي جاهد في سبيله عشر سنين حكمة بالغة، وإن خانه النظر فأخطأ مقدماتها الصادقة. وما برحت أنتقل من حقيقة وضّاءة ينكرها، إلى مزية مجاهد خطير يكتمها، حتى أشرف على خاتمته، وبرزت نتائجه، وهي أشبه بمقدماته من الماء بالماء، أو الغراب بالغراب.

فوّق المؤلف سهامه في هذا الكتاب إلى أغراض شتى، والتوى به البحث من غرض إلى آخر، حتى جحد الخلافة، وأنكر حقيقتها، وتخطى هذا الحد إلى الخوض في صلة الحكومة بالإسلام، وبعد أن ألقى حبالاً وعصياً من التشكيك والمغالطات، زعم أن النبي ـ عليه السلام ـ ما كان يدعو إلى دولة سياسية، وأن القضاء وغيره من وظائف الحكم، ومراكز الدولة ليست من الدين في شيء، وإنما هي خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها. ومسَّ في غضون البحث أصولاً لو صدق عليها ظنه، لأصبحت النفوس المطمئنة بحكمة الإسلام وآدابه مزلزلة العقيدة، مضطربة العنان.

كنا نسمع بعض مزاعم هذا الكتاب من طائفة لم يتفقهوا في الدين، ولم يحكموا مذاهب السياسة خبرة، فلا نقيم لها وزناً، ولا نحرك لمناقشتها قلماً، إذ يكفي في ردها على عقبها صدورها من نفر يرون الحظ في الأهواء

حرية، والركض وراء كل جديد كياسة.

كنا نسمع هذه المزاعم، فلا نزيد أن نُعرض عمن يلفظون بها، حتى يخوضوا في حديث غيرها. أما اليوم، وقد سرت عدواها إلى قلم رجل ينتمي للأزهر الشريف، ويتبوأ في المحاكم الشرعية مقعداً، فلا جرم أن نسوقها إلى مشهد الأنظار المستقلة، ونضعها بين يدي الحجة، وللحجة قضاء لا يستأخر، وسلطان لا يحابى، ولا يستكين.

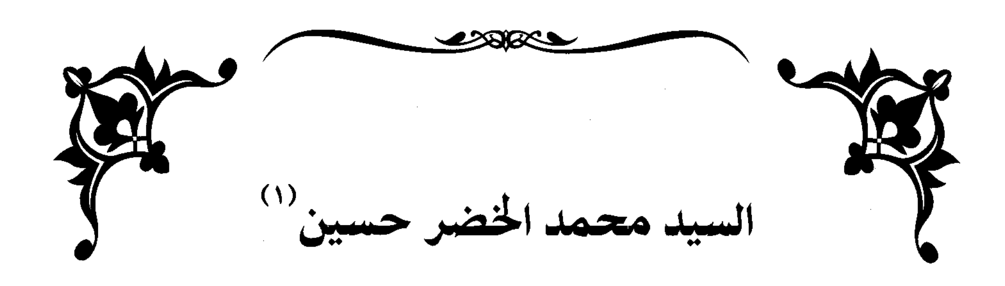
لا أقصد في هذه الصحف إلى أن أعجم الكتاب جملة، وأغمز كل ما ألاقي فيه من عوج؛ فإن كثيراً من آرائه تحدثك عن نفسها اليقين، ثم تضع عنقها في يدك، دون أن تعتصم بسند، أو تستتر بشبهة، وإنما أقصد إلى مناقشته في بعض آراء يتبرأ منها الدين الحنيف، وأخرى يتذمر عليه من أجلها التاريخ الصحيح. ومتى أميط اللثام عن وجه الصواب في هذه المباحث الدينية التاريخية، بقي الكتاب ألفاظاً لا تعبر عن معنى، ومقدمات لا تتصل بنتيجة.

والكتاب مرتب على ثلاثة كتب، وكل كتاب يحتوي على ثلاثة أبواب، وموضوع الكتاب الأول: (الخلافة والإسلام)، وموضوع الكتاب الثاني: (الحكومة والإسلام)، وموضوع الكتاب الثالث: (الخلافة والحكومة في التاريخ).

وطريقتنا في النقض: أن نضع في صدر كل كتاب ملخص ما تناوله المؤلف من أمهات المباحث، ثم نعود إلى ما نراه مستحقاً للمناقشة من دعوى أو شبهة، فنحكي ألفاظه بعينها، ونتبعها بما يزيح لبسها، أو يحل لغزها، أو يجتثها عن منبتها، وتخيرنا هذا الأسلوب؛ لتكون هذه الصحف قائمة بنفسها،

ويسهل على القارئ تحقيق البحث، وفهم ما تدور عليه المناقشة، ولو لم تكن بين يديه نسخة من هذا الكتاب المطروح على بساط النقد والمناظرة».

لا شك أن القارئ بعد أن اطلع على هذه المقدمة، قد أدرك شيئاً من قيمة الكتاب الذي نحدثه عنه، وعرف أنه كتاب يحوي بين دفتيه من المباحث الخطيرة، والموضوعات الهامة، ما لا يتيسر لكثير من العلماء الوصول إليها رغم البحث الطويل، والجهاد المستمر، وأنه ليس كتاباً دينياً فقط لا يهم إلا المشتغلين بالمسائل الدينية، بل هو كتاب يحتاج إليه أكثر متعلمينا أشد احتياج، لا سيما المشتغلون منهم بالمسائل العامة، بل نقول: إن المشتغلين بالمسائل العامة والقانونية أحوجُ الناس إلى دراسة هذا الكتاب، والانتفاع بما جاء فيه في أكثر مسائلنا الخطيرة؛ كمسألة وجوب نصب الخليفة بناء على القاعدة الشرعية الثابتة التي تقول: «الضرر يزال»، وكمسألة معرفة المسلمين لعلوم السياسة، وكمسألة النظام الملكي، وهل هو ينافي الحرية والعدل؟ ومسألة شكل حكومة الخلافة، ومسألة القضاء في الإسلام في العهد النبوي وبعده، ومسألة أن النبي ﷺ كان رسولاً، وكان رئيساً سياسياً أيضاً، ومسألة الاجتهاد في الشريعة وشرائطه، والشريعة الإسلامية وإدارة البوليس، والتشريع الإسلامي والزراعة والتجارة والصنائع، والتشريع الإسلامي والأصول السياسية والقوانين... إلى غير ذلك من المسائل المهمة التي ينبغي لكل مشتغل بالمسائل العامة أن يدرسها دراسة جيدة، وقد أوفاها الأستاذ الجليل الشيخ الخضر حقها من البيان والتفصيل، بما امتاز به من تعمق ورسوخ في العلوم الإسلامية، مع معرفة وافية بالآراء الغربية المختلفة فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم في الأمم ليكون أضمن للحرية والعدل.



السيد محمد الخضر حسين[1]

تجنس السيد محمد الخضر حسين التونسي بالجنسية المصرية، والسيد الخضر من أشراف تونس، وقد اشتهر أهله بالفضل والعلم والدين.

وجدّه لأمه محمد بن عزوز، أخذ طريقة الشيخ الحفني الكبير شيخ الطريقة الخلوتية، عن الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري تلميذ الشيخ الحفني، وعنه أخذ جده لأبيه الشيخ علي بن عمر، فكان خليفة هذه الطريقة في المغرب.

ولد السيد الخضر بمدينة «نفطة»، وحفظ القرآن الكريم صغيراً، ثم انتقل مع والده إلى مدينة تونس، ودرس في جامع الزيتونة، ونال شهادة العالمية[2] وهو في الرابعة والعشرين من سني حياته، ثم سافر إلى طرابلس الغرب، وعاد إلى تونس، وأنشأ مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة عربية دينية ظهرت في تلك البلاد. فأقبل عليها العلماء، ونشّطه أهل الفضل،

---

(١) مجلة «الفتح» العدد ٢٩٠ من السنة السادسة الصادر في ذي القعدة ١٣٥٠هـ - القاهرة.

ملاحظة: يبدو لي أن هذه المعلومات استقاها السيد محب الدين الخطيب صاحب المجلة من الإمام محمد الخضر حسين، ولعلها أوضح موجز عن حياته.

(٢) المقصود بها: شهادة (التطويع).

وفي مقدمتهم الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور، والشيخ سالم بوحاجب.

ثم قُلِّد القضاء في مدينة «بنزرت»، والخطابة والتدريس في جامعها الكبير. ولم يكتف بعمله الرسمي، بل عمد إلى إلقاء المحاضرات العامة.

وضاق ذرعاً بقيود الوظيفة الرسمية وأصفادها، فاستعفى، وعاد إلى تونس متبرعاً بإلقاء الدروس في المعهد الزيتوني، وقدر ولاة الأمر خدمته، وشريف مقصده، فعينوه مدرساً رسمياً في معهد «الزيتونة»، وعضواً في ترتيب مكتبته، ومدرساً في المدرسة الصادقية، وعهدت إليه الجمعية الخلدونية في إلقاء محاضرات على طلبتها في آداب اللغة العربية.

ولما قامت الحرب الطرابلسية، نظم عدة قصائد في الحث على معاونة الطرابلسيين كان لها أحسن وقع في القلوب، وبسط الأكف، ثم سافرت أسرته إلى دمشق، فلحق بها، وقضى بالقاهرة ثلاثة أيام، فألقى في الأزهر درساً في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة: ١٢٢]. فأدرك السامعون مقامه وفضله، وتابع سفره إلى دمشق، ثم قَصد الآستانة في أيام الحرب البلقانية، وزار مكتباتها ومعاهدها العلمية، وتعرف إلى علمائها وآدابها، وعاد إلى تونس مدرساً ومحاضراً، ثم قصد المدينة المنورة، فإستنبول، فدمشق مدرساً للفلسفة والآداب العربية في المدرسة السلطانية.

وقضى أيام الحرب العظمى متنقلاً بين برلين وإستنبول ودمشق. ففي برلين تعرّف إلى كبار العلماء المستشرقين، وزعماء الحركة المصرية، وفي مقدمتهم المرحومون الشيخ عبد العزيز جاويش، ومحمد فريد، وإسماعيل لبيب. وفي إستنبول عين في قسم المباحث السياسية بوزارة الحربية، فواعظاً

في مسـجد (الفاتح). وفي الشـام وشى به بعضهم وشاية سياسية إلى جمال باشا، فاعتقله ستة أشهر و١٤ يوماً، ثم ظهرت براءته فأفرج عنه.

ثم نزل مصر، ومع تحاميه الإعلان عن نفسه، فإن عارفي فضله ونبله أحلّوه المحل اللائق بكرامته، وانتدب للعمل خمسـة أعـوام في دار الكتب المصرية، فانتهز الفرصة، وألقى على بعض الكتب القديمة نظرات دقيقة، واستخرج منها ما لم يفقه إليه أحد قبله، وتقدم لامتحان العالمية الأزهرية، فنال شهادتها بتفوق.

وللسيد الخضر مؤلفات جمّة، منها: حياة اللغة العربية ـ الخيال في الشعر العربي ـ الدعوة إلى الإصلاح ـ مدارك الشريعة الإسلامية ـ نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ـ وشرح وجيز على كتاب «الموافقات» للشاطبي ـ نقض كتاب «في الشـعر الجاهلي» ـ تعليقات على «شـرح القصائد العشـر» للتبريزي... إلخ.

وكانت له اليد الطولى في إنشاء «جمعية الشبان المسلمين» بالقاهرة، وأنشأ «جمعية الهداية الإسلامية» ويتولى تحرير مجلتها، وإدارة شؤونها، ويرأس الآن تحرير مجلة «نور الإسلام» الأزهرية، ويدرّس في كلية أصول الدين بقسم التخصص.

ولا جدال في أن تجنيس السيد الخضر بالجنسية المصرية غنم لمصر، وجوهرة يزدان بها تاج علماء الدين.





إلى العلامة الجليل
السيد محمد الخضر حسين
بمناسبة سفره إلى الأقطار الحجازية (1)



محمد صادق عرنوس

سافرْ إلى الحجِّ ميموناً بك السفرُ ... واقْضِ المناسكَ مزهواً بكَ الحجرُ

جاهدتَ في الله فانزِلْ في ضيافتِه ... لك المثوبةُ والإكبارُ والظفرُ

إن الصّفا مذ نويتَ الحجَّ مغتبطٌ ... لزَوْرة العالم الرَّبِّيِّ منتظرُ

وهلْ رأى منذ حين في مواسمِه ... كموسم حجَّ فيه السيدُ الخَضِرُ

هذا النحيفُ المغالي في تواضعِه ... به الحنيفيةُ البيضاء تفتخر

كم ذاد عنها أعاديها بمفرده ... في موقفٍ تتحاشى مثله الزُّمَرُ

فلم تصب منهمُ يوماً بكارثةٍ ... إلا وكان له في دفعها أثرُ

كأنه ديدبانٌ في حراستِها ... هيهات يثنيه عن إنقاذها وَطَرُ

إقرأ له الردَّ بعد الردِّ يرسلُه ... على العدا أين منه الصّارِمُ الذَّكَرُ

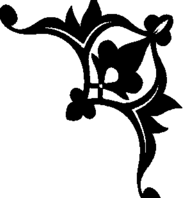
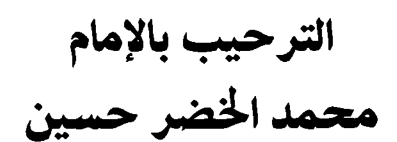
في قالبٍ لم يطُفْ هجزٌ بساحته ... لكنّه من صميم الحقِّ منحدرُ

---

(1) مجلة «الفتح» العدد ٣٣٨ ـ السنة السابعة ـ الصادر في ٤ ذي الحجة ١٣٥١هـ ـ قصيدة للشاعر الإسلامي الكبير محمد صادق عرنوس بمناسبة سفر الإمام محمد الخضر حسين لأداء فريضة الحج عام ١٣٥١ .

في مهبطِ الوحي سلْ عن دائنــاً فئــةً ... نامت وطالَ بنا في المحنة الـسهر
ألــم يعــد ثــمَّ فــي إنقاذنــا أمــلٌ ... هل انطفا نورُه واسـتفحلَ الخطـرُ
قـلْ للحجـيجِ إذا وافيـتهم بمِنـى ... قــولاً لــه وقعــه فــالحجُّ مــؤتمرُ
هنا انبثاق الهدى يا قـومُ فـاتّعِظوا ... ومهبطُ الـروح بالتَّنزيـلِ فـاعْتبروا
يــا أيّهــا النــاسُ ديــنُ الله مُنتَهـكٌ ... أينَ الكتـابُ وأيـن الآيُ والـسُّوَرُ
اللفظُ باقٍ ومعنـاهُ الكـريمُ مـضى ... والروحُ إنْ فُقِدَتْ ما تَنفعُ الـصُّوَرُ
غوصوا على دُرَّه المكنونِ والتمسوا ... منه الـشفاء ففيـه الـوِرْد والـصَّدَرُ
يا للعجائب ظمأى والحيـا معكـم ... لو شئتم انهـلَّ عـذباً مـا بـه كـدرُ
موقوفة عـودة العـزّ القـديم علـى ... أن يعمل العقل في التنزيل والبَصَرُ
إذا غـــدا عـــادةً فـــيكم مؤثلـــة ... تقلص الذل عنكم وانجلى الضررُ

❐ ❐ ❐

الترحيب بالإمام محمد الخضر حسين بمناسبة عودته من أداء فريضة الحج(1)

محمد عبد العظيم الزرقاني

الحمد لله على سابغ نعمته، والصلاة والسلام على مظهر رحمته، سيدنا محمد وآله وصحابته.

أيها السادة!

قد علّمنا الحق فيما علّم، أن نحتفل بسلامة الهداة من عباده، ونجاة المصلحين من خلقه، وأقرب شاهد نضربه به مثلاً لذلك: هو هذه الليلة الغراء، ويومها الأغر (يوم عاشوراء) المبارك، الذي اعتبره الإسلام موسماً يتقرب فيه الخلق إلى الخالق، احتفاء بفوز طائفة من رسله، وشكراً على نجاة فئة من أنبيائه، في الأمس البعيد المتغلغل في أحشاء الماضي، قد تجلت عناية

---

(1) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء التاسع من المجلد الخامس، الصادر في شهر صفر سنة ١٣٥٢هـ ـ القاهرة.

أقامت جمعية «الهداية الإسلامية» في القاهرة حفلة ترحيب بالإمام محمد الخضر حسين رئيس الجمعة، ورئيس تحرير المجلة، وذلك في ليلة الجمعة العاشر من المحرم سنة ١٣٥٢. وقد ألقيت فيها القصائد والخطب، وهذه كلمة أحد العلماء الأفاضل، والعضو في الجمعية، والكاتب الإسلامي الكبير الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

الكريم لبعض خاصته من خلقه، وأمنائه على رسله، فنجّاهم، وكتب لهم السلامة والفوز، ووافق ذلك يوم عاشوراء.

وفي هذا اليوم الحاضر الجديد، الذي يرفّ من الجدة، تتجلى العناية الإلهية لرجل من رجالات الإصلاح والجهاد، بل تتجلى هذه العناية الربانية لجمعية الهداية الإسلامية في شخص رئيسها الموقر، وأوبته إليها سالماً غانماً، ويصادف ذلك اليوم أيضاً يوم عاشوراء، فما أسعده يوماً يعيد التاريخ فيه نفسه، ويعتز فيه الحق وأهل الحق قديماً وحديثاً، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨] ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[البقرة: ١٠٥].

نعم، إن هذه أول ليلة من ليالي محاضرات الجمعية بعد عودة عميدها إليها من الأقطار الحجازية المباركة، تصحبه سلامة السلام، وترعاه عناية الحق، وتترادف عليه أنوار الحج الأكبر، وينفح من لدنه أريج المصطفى ﷺ.

وحقّ للجمعية أن تتخذ هذه الليلة عيداً تتبادل فيه آيات التهاني والتبريك، وتظهر معالم الفرح والبهجة، وتنشر أعلام السرور والغبطة، وتشكر مولي النعم على هذه النعمة؛ فإن الأستاذ يتبوأ من الجمعية مكان الرأس من الجسد، والنور من العين، والروح من البدن، وأي سرور يعدل سرور الجسم يعود إليه رأسه، والعين يردّ إليها نورها، والبدن تبعث فيه روحه. ! لك اللهم من الحمد ما يفوق كل حمد، ومن الشكر أضعاف كل شكر، سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

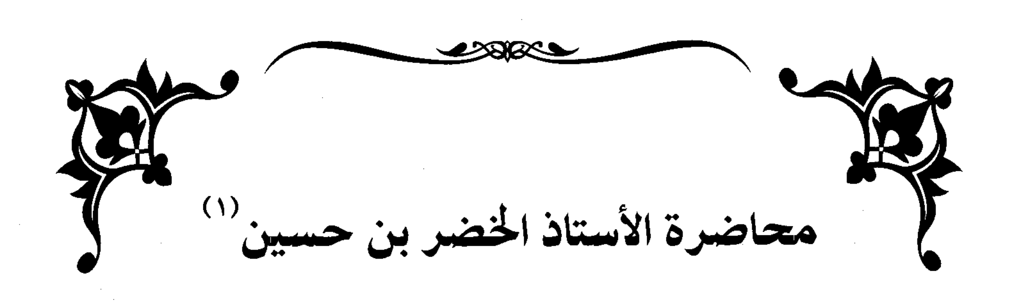
أي وربي! إن الأستاذ الخضر لنفحة من نفحات الحق في هذا العصر، جاد به الجواد على هذا العالم العقيم، فأحيا به من موات الإسلام، وجدّد

بعزمه من شباب الدين، ونضر بأخلاقه من وجه الفضيلة، ورفع بنبوغه من منار العلم، وجبر بهمته من كسر الشرق وأهل الشرق. . . فإذا نحن رحبنا به، فإنما نرحب بلسان الإسلام والدين، والفضيلة والعلم، والشرق والشرقيين. أطال الله في أيامه، وزاد في همته، وأكثر في المسلمين من أمثاله، وضاعف في الأمة من نفعه.

أيها السادة!

إن جمعية الهداية الإسلامية تشكر لكم هذا الشعور الفياض الذي دفعكم إلى مشاركتها هذا السرور، ومبادلتها هذه التهاني، ومشاطرتها ذلك الترحيب، نسأله ـ وهو الجواد الكريم ـ أن يهيئ لكل منا عهداً قريباً يتمتع فيه بما تمتع الأستاذ من حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي ﷺ، وأن يؤيد الإسلام والمسلمين بروح من لدنه، ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[إبراهيم: ٣٩]، والسلام عليكم ورحمة الله.

❐ ❐ ❐



محاضرة الأستاذ الخضر بن حسين[1]

في مساء يوم الجمعة الفائت، سمعنا (بالراديو) من مصر صوت أستاذنا

---

(١) جريدة «المنار التونسي» العدد الثالث من السنة الأولى الصادر في ٦ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ - ٢٤ أوت ١٩٣٦م - تونس.

تعليق: هذا الخبر يمثل محبة الشعب التونسي الصادقة للإمام محمد الخضر حسين، وتقصيه لأخباره وأحاديثه عبر المذياع. ويشير من ناحسة ثانية إلى أن الإمام كان دائم التواصل مع وطنه تونس، وحرصه وعمله المخلص على نشر أنباء تونس، وبيان مكانتها في الشعر والأدب، ورجالاتها مع أهل تونس.

ونلفت النظر هنا إلى كتاب «تونس وجامع الزيتونة» للإمام، الذي خص فيه تونس ببحوث هامة عن شعرائها وفقهائها وأعلامها من شيوخ الزيتونة، وصفحات من تاريخها ونضالها.

واطلعت من خلال البحث في مجلة «العالم الأدبي» العدد الأول من السنة الرابعة الصادر في ١١ محرم ١٣٥٢هـ - ٦ ماي ١٩٣٣م على كلمة بعث بها الإمام محمد الخضر حسين إلى إدارة المجلة تحدث فيها عن مجلة «البدر» التونسية، فقال: «فقد بلغتنا مجلة البدر، وهي من المآثر التي تفتخر بها البلاد التونسية، لأنآ في الشرق لا نجد دليلاً على رقي الشعب التونسي إلا بمثل هذه المؤلفات الحديثة الراقية.

ولو عرفت الأمة أن سمعتها في الخارج، إنما ترتفع بمثل هذه الآثار، لبذلت مجهودها في مساعدتها، وفي تحصيل الآمال على سمعة فاخرة في الخارج خير كثير».

العزيز العلامة النحرير الشيخ الخضر بن حسين ـ كما نعهده ـ ذلاقة وفصاحة، لم تغير فيه لهجة المصريين وقلبهم لحروف المعجم.

وقد فتن الناس بسماع ذلك الصوت الذي حرموا سماعه عشرات السنين. وكان موضوع حديثه «الشعر التونسي في القديم والحديث».

فتكلم جنابه على الشعراء، وذكر من شعرهم، وبيّن أن نقد الشعر وفلسفة الأدب أول من ضرب في فنهما سهم أدباء تونس والقيروان والمهدية، وغيرها من بلدان المملكة التونسية؛ كابن رشيق، وغيره في القديم.

ويوجد الآن شبيبة ناهضة، ضربت في جميع فنون الشعر والنثر، وبلغت فيهما الكمال، وإذا عدَّ الشعراء والكتّاب في العالم، فيحتلون المراكز الأولى، ويوضعون في أول الصفوف، وإن ذلك الشبل من ذلك الأسد، ومن يشابه أباه فما ظلم.

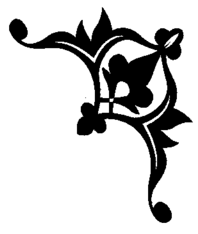
هذا خلاصة ما سمعناه من الأستاذ الخضر بن الحسين يلقيه على مسامعنا من مصر بمعناه.

وإن السرور لعمَّ البلاد، وللشيخ أصدقاء وتلامذة وأقارب وأحباب كثيرون، يودون رؤيته وسماع حديثه العذب.

وها نحن نسمع كلامه ولا نراه، متعنا الله برؤية وجهه الكريم، وجمعنا الله به في أبرك الساعات.







مصنفات الأستاذ
السيد محمد الخضر حسين

العلامة محمد بهجة البيطار[1]

١ ـ «رسائل الإصلاح»، الجزء الأول:

هي مقالاتٌ نافعة، بل أصول جامعة في الإصلاح العام، تشتمل على نحو خمس وعشرين رسالة أو مقالة في ضروب من الإصلاح الديني والمدني، وقد قسمها أربعة أقسام كما جاء في مقدمتها: ١ ـ قسم الأخلاق والاجتماعيات، ٢ ـ قسم المباحث الدينية من أصول الدين وأصول الفقه، والأحكام العملية، ٣ ـ قسم السيرة النبوية وتراجم الرجال والبحوث التاريخية، ٤ ـ قسم مباحث اللغة وصناعة الأدب. وأكثر رسائل هذا الجزء الأول من القسم الأول ـ أي: الأخلاق والواجبات ـ، ومن مباحثه الطريفة التي عالجها الأستاذ: التعليم الديني في مدارس الحكومة، العلماء والإصلاح، أصول سعادة الأمة، الغيرة على الحقائق والمصالح، الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم، الانحراف عن الدين علله وآثاره ودواؤه، ضلالة فصل الدين عن السياسة، الرفق بالحيوان، محاكاة المسلمين للأجانب، علة إعراض الشبان عن الزواج، النبوغ في العلوم والفنون.

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق، الصفحة ٨١ من المجلد الثامن عشر ـ سنة ١٩٤٣م. عرض لبعض مؤلفات الإمام التي وصلت إلى المجمع في حينها.

٢ ـ «محمد رسول الله وخاتم النبيين»:

هذه شذرات من السيرة النبوية، بيّن فيها الأستاذ حال العرب قبل الإسلام، ونشأته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ودلائل نبوته، والقرآن الكريم وإعجازه، وبشارات الرسل بنبينا، ومعجزاته ﷺ، وعموم رسالته، ودوام شريعته، وختم النبوة به، وخلقه وآدابه، واجتهاده في عبادة ربه، ثم ختمها بفصل في أثر دعوته في إصلاح العالم. وقد ذكر في طليعة الرسالة ما دعاه إلى تأليفها بقول: «ما أراه في تلك الصحف ـ صحف الطاعنين في الإسلام ـ من زور وبهتان، ثم ما أذاعته الصحف من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان والفتيات».

٣ ـ «آداب الحرب في الإسلام»:

وهذه الرسالة جمعت فصولاً في نظام الحرب وآدابه في الإسلام، بينت منشأها، والاستعداد لها، والتدريب عليها، وإعلانها، والشعار فيها، وتعهد الجند بالموعظة. ومن محاسن ما جاء فيها أيضاً: أثر الاستقامة في الحرب، والشورى فيها، والرفق بالجند، ومجاملة رسل العدو، وعدم التعرض لهم بأذى، وتجنب قتل من لا يقاتل، وحسن معاملة الأسرى، وختمها بأبواب منها: (عقد الصلح) إذا جنح له العدو. من تدبر هذه الرسالة النافعة علم أن الحرب في الإسلام ليست للقهر والاستعباد، بل لدفع الاعتداء والظلم، ونشر لواء الحق والعدل، وقد كان الخلفاء العظام يوصون قوادهم بأن لا يقطعوا شجراً، ولا يفسدوا ثمراً، ولا يقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا يُجهِزوا على جريح، ولا يعتدوا على من كف عن الحرب، وأين منها الحروب التي تستخدم أفتك الآلات الحديثة لتدمير المدن، وتعذيب أهلها الآمنين؟!.

٤ ـ «القياس في اللغة العربية»:

أورد المؤلف لهذا الكتاب مقدمات في فضل اللغة العربية، ومسايرتها للعلوم والمدنية، وحالها في الجاهلية، وارتقائها في الإسلام، وجعله إياها لغة للشعوب، وبحث في وجه الحاجة إلى إنشاء مجمع لغوي ليرفع لواء اللغة العربية في الشرق والغرب، ثم بعد أن مهد المؤلف تمهيداً بين فيه حاجتنا إلى القياس في اللغة، عقد فصلاً ممتعاً تحت عنوان: أنواع القياس، وما الذي نريد من بحثه في هذه المقالات، استهله بقوله: تجري كلمة القياس عند البحث في معاني الألفاظ العربية وأحكامها، فترد على أربعة وجوه:

١ ـ حمل العرب أنفسهم لبعض الكلمات على أخرى، وإعطاؤها حكمها لوجه يجمع بينهما.

٢ ـ أن يعمد إلى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجوداً وعدماً، فتعدي هذا الاسم إلى معنى آخر تحقق فيه ذلك الوصف، وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة، ومثال هذا اسم (الخمر) عند من يراه معتصراً خاصة.

٣ ـ إلحاق اللفظ بأمثاله في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة؛ كصيغ التصغير والنسب والجمع.

٤ ـ إعطاء الكلمة حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها في نوعها، ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه؛ كما أجاز الجمهور ترخيم المركب المزجي قياساً على الأسماء المنتهية بتاء التأنيث. ثم قال ـ بعد أن بسط القول في هذه الأقيسة الأربعة التي أوردنا منها ما يدل عليها ـ: وهذا النوع من القياس، والذي قبله ـ أي: الثالث والرابع ـ هما موقع النظر، ومجال البحث في هذه

المقالات، واخترت للفرق بينهما التعبير عن الأول بالقياس الأصلي، وعن الثاني بقياس التمثيل، وقد ذكر في القياس الأصلي ما يحتجّ به في تقرير أصول اللغة ومفرداتها، وألقى في القياس في صيغ الكلم واشتقاقها ـ نظرة على المصادر والأفعال ومشتقاتها؛ كاسمي الفاعل والمفعول، وأفعل التفضيل.

وقد استشهد بكلام المحققين على الاحتجاج بالكتاب العزيز، وفصل القول في القياس على الحديث الشريف، ثم عقد فصلاً مهماً في الاشتقاق من أسماء الأعيان، وتصرفِ العرب فيها، وأخذهم منها أفعالاً في أوزان مختلفة، وأسـماء فاعلين ومفعولين. وذكر منها اشـتقاق الفعل من أسـماء الأعيـان؛ لإصابتها أو إمالتها، (قلت: لعله: أو إنالتها ـ بالنون ـ كما ذكره من بعد، ومثل بنحو: شحمه ولحمه: أطعمه ذلك. ص٦٩).

وجاء بعده فصلٌ عنوانـه: ما هو الاسـتقراء الذي قامت عليه أصـول الاشتقاق؟ وقد حقق فيه أن الأفعال والمصادر التي لـم يسمع لها فروع في الاشتقاق على نوعين:

منها: ما لـم يتصرفوا فيه على كثرة وروده في محاوراتهم ومخاطباتهم مثل: ويل وويح ونعم ويذر وما يماثلها، فيجب أن تبقى على هيئتها بدون اشتقاق منها، ولا أدنى تصرف فيها.

ومنها: ما لا يكثر في مخاطباتهم حتى يستفاد من وروده بهيئة واحدة أنهم قصدوا إلى ترك تصريفه، فيصح لنا أن نجري قاعدة الاشتقاق في هذا النوع، وإن لـم ندر أن العرب تصرفوا فيه على هذا الوجه من الاشتقاق؛ كاشتقاق فعل واسم فاعل مما سمع مصدره، أو إحداث مصدر لفعل مسموع ـ مثلاً ـ.

ثم أنشأ فصولاً قصيرة وغير قصيرة في أنواع الأقيسة الكثيرة؛ كأقيسة

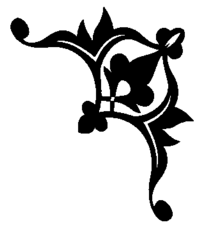
التمثيل، والشبه، والعلة، وأقسام علة القياس، وأقسام قياس العلة، وشرط صحة قياس التمثيل، ومباحث مشتركة بين القياس الأصلي والقياس التمثيلي، والقياس في الاتصال، وفي الترتيب، والفصل والحذف، ومواقف الإعراب، والعوامل، وشرط العمل والقياس في الأعلام. ثم ختم الكتاب باقتراح الأستاذ المغربي في الكلمات غير القاموسية، وجوابه على هذا الاقتراح.

وقد بحث الأستاذ في هذه الفصول جميعها بحث الناظر المستقل المستدل، فبين في كل منها ما يقبل وما يرد، وما يقاس عليه وما لا يقاس، ومذهبه وسط بين المعجميين الذين يجمدون على السماع فيهما يمكن إجراء القياس فيه لاستيفاء شروطه، وبين من يفتاتون على اللغة، فيشتقون من عندهم أقيسة لا تستند إلى نصوص لغوية، ولا قواعد عربية من صرفية أو نحوية.

ومن هذه الرسالة يعلم أن المعاجم اللغوية وحدها لا تفيد معرفة الأسس التي ينبني عليها القياس الصحيح من غيره؛ لأنها لم توضع لذلك، بل لا بد من الجمع بين معرفة النصوص ودراسة القواعد والأصول، التي تشتق منها الفروع، وتجري على مقتضاها الأحكام.







في طريق القاهرة[1]
مع الأستاذ الخضر حسين

في مقهى قريب من الأزهر، قابلت زميل الدراسة الأخ إسماعيل بن شعبان، الذي كان موجوداً بالقاهرة، وأبديت له رغبتي في الاتصال بالشيخ محمد الخضر حسين العلامة التونسي الذي رفع اسم تونس بربوع أرض الكنانة عِلماً وعملاً، والمدرس بقسم التخصص بالجامعة الأزهرية، والعضو بهيئة كبار العلماء، ورئيس «جمعية الهداية الإسلامية».

فابتسم الأخ إسماعيل، وقال: اجلس، فأنا على موعد مع شيخنا هذه اللحظة.

وقدم الشيخ، وقُدِّمْتُ إليه، فصافحني بحرارة، وكان فرحه بوجودي عظيماً لأمور ثلاثة حسبما صرّح لي بذلك:

أولاً: لأنني تونسي زيتوني.

وثانياً: لأني أنتسب إلى المرازيق الحي العربي الذي عرفه الأستاذ في أيام شبابه.

وثالثاً: لأني أعمل مع أعز أصدقائه السيد الشاذلي القسطلي

---

(١) جريدة «النهضة» التونسية ـ العدد الصادر في ٢٧/ ٤/ ١٩٥١م. مقالات نشرت على حلقات باسم مستعار (زورق اليم)، الحلقة ١٢، وقد أخذنا منها ما يتعلق بالإمام محمد الخضر حسين.

مدير جريدة «النهضة».

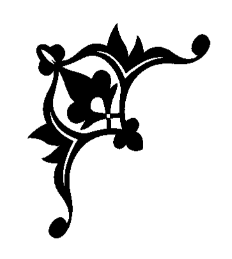
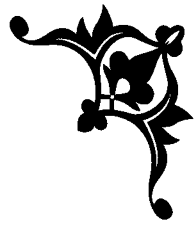
وانتقلنا إلى بيت الأخ إسماعيل بنزل الأزهر، وهناك انطلق الأستاذ الخضر يتحدث عن تونس في حرارة الابن المخلص البار.

شيخ جاوز السبعين، أو لعله شارف الثمانين، نحيل الجسم، معروق الوجه، يحمل نظارتين على عينيه، لم يكد يشرع في الحديث عن بلاده تونس حتى ارتفع صوته شيئاً ما حاملاً في نبراته حرارة الذكرى.

وتحدث عن أيامه بالزيتونة طالباً ومدرساً، وعن شيوخه، وعن تلاميذه، وعن كتب التعليم وأساليب الدراسة، ولكنه لا يريد أن يعلق بشيء عن حركة الطلبة الأخيرة.

ويذكر أصدقاءه من العلماء، وفي مقدمتهم سماحة الإمام الشيخ سيدي الطاهر بن عاشور، وعن أصدقائه من رجال السياسة والصحافة، وفي مقدمتهم حضرة مديرنا السيد الشاذلي القسطلي، وينتقل الأستاذ الخضر من هنا إلى السؤال عن صديقه القسطلي، وعن أعماله بالبلدية، وحدثته عن ذلك كله بما فيه الكفاية، فابتسم وقال: لقد عرفته من أيام الشباب رجلاً عملياً متحركاً، واعتقدت، ولست بمخطئ في اعتقادي: أنه أخلص العاملين لفائدة بلادهم، وأن في استطاعته أن يعمل كثيراً، وأن يصنع ما يعجز عنه غيره.

وحاولت استدراج الأستاذ بلباقة إلى الحديث عن السياسة، وعن الأحزاب الوطنية؛ لأستطلع رأيه، فلم أسمع منه إلا كلمة واحدة في معرض الحديث عن صديقه القسطلي، وهي قوله: إنه يعمل ما يعجز عنه (الغلاة)، ومن كلمة (الغلاة) عرفت رأي الأستاذ، فلم أحاول الدخول معه في حديث من هذا النوع.

في سبيل الله والوطن
شيخ الأزهر الجديد

محمد عبدالله السمان[1]

ما تعودت أن أشارك الكتّاب في اصطناع الكتابة عن شيوخ الأزهر، كلما احتلّ أحدهم كرسي رياسته، أو نحّي عنه؛ لأن الأزهر منذ أعوام طوال وهو في محنة قاسية، صنعها بأيديهم أبناؤه، والبكّاؤون على مستقبله زوراً وبهتاناً، ومرت هذه المحنة القاسية بالأزهر، ولم يزد خلافاً على كونه ميداناً للمهازل التي يتعفف القلم عن ذكرها، ومجالاً للصخب والجلبة والغوغاء، ولعن الله المناصب؛ فقد كانت سبب محنة الأزهر، وكادت تخرجه عن هيبته ووقاره.

أصر كبار رجال الأزهر على أن يقلّدوا الزعماء السياسيين، فخلقوا بين جدران الأزهر أحزاباً متنافرة متشاحنة، وأصبح لكل منهم أشياع وأتباع يسيرون في ركبه، ويهتفون له في كل مناسبة، أو في غير مناسبة، وينتصرون لآرائه واتجاهاته وتصريحاته، حين يرى رأياً، أو يتجه إلى اتجاه، أو يصرح بتصريح، وهؤلاء الأشياع والأتباع يثبتون وجودهم وإخلاصهم لزعيمهم

---

(١) كاتب إسلامي معروف ـ جريدة «منبر الشرق» ـ العدد الصادر يوم الجمعة ١٣ محرم سنة ١٣٧٢هـ الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٥٢م. وتصدر في «جنيف» بسويسرا.

كلما خلا كرسي المشيخة؛ فإنهم يشمرون عن سواعدهم ليدعوا له، وينشرون الأكاذيب، ويصنعون التهم والأباطيل التي تشوه سمعة منافسه، ويكتبون مطالبهم إلى الجهات المسؤولة، منها ما يرفع صاحبهم إلى القمة، ومنها ما يهبط بمنافسه إلى الحضيض، ولجأ كبار رجال الأزهر لتأكيد هذه الزعامة الجوفاء إلى كسب عواطف الأساتذة والطلبة، حتى بوسائل غير مشروعة.

ولعل مهزلة (الصعيدي والبحراوي) التي كانت تمثل على مسرح الأزهر لم يزل صداها يدوي في آذاننا إلى اليوم، وأما الدماء التي سالت فوق أرض الأزهر من جرائها، فلم تزل آثارها إلى اليوم، وما كنا نملك إلا أن نضحك ـ وشر البلية ما يضحك ـ على هذا الحصن الذي تهدف رسالته إلى إيجاد الوحدة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وقد عجز عن أن يوجدها بين جدرانه.

وفي سبيل المنصب باع البعض من كبار رجال الأزهر ضمائرهم، ولعلنا لم ننسَ بعد تلك البرقية المسهبة التي أرسلها شيخ كان مرشحاً لمشيخة الأزهر إلى الملك الخليع في «دوفيل» يتمنى له طيب الإقامة وسط رقصات الأكتاف، وهزات البطون من الساقطات اللاهيات، ولعلنا لم ننس أشباح العمائم الضخام وهي في ميناء الإسكندرية تودع هذا الملك الساقط، أو تستقبله حين كان يرحل ويعود.

وحدثت وثبة الجيش المباركة، ولم يكن هدفها سوى التطهير، وكان لا بد أن تشمل حركة التطهير هذه الأزهر (المعمور)، ولم تستطع هيبة الأزهر ولا وقاره أن يحولا دون ذلك؛ لأن هيبة الأزهر ووقاره قد تخليا عن أبناء الأزهر، وبقيا في البنيان الشامخ وحده، ووثبة التحرير لم يكن يلائمها لمشيخة

الأزهر إلا شيخ لا تجريح في سمعته، ولا تشويه في صفحته، ليس صعيدياً ولا بحراوياً، حتى لا تكون هناك فتنة، وليس من ورائه أشياع أو أتباع يهرجون، حتى لا تكون هناك مهزلة، وليس راغباً في المنصب حتى يظل للمنصب الكريم هيبته، وليس زاهداً في ذرة من كرامته حتى تظل كرامة الأزهر في إطار من الذهب الخالص، محوطة بالإجلال والوقار، وأعتقد أن ولاة الأمور ما تعبوا في شيء تعبهم في العثور على شيخ للأزهر تكتمل فيه هذه الصفات، كما أعتقد أن إخلاصهم للأزهر هو الذي وفقهم إلى اختيار هذا الشيخ الجديد الذي تتوفر فيه كل هذه الصفات.

والشيخ الجديد ـ فضيلة الأستاذ محمد الخضر حسين ـ عالم جليل، لم يعترف إلا بالنسبة الإسلامية، فقد جاهد في مسقط رأسه من أجل الإسلام ووطنه، حتى أوشك حبل المشنقة أن يضرب حول عنقه، وجاهد في مصر والشام وغيرهما من أجل العروبة والإسلام، وجاهد في بلاد أوربا بقلمه ولسانه داعياً للإسلام وأمته.

والشيخ الجديد ليس من خلفه أشياع ولا أتباع حتى يهرجوا له؛ لأن وقاره يسمو به عن أن يتخذ من حوله أشياعاً أو أتباعاً، ولأن اعتزازه بنفسه يربأن عن اتخاذ هؤلاء الأشياع والأتباع.

والشيخ الجديد ليس راغباً في المنصب، ولا في المظهر؛ لأن مكانته العلمية والأدبية أغنته عن كل هذا؛ فقد ظل السنوات الطوال منعزلاً في حدود عمله، وهو أستاذ في كلية أصول الدين، وعضو هيئة كبار العلماء، وعضو مجمع فؤاد للغة العربية، ورئيس جمعية الهداية الإسلامية، ورئيس تحرير مجلات: الأزهر، ولواء الإسلام، والهداية الإسلامية، ولا أعتقد أن الشخصية

التي تشغل مثل هذا الحيز في ميدان العلم والأدب، تتوق إلى أي منصب مهما كان شأنه.

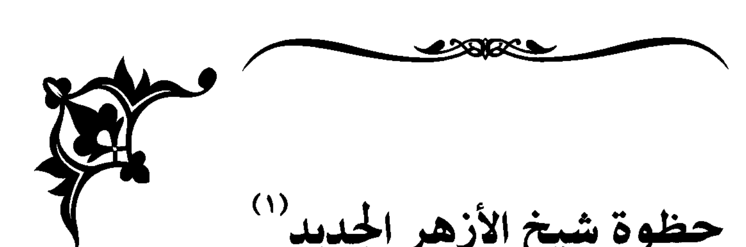
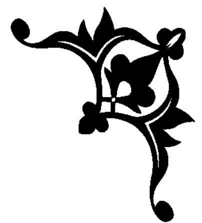
والشيخ الجديد أكبر وأجل من أن يزهد في ذرة من كرامته، فهو مستعد لأن يبذل روحه وما يملك في سبيل كرامته، وليس مستعداً لأن يبذل ذرة منها في سبيل الإبقاء على حياته، ولا في سبيل الدنيا.

ولقد حدث ذات يوم أن قدم استقالته من جمعية الهداية الإسلامية، وأنا عضو في مجلس إدارتها، وكان سببها أن قسم الجمعيات الدينية بوزارة الشؤون خاطبه في رسالة بعبارة: (حضرة رئيس جمعية الهداية الإسلامية) دون أن يراعي مكانة الرجل الذي أصر على الاستقالة، لولا أن كتبنا إلى وزارة الشؤون محتجين على إجرائهم الخالي من الذوق.

وبعد:

فإن الأزهر اليوم ليبدأ عهداً جديداً، والأمل كبير جداً في أن يخطو إلى الأمام خطوات موفقة في سبيل الإصلاح الذي يعود على الإسلام ووطنه وأمته بالخير واليمن، وكل ما نرجوه أن يحفظ الله الشيخ الجديد من أن تكون له حاشية، فهي سر كل بلاء في كل عهد، والله الموفق.



حظوة شيخ الأزهر الجديد(1)

لأول مرة في تاريخ الأزهر، أو في تاريخ شيوخ الأزهر، يذهب ثلاثة من الوزراء يطرقون باب شيخ، شيخ يبعد كل البعد عن الأزهر، وسياسة الأزهر، وأزمة الأزهر، ومناصب الأزهر. ذهب ثلاثة من الوزراء إلى شارع خيرت؛ ليطرقوا باب الشيخ الخضر حسين التونسي الأصل، المصري الجنسية، وذهبوا إليه ليقولوا: أنت شيخ الأزهر.

وكان جواب الشيخ: أنه ابتهل إلى الله أن يعينه ويساعده.

وقد قوبل نبأ تعيين شيخ الأزهر الجديد بالرضا والغرابة:

الرضا؛ لأنه لا ينتمي لحزب سياسي، ولم يعرف أنه أيد زعيماً من الزعماء، أو حزباً من الأحزاب، ثم إنه لا يرجو مغنماً من الدنيا؛ لأنه شارف السن التي لا تسمح للإنسان بالتفكير إلا في الله، وبهذا، فالمنظور أنه سيعمل لله، وأنه سيعمل للأزهر، من حيث رفع مكانته. وأهم من ذلك كله: أنه لا حاشية له في الأزهر تسيره، بل إنه سيعمل من وحي إرادته، وما يرتضيه الأزهر، وهذا هو المهم، أما كونه تونسياً، فالأزهر للعالم الإسلامي أجمع.

أما الغرابة في التعيين، فلأنه تونسي الأصل، وغريب على الأزهر أن

---

(1) جريدة «الوزير» التونسية ـ العدد ٧٧٣ الصادر بتاريخ ٧ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ ـ ٢٥ ديسمبر ١٩٥٢م ـ تونس.

يتولى مشيخته غير مصري، فلم يعرف عن أجنبي تولى مشيخة الأزهر إلا اثنان تقريباً، هما: الشيخ المهدي العباسي، والشيخ عليش، فهما من المغاربة، إلا أن أصلهما تمصر، وكانا هما من الذرية؛ بخلاف الشيخ الحالي؛ فلقد جاء إلى مصر، ثم تجنس بالجنسية المصرية حديثاً.

والمهم أن اختياره جاء اختياراً موفقاً، فهو أصلح إنسان تولى هذا المنصب الخطير، ولا يستطيع أن يدس له إنسان، أو يحوله عن خطئه، وليس هناك مؤثر خارجي يستطيع أن يؤثر فيه، بل سيعمل من وحي إرادته فحسب.

والوكيلان

أما الوكيل الأول: فقد لقي قبولاً من الجميع؛ لأن الأستاذ محمد عبد اللطيف دراز عرف بين الأزهريين بجهاده المرير، وحسن إدارته، وسعة أفقه العلمي، وحبه، بل وتفانيه في خدمة الأزهر والأزهريين، ولم يشذ عن هذا التأييد إلا حفنة كانت تطمع في بعض المناصب التي ولت باستقالة شيخ الأزهر، والتهاني التي يتلقاها تدل على أنه رجل يستحق المنصب الذي تقرر أن يشغله وهو كفء له.

وأما الوكيل الثاني: وهو الشيخ محمد نور الحسن، فهو رجل سوداني المولد، عالم فاضل، عرف بسعة علمه في الدوائر الأزهرية، إلا أن بعض المسؤولين في الأزهر يقولون، ومنهم مصدر هذا الحديث: إنه لم يعلم أنه عين في الأزهر وكيلاً ثانياً إلا من الصحف، ومن التهاني التي أرسلت إليه، وهو ـ وإن كان من حاشية الشيخ السالف، وقد رشحه في شروطه ـ، فهو ـ كما قلنا ـ واسع الأفق والتفكير، وتقلد مناصب عدة في الأزهر، أظهر فيها براعة تدل على التفكير وحسن التدبير.



تهنئة إلى الأستاذ الإمام
فضيلة شيخ الجامع الأزهر الجديد
سماحة الشيخ محمد الخضر بن الحسين

سالم ضيف[1]

قف فوق منبر مجد الشرق يا خَضِرُ ... واهتف بأن العلا بالعلم يعتبرُ
ولا حياة لهذا الشرق راقية ... إلا بعلم وأخلاق لها أثر
وبالفنون فنون العصر أجمعها ... ما هي إلا من الإسلام تنحدرُ
ومن يرى غير هذا رأيه خطر ... إلى العروبة والإسلام يحتقر
(أبا محمد) يا من فزت واتجهت ... لك المحافل واهتزّت لك الفِكر
يا أيها (الخضر) المحمود سيرتُه ... الفوز يأتي لمن يسعى ويصطبر
يا (ابن الحسين) أيا من زان أمته ... أنت العظيم وبحر كلّه درر
ها هي الإمامة قد جاءتك طائعة ... بالجامع الأزهر السامي لها عبر
تقول يا من له في العلم منزلة ... رفيعة إنني أهواك يا قمرُ
عصر المحاباة قد ولّى بخسته ... وجاء عصرٌ إلى الأكفاء ينتصر
إلى الهداية والإصلاح بغيته ... وبالعروبة والإسلام يفتخر

(١) شاعر تونسي من «نفطة». جريدة «الأسبوع» ـ العدد ٣٠٩ ـ سنة ١٩٥٢م تونس.

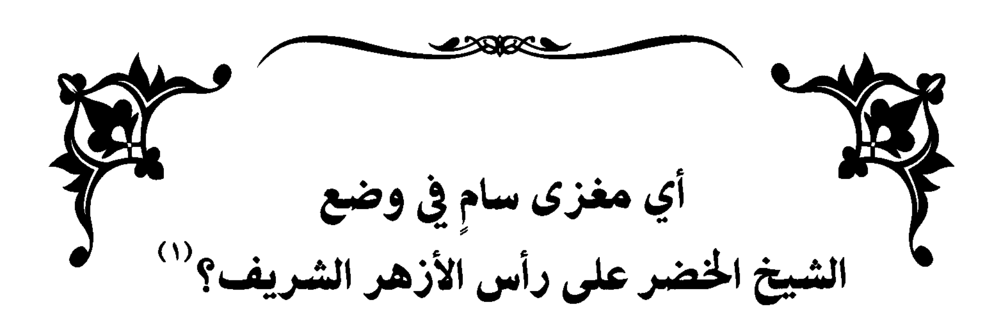
فاهنــأ بمــا نلتــه بــالعلم محترمــاً وكن كأنــت إلـى الإسـلام تنجبـر

فالجامع الأزهر الزاهي بطلعـتكم قـد اعتـراه سـرور لـيس ينحـصر

ومصر كلها مثل الشرق فـي فـرح وتونس جذلى لمـا جاءهـا الخبـر

و«نفطة» أمك السمحا تبـاهى بكـم وتدعو يا ابني لك الإسعاد مزدهر

❐ ❐ ❐



أي مغزى سامٍ في وضع الشيخ الخضر على رأس الأزهر الشريف؟[1]

العلامة محمد الفاضل بن عاشور

ما انفكت مدينة الفسطاط منذ أنشئت، ثم مدينة القاهرة منذ خلفتها، ترتبط مع القطر التونسي بأعمق المعاني، وأوثق الصلات.

فقد كان فسطاط عمرو مركز القيادة العامة لفتح إفريقية، ثم كان العمال والقواد المتعاقبون عليه أول المسؤولين عن إسلام المغرب وتعريبه.

وكانت الجيوش المرابطة بمصر، والزاحفة عليها، هي جيوش الغزو، وإمداد الفتح للبلاد التونسية. فعبدالله بن أبي سرح، ومعاوية بن حديج، وحسان ابن النعمان، وعقبة بن نافع، وموسى بن نصير، لم تعقد ألويتهم، وترسم خططهم، وتنظم حركاتهم إلا بمصر.

والصحابة الكرام الذين شرفوا هذه التربة التونسية، قد كان في مصر سابق كفاحهم، وعلى أرضها ماضي عبادتهم، وفي جامع الفسطاط قديم حديثهم، والفقهاء العشرة من التابعين فقهوا مصر وأرشدوها وعلموها، قبل أن يفقهوا

---

(١) صحيفة «الأسبوع» ـ العدد ٣٣٤ الصادر في ١٨ ماي مايس ١٩٥٣م تونس.

ملاحظة: يبدو أن لهذ البحث تتمة لم أعثر عليها في الأعداد اللاحقة من الصحيفة، ونشرناه؛ لما فيه من فائدة علمية جليلة.

أو يرشـدوا ويعلموا بأفريقية، لذلك بقيت الأرض التونسـية مرتبطـة ارتباطاً روحياً بالأرض المصرية، بلغ أوجَهُ في ختام القرن الثاني بتخريج سحنون عن ابن القاسم، وإمداد مصر للقيروان بمدونة فقه مالك.

من يومئذٍ لم يقم حكم، أو يجرِ عمل، أو ينتشر مذهب بأحد القطرين، إلا وهو يترامى إلى القطر الآخر ترامِيَ الشيء إلى صلته الضرورية، ومدى انتشاره الطبيعي، وذلك هو الذي يعلل الصدام الذي نشأ في القرن الثالث بين دولتي بني الأغلب، وبني طولون، فقد كانت كل واحدة منهما ترى أن حدود حكمها منقوصة الأطراف، ما دام أحد القطرين غير منضم إليها.

ونشأت في «المهدية» دولة العبيدين، فامتلكها ـ وهي في مهدها ـ شعور بأن لا دولة لها راسخة الدعائم، ولا دعوة فاطمية ثابتة سائرة، إلا بجميع القطرين المصري والتونسي تحت عرش المهدي، فتولدت عن هذا الشعور مدينة القاهرة، تونسية العمران، مغربية الوجهة، بربرية العصبية، وتأثرت بمحاكاة «المهدية» في شكلها وخططها، فكان لها كما للمهدية باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة، والسقيفة، وحارة كتامة.

وانشق الجامع الأزهر على قواعد مذهب تأصلت عقائده في «المهدية»، وتفرع فقهه فيها، واستندت الروح الأزهرية في رواجها الشعبي على خطابة ونثر وشعر، كانت كلها تونسية العوامل، مهدوية الطبائع.

وتأثرت عمارة الأزهر في أشكالها الهندسية وفنونها الزخرفية بمحاكاة أقواس وعمد أشرقت عليها شمس المهدية، وأزهار وأقمار ترطبت بأنفاس نسيمها البليل، فاستوثقت بذلك كله وحدة القطرين، واتسقت الروابط بينهما، حتى إنه لما تحرك أحدهما حركة الانفصال عن الآخر بقيادة المعز بن باديس

الصنهاجي، كان لتلك الحركة من الرجّة والاضطراب والزعزعة ما يكون لمحاولة الفكاك بين جسمين منساقة جاذبيتهما إلى الائتلاف.

وفاضت عن أرض مصر الزحفة الهلالية السلمية تجدد اللحام المنفك بتجديد المدد البدوي الذي هو جرثومة التكون الاجتماعي، فتكوّن المغرب العربي بذلك تكوناً جديداً، وانتعشت فيه روح العروبة بعد الذبول.

وكان ما عانته البلاد التونسية من جراء ذلك حقبة من الدهر، هو ما تعانيه الأجسام الحية من أزمات العناصر الملقحة التي تدخل عليها لتجددها.

ثم جاء الدور الصليبي، فانتظم القطران صفاً في مكابدة المحنة، ومجابهة الهجمة، وكان تشابه الظروف التي جرى فيها الطغيان واتحاد أشخاص الطاغين مظهراً جليلاً لوحدة ما بين القطرين سياسياً، في الوقت الذي كانت فيه هذه الوحدة تزيد تأكداً من الجهة الروحانية بنزول الشيخ أبي الحسن الشاذلي بالإسكندرية، واتخاذها مهداً لطريقته التي عمت منها العالم الإسلامي، وتنفست في شاطئها عن مثل الأدب الصوفي الذي بلغ شأوه الأبعد في حِكَم ابن عطاء الله، وشعر ابن الفارض، والبوصيري، وتتوثق الوحدة من الجهة العلمية بمثل صلات محمد بن جابر الواد آشي بالبدر بن جماعة، ورواية شيخ الإسلام ابن حجر عن شيخ الإسلام ابن عرفة، وتخرج السخاوي والمقريزي عن ابن خلدون، وما انضم بُعد من سلاسل لا تحصى في الأخذ والتخرج والرواية والأجدة والتدبيج، حتى صارت تونس من إمداد الأزهر، وهو من مواردها، وسهل انضواء القطرين معاً تحت العلم العثماني لحماية الإسلام في البحر المتوسط صلاتُ الثغور التونسية بثغر الإسكندرية، وعلاقة رجال جامع الزيتونة بالجامع الأزهر وشيوخه على ما بدت في ارتباط اسم أحمد

الشريف باسم البشراوي، والغرياني بالحفني، والبليدي، واسم زيتونة باسم الزرقاني، واسم مرتضى باسم الغرياني، واسم البناني بالصعيدي والصبان، واسم ابن سعيد باسم العطار، والرياحي بالأمير.





حديث من عالم الخلد[1]
الأستاذ الأكبر الشيخ الخضر حسين
يتحدث إلى صوت الشرق

الشيخ الخضر حسين هو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر، وهو جزائري الأصل، ولكنه ولد في تونس؛ لأن والده انتقل إليها مهاجراً بسبب دخول فرنسا جهة «بسكرة» بعد حرب دامت سنوات مع أهل الجزائر. وقد ولد سنة (١٢٩٣هـ - ١٨٧٣م) في بلدة «نفطة» في إقليم «الجريد» بتونس، وحفظ القرآن في البيت وهو صغير، ثم دخل جامع الزيتونة الذي يشبه الأزهر. ونال شهادة مشابهة للشهادة العالمية الأزهرية، وبعد تخرجه أصدر مجلة «السعادة العظمى» التي كانت أول مجلة أدبية علمية أنشئت في المغرب العربي.

ثم تولى القضاء في مدينة «بنزرت»، ولم يطل عهده في القضاء؛ لأنه حال بينه وبين الدراسة العلمية الواسعة، ثم اشتغل بالتدريس في جامع الزيتونة، وفي المدرسة الصادقية، وبقي في التدريس خمس سنوات، واشتغل أثناء ذلك

---

(١) جريدة «الاستقلال» صدرت في تونس بداية من ٣٠ سبتمبر أيلول ١٩٥٥م أسبوعياً، ورأس تحريرها الأستاذ محمد المنصف المنستيري، وهو من رجال الصحافة والكفاح الوطني. من مواليد تونس العاصمة ٦ أوت آب ١٩٠١م، وتوفي في ٢٩ جانفي كانون الأول ١٩٧١ . . وهذا المقال نشرته جريدة «الاستقلال» نقلاً عن صحيفة «صوت الشرق».

بقضية بلاده، وبالقضايا الإسلامية والعربية؛ مما عرضه للأخطار والأهوال؛ إذ غضب عليه المحتلون، وضيقوا عليه الخناق، ثم أصدروا عليه حكماً بالإعدام، ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذه؛ لأنه هاجر بنفسه في سبيل مبادئه وعقائده. فرحل إلى الشام، وإلى الحجاز، وإلى تركيا، وإلى ألمانيا. وفي أثناء الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى اعتقله جمال باشا التركي الملقب بالسفاح. وبقي في الاعتقال فترة طويلة، ثم أفرج عنه، وكان في هذه المحنة رفيقاً للرئيس شكري القوتلي، وكان شكري إذا لقي الشيخ في مصر خلال السنوات الأخيرة يداعبه قائلاً: «أهلاً بزميلنا في أيام الشدة والبؤس». .

ثم رحل الشيخ إلى مصر سنة ١٩١٩م، ونال الشهادة العالمية من الأزهر، وبذلك تحققت آمال والدته فيه؛ لأنها كانت تحمله وهو صغير، وتغني له بغناء شعبي تقول له:

يا ربي الأكبر	تخلّي لي محمد الأخضر
يقرأ في الجامع الأزهر	ويشتهر في المالكية

وعين الشيخ مدرساً في الأزهر، ثم أستاذاً في كلية أصول الدين، واشترك في إنشاء «جمعية الشبان المسلمين»، وأسهم في وجوه كثيرة من النشاط العلمي والأدبي والديني. فكان محرراً لمجلة «نور الإسلام»، ورئيساً لجمعية «الهداية الإسلامية»، وعضواً في «المجمع اللغوي»، وعضواً في جماعة كبار العلماء، ومحرراً لمجلة «لواء الإسلام»، ثم اختير شيخاً للأزهر في عهد الثورة، وظل فترة في هذا المنصب الخطير، ثم استقال، واعتكف في بيته يبحث ويكتب، حتى وافاه الأجل المحتوم في الثاني من فبراير سنة ١٩٥٨م.

من كان يظن أن هذا الحديث الذي دار بيني وبين الشيخ ـ رحمه الله ـ

سيطالعه مطالعوه في عالم الخلد ودنيا البقاء؟ . . ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤].

في شارع (صفية زغلول) خلف بناء وزارة التربية والتعليم بالقاهرة، وفي جناح ضيق من بيت هادئ من بيوت هذا الشارع القصير، سعيت إلى الشيخ لألقاه، وأتحدث إليه، وأستمع منه، وما كنت أدري أن ركاب الموت ينتظره بعد قليل، وما كنت أتوقع أن يكون هذا اللقاء آخر لقاء لي مع ذلك الشيخ الوقور الهادئ . .

دخلت عليه وهو في حجرة مكتبه، وحوله أضابير أوراق، ومجموعة كتب، والصمت يعقد رباطه على المكان، فليس ثمة حركات ولا صوت، فالشيخ قد تزوج مرتين، ولكنه لم يرزق بأولاد . . وشاهدت على وجهه دلائل المرض، ومظاهر الشيخوخة المرهقة، فأردت أن أخرج به من عزلته ووعكته، فسألته: إنك مع علمك وفقهك واشتغالك بالقضايا الإسلامية تقول الشعر، فما هي الدوافع التي دفعتك إلى الشعر؟ . .

فأجاب: حينما تراجع ديواني «خواطر الحياة» يسهل عليك أن تتعرف إلى المحرضات التي حرضتني على النظم . . فقد نشأت في إقليم «الجريد» بتونس، وكان للشعر في هذا الإقليم مكانة ومنزلة، وكان الكثيرون من أقاربي يقولون الشعر، وكنت ألمس ما يلاقونه من تكريم وحفاوة عن طريق قولهم الشعر، فتعلقت بأسبابهم من أول النشأة، وحاولت النظم وأنا في الثانية عشرة من عمري، ولما التحقت بجامع الزيتونة، رأيت المنافسة على أشدها بين الطلاب والأساتذة في قرض الشعر.

ولكني أصارحك بأن حبي للعلم تغلب على ميلي للشعر، ولعل السبب

في ذلك هو أنني لم أرض عن شعري الذي أقوله، وأتذكر أنني قلت عن الشعر: «أجوده ليس في متناول قريحتي، وغير الأجود تتسامى عنه همتي». . مع انصرافي إلى العلم والقضايا العامة، لم تنقطع صلتي بالشعر، بل ظللت أقوله بين الفينة والفينة في النواحي الإصلاحية والأخلاقية والاجتماعية والوطنية والدينية. .

فقلت للشيخ: هل يستفاد من ذلك أنه لا يمكن الجمع بين التوسع في العلم والعناية بالشعر؟ أو أن هناك تباعداً بين ميدان الشاعر وميدان العلم؟ وهل هناك غضاضة في أن يقول العالم الكبير شعراً؟ . .

فأجاب: ما إلى هذا قصدت، ولكنني أصور ما حدث بالنسبة إليّ، وفي الوقت نفسه أقول: إن هناك كثيرين انصرفوا إلى الشعر وحده، وكثيرين انصرفوا إلى العلم وحده، وبجوار هؤلاء وهؤلاء طائفة معدودة استطاعت أن تجمع بين العلم والشعر، فزادها ذلك الجمع مكانة ورفعة، منهم: القاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي، ومنذر بن سعيد البلوطي الأندلسي القاضي، ويحيى بن يحيى الليثي الفقيه. ومنهم: أبو الوليد الباجي الفيلسوف، ومنهم: القاضي أحمد بن محمد الأرجاني، فهؤلاء كانت مكانتهم في العلم والدين والفتيا سامقة عالية، وكانوا يقولون الشعر، ولا يرون به بأساً. .

فسألته متبسطاً في الحديث: ألم تقولوا شعراً عاطفياً؟ . .

فقدم إلي نسخة من الطبعة الأخيرة لديوانه، وقال وهو يبتسم في وقاره المألوف، بعد أن وقع لي بإهدائه على النسخة: تصفح هذا الديوان، ففيه كل ما بقي بين يدي من الشعر. .

وقلبت الصفحات فإذا هي الأبيات:

هـا هنـا مـرتعهم، خـذ بيـدي ودع الأينق فـي الـروض طليقـه
طـال بـي البـين إلـى أن أطفـأت نظرة مـن سـاكني البـان حريقـهْ
يـا بـدوراً حـسنها ابتـز النهـى وهواها مـدّ فـي القلـب عروقـه
عـادت الأيـام مـن هجـرانكم لي خصماً بعد أن كانت صـديقهْ
مـن دجـى يقـضيه جفنـي أرقـاً وضـحى يلبـسه الليـل غـسوقه
وكفـي جـسمي نحـولاً أن تخـا لـوه كـالطيف خيـالاً لا حقيقـةْ
لـم أضـع للـود حقـاً، إنمـا حان أن يرعـى الأخـلاّء حقوقـهْ

*** غربة الفضلاء:**

وسألت الشيخ الأكبر: لقد طال تنقلكم شرقاً وغرباً، ولم يستقر بكم المطاف فترة طويلة من حياتكم، فهل كنتم تحسون أثناء ذلك باضطراب أو قلق أو وحشة؟..

وأجاب في هدوئه المألوف: إن الذي يؤمن بعقيدة أو مبدأ، لا يحس بغربة مهما تنقل وارتحل، ما دام وفياً لعقيدته، متمكناً من مبدئه، ولقد طال تطوافي في جهات عديدة من أفريقيا وآسيا وأوروبا، ومرت بي فترات كنت أصبح فيها في مكان، وأمسي في مكان غيره، ومرت بي لحظات فيها سجن وقسوة، وعنف واتهام وتهديد، وحرمان ومطاردة، ومع ذلك كله كان للمرء أنيس، أي أنيس من ربه وإيمانه، ولقد كنت سجيناً في الشام، ومع ذلك كنت أرى في النوم أحلاماً أرضى بها وأستبشر، وبعض هذه الأحلام تحقق مفهومها، أو ما يقرب منه.

وليس معنى هذا أنني كنت حريصاً على حياة التنقل والاضطراب من

مكان إلى مكان، بل كنت أطمح إلى أن أستقر يوماً من الأيام في دار لا يحتمل الإنسان فيها مذلة أو هواناً، وقد وجدت طلبتي في مصر، فجعلتها داري ومستقري منذ قرابة أربعين عاماً.

ولقد صورت ضجري من كثرة أسفاري، واتصال ارتحالي في أبيات ثلاثة نظمتها سنة ١٣٣٨هـ وفيها أقول:

أنا كأس الكريم والأرض نادٍ ... والمطايا تطوف بي كالسقاة
كم كؤوس هوت إلى الأرض صرعى ... بين كفٍّ تديرها واللهاة
فاسمحي يا حياة بي لبخيلٍ ... جفن ساقيه طافح بسبات

*** رسالة المجمع اللغوي:**

وانتقلت بالشيخ من ميدان هذه الذكريات إلى ميدان اللغة والمجمع اللغوي، فقلت:

ـ إنك عضو في المجمع منذ عهد بعيد، فهل نستطيع أن نقول: إن المجمع أدى رسالته؟

وأجاب الشيخ:

أقولها لك صريحة واضحة، لا مواربة فيها ولا مجاملة: إن المجمع اللغوي لم يؤد رسالته، وليس هو من الإهمال لهذه الرسالة والتفريط فيها بالصورة التي يصوره بها بعض الناس في نكتهم ودعابتهم، ولكنه في الوقت نفسه لم يقم بواجبه، وقد يرجع السبب في ذلك إلى اختلاف الآراء المتضاربة، وكثرة الاتجاهات المتعاندة، وتحكم الشخصيات أحياناً، مع تشتت في الأذواق والمشارب، مع قلة في المال المخصص له، ولو أن ميزانية المجمع

اتسعت، لاتسع نشاطه وإنتاجه، والواقع الذي لا ريب فيه أن المجمع يحتاج إلى إصلاح شامل، وتغيير جوهري في خطته وطريقته.

هذه مجلته ـ مثلاً ـ تنقطع وتتباعد مواعيد ظهورها، وهؤلاء أغلب الأعضاء يكادون يقتصرون على العناية بالمصطلحات العلمية وحدها، مع وجود كثير غيرها من الأعمال والواجبات. وهذا معجم القرآن لم يخرج للناس، على الرغم من كثرة الوعود، وطول العهود، وتكرار التبشير بأنه سيسعى إلى عالم الحياة، وهذا المعجم الكبير الذي تطلعوا إليه منذ أمد طويل لم ير النور بعد، ولا ندري متى يتم أو يظهر، ولعل الأحفاد يشهدون ميلاد هذا المعجم. .

هنا سألت الشيخ: هل تذكرون بعض البحوث أو الأعمال اللغوية التي نهضتم بها في المجتمع اللغوي؟

فأجاب: لقد اشتركت في أعمال كثيرة من نشاط المجمع، وقدمت بحوثاً عدة أذكر منها: بحثي عن «القياس في اللغة العربية» الذي شرحت فيه حقيقة القياس، وفصلت شروطه، ودللت على مواقعه وأحكامه، والقياس باب واسع المجال مترامي الأطراف، له صلة بكل باب من أبواب العربية، ويكاد ذكره يجري عند تحقيق كل مسألة لغوية، ولا أطيل الحديث عن هذا البحث، فقد نشرته في كتاب منذ أكثر من عشرين عاماً، وكذلك أذكر بحثي في الرد على الرأي الذي ارتآه بعض أعضاء المجمع ـ وهو الدكتور طه حسين ـ الذي ذهب إلى أن (الضمير) قد يستعمل كاسم الإشارة، فنقضت هذا الرأي.

*** الأدب في تونس:**

سألت الشيخ الأكبر عن الحياة الأدبية في تونس، فقال:

ـ يوجد في تونس أدباء لهم كتاباتهم ومؤلفاتهم. ولكنهم لا يبلغون مبلغ الأدباء في مصر، لا من ناحية العدد، ولا من ناحية الآثار وقيمتها، ولقد أخرجت مصر للناس شاعراً عظيماً نابغة؛ كالمرحوم أحمد شوقي، ولم تكتب الأقدار مثل هذا لتونس، وإن كان يوجد في تونس شعراء متوسطون، وهم ـ مهما اعتزوا بآثارهم ـ يرون في مصر الوجهة التي يتجهون إليها مقتدين ومقدرين.

ولقد كان في تونس شاعر ينتظره مجد عظيم لو طال به الأجل، وهو المرحوم أبو القاسم الشابي، ولكن الموت عاجله، فرحل عن الدنيا وهو في ريعان شبابه..

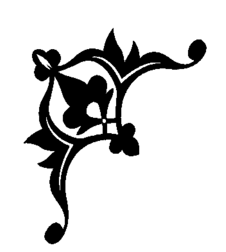
والصحافة في تونس محدودة النشاط، وهي متواضعة في مظهرها ومخبرها.

ولا عجب، فتونس اليوم دولة ناشئة، ولم يمض عليها عهد بعد تخلصها من ظلمات المحتلين وظلمهم، والمنتظر أن تسير الحياة الأدبية قدماً نحو القوة والاتساع ما دامت تونس تسير في طريق القوة والبناء..

وخرجت من حضرة الشيخ الأكبر، ولا يزال يستولي على تفكيري هذا الهدوء الذي يحيط به، وهذا الاعتكاف في محراب من محاريب البحث العلمي والتأمل العميق ـ رحمه الله ـ.

عن صوت الشرق (أبو حازم)




القياس في دراسات المحدثين

الدكتور عبد الصبور شاهين[(١)]

ومن دارسي القياس حديثاً: العالم اللغوي المجتهد الشيخ الإمام محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر الأسبق)، وقد بدأ يعالج هذه المشكلة منذ عهد بعيد (حوالي عام ١٩٢٠م) في مجموعة من المقالات، نشرت في كتاب عام ١٩٣٤ بعنوان: «القياس في اللغة العربية».

وقد حاول أن يحصر من أول الأمر احتمالات القياس، على ما جرت به محاولات السلف، فوجدها أربعة أضراب:

أحدها: حملُ العرب أنفسهم لبعض الكلمات على أخرى، وإعطاؤها حكمها؛ لوجه يجمع بينهما؛ كما يقال: أُعرب الفعل المضارع قياساً على الاسم؛ لمشابهته له في احتماله لمعان لا يتبين المراد منها إلا بالإعراب، وكما يقال: دخلت الفاء خبر الموصول في نحو قولهم: «من يأتيني فله درهم»؛ قياساً للموصول على الشرط؛ لمشابهته إياه في إفادة العموم.

---

(١) كاتب ومفكر إسلامي معروف، وهذا المقال جزء من البحث الذي نشره في مجلة «عالم الفكر» عدد أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٧٠م الكويت ـ تحت عنوان: «مشكلات القياس في اللغة العربية»، واخترنا من البحث ما يتعلق بالإمام الإمام محمد الخضر حسين.

وكما يقال: نصبت (لا) النافية للجنس الاسم، ورفعت الخبر قياساً على (أن)؛ لمشابهتها إياها في التوكيد، فإن (لا) لتأكيد النفي، كما تأتي (أن) لتوكيد الإثبات.

ثانيها: أن تعمد إلى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجوداً وعدماً، فتعدي هذا الاسم إلى معنى آخر تحقق فيه ذلك الوصف، وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة.

ويضرب لهذا النوع مثلاً: إطلاق اسم (الخمر) ـ وهو الموضوع للمعتصر من العنب، حين يخامر العقل ـ على المعتصر من غير العنب إذا تحقق فيه مخامرة العقل أيضاً.

وإطلاق اسم (السارق) ـ وهو الموضوع لمن يأخذ مال غيره من الأحياء خفية من حرز مثله ـ على (النباش) الذي يأخذ ما على الموتى من أكفان.

ويقول الشيخ الخضر: «وهذا الضرب من القياس هو الذي ينظر إليه علماء أصول الفقه، عندما يتعرضون لمسألة: هل تثبت اللغة بالقياس؟».

ثالثها: إلحاق اللفظ بأمثاله في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب، حتى انتظمت منه قاعدة عامة؛ كصيغ التصغير، والنسب، والجمع. وأصل هذا: أن الكلمات الواردة في كلام العرب على حالة خاصة، يستنبط منها علماء العربية قاعدة تخول المتكلم الحق في أن يقيس على تلك الكلمات الواردة ما ينطق به من أمثالها.

رابعها: إعطاء الكلمة حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها في نوعها، ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه، كما أجاز الجمهور ترخيم المركب المزجي قياساً على الأسماء المنتهية بتاء التأنيث. وكما أجاز طائفة

حذف الضمير المجرور العائد من الصلة إلى الموصول متى تعين حرف الجر، قياساً على حذف الضمير العائد من جملة الخبر إلى المبتدأ، فتقول: قضيت الليلة التي ولدت في سرور؛ أي: ولدت فيها، جاز لك أن تقول: هذا الكتاب تساوي الورقة درهماً؛ أي: الورقة منه بدرهم.

ومن هذا التحديد يتضح لنا عدة أمور:

أولها: أن القياس في نظر الشيخ الخضر يجريه العربي القديم، كما يجريه الأصولي والنحوي، ولكنَّ لكل منهما مجالاً. فمجال العربي، وهو صاحب اللسان: هو الضرب الأول، ومجال الأصولي: هو الضرب الثاني، ومجال النحوي: الضربان الأخيران.

ثانيها: أن القياس قد يكون في الشكل، وقد يكون في الدلالة، فمن الأول: إلحاق المضارع بالاسم في الإعراب، ودخول الفاء على خبر الموصول قياساً على الشرط، وحذف الضمير العائد من الصلة إلى الموصول متى تعين حرف الجر قياساً على حذف الضمير العائد من جملة الخبر إلى المبتدأ. ومن الثاني: قياس الأصوليين السابق ذكره.

ثالثها: أن الهدف من قياس الشكل: طرد قاعدة معينة في مجال تصريف الكلمة، أو تركيب الجملة، والهدف من قياس الدلالة: خلق استعمالات جديدة لكلمات اللغة؛ أي: توسيع الدلالة الضيقة.

والواقع أن ما جعله الشيخ الخضر خاصاً بالعرب أنفسهم في الضرب الأول من القياس لا تنهض الأمثلة المسوقة بتفسيره على نحو ما أراد المؤلف؛ لأن من المؤكد أن العربي القديم لم يستشعر هذا التشابه المفترض بين المضارع والاسم؛ ليطرد في الأول قاعدة الإعراب، وإنما ذلك شيء لاحظه النحويون

من تتبعهم لاستعمالات المضارع، ومحاولتهم تعليل خروجه على قاعدة البناء في الأفعال، فألحقوه بالأسماء في العلة، وكذلك قياس فاء خبر الموصول على فاء جواب الشرط.

وأيضاً تعليل عمل (لا) التي تنفي الجنس عمل (إنَّ) بأن كلتيهما تفيد التوكيد، مع فارق أن (لا) لتأكيد النفي، و(إنَّ) لتأكيد الإثبات. فقد أثبت القدماء تفرقة بين (لا) و(إنَّ) تُضعف وجه الشبه بينهما عملاً، وذلك أن (لا) غير عاملة في الخبر. بخلاف (إنَّ)، أو أن (لا) ركبت مع الاسم النكرة بعدها، فصارا شيئاً واحداً، وأما (إنَّ)، فإنها لا تركب مع الاسم بعدها. «الإنصاف» (١/ ١٩٥).

وبذلك يظهر أن هذه الأمثلة القياسية هي من صنع النحاة، لا من وضع العرب أنفسهم. فقد نطق العرب باللغة، دون أن يكون منهم أدنى ملاحظة تقيس ظاهرة نحوية على أخرى.

ثم هذا الضرب الذي خصه الأستاذ الخضر بالأصوليين، أليس فحواه توسيع الدلالة في بعض ألفاظ اللغة؛ لتشمل مجموعة من الإطلاقات الجديدة على أساس مجازي؟

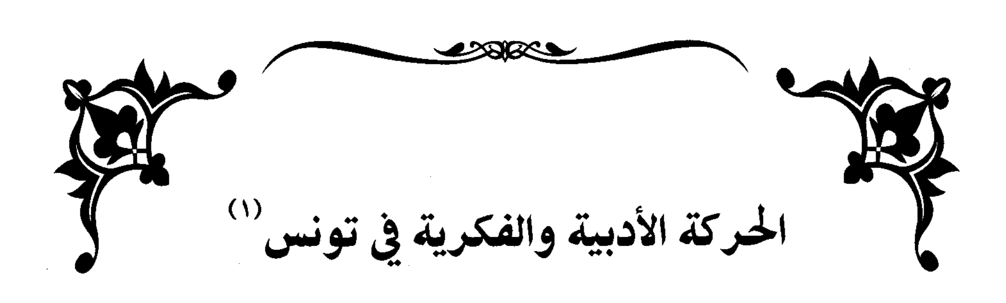
ومثل هذا العمل اللغوي يمارسه الأصوليون، وغير الأصوليين متى لوحظت العلاقة المجازية التي تربط بين مفهوم ذي لفظ موضوع، ومفهوم آخر جديد يحتاج إلى لفظ يدل عليه. ومن هذا القبيل: إطلاق ألفاظ: (قطار، وسيارة، وطائرة)، وسائر ما يدل على المفاهيم المستحدثة في اللغة، فقد اكتسبت هذه الألفاظ معانيها الجديدة بوساطة توسيع الدلالة على أساس مجازي، ومن البين أن هذا التوسيع لم يقم به الأصوليون.

على أن الشيخ الخضر لم يقف عند هذين الضربين من القياس، وإنما خص الضربين الأخيرين بدراسة مستفيضة، على أساس أن أولهما يقوم على التشابه الكامل بين المقيس والمقيس عليه، فاستحق المقيس الحكم الذي ثبت للمقيس عليه؛ كتصغير الثلاثي قياساً، والنسب إلى الأسماء، وجمعها جمع تكسير. أو جمعاً سالماً... إلخ.

وعلى أساس أن ثانيهما يخص الكلمة التي توجد بينها وبين غيرها مشابهة من بعض الوجوه، وكلا هذين الضربين من باب القياس الشكلي الذي أشرنا إليه من قبل، بيد أن الشيخ قد خص القياس القائم على التماثل باسم: (القياس الأصلي)، واختار للثاني اسم: (قياس التمثيل)؛ للتفرقة بينهما، ثم مضى في تتبع الفروع اللغوية؛ ليثبت وجود هذين النوعين من القياس.

ومن الواضح في هذا التقسيم أنه مشتمل على مفهومي القياس، من حيث هو تطبيق قاعدة على أفرادها، ومن حيث هو استنباط جديد على ضوء قديم، وإن جعل القاعدة في كلا الموقفين هي الأساس.





الحركة الأدبية والفكرية في تونس[1]

العلامة محمد الفاضل بن عاشور

وبقي معارضو الدعوة الإصلاحية متطلعين إلى الوفاء بالحاجة الثانية، وهي تكوين نشرة تناقش في المباحث الدينية على قاعدة التزام المذهب الذي عليه جمهور العلماء في مسائل أصول الدين الاعتقادية، وفروع الفقه العملية، وكان الحرص على محاكاة مصر في وسائل نهضتها، يحسن لأهل العلم إيجاد مجلة علمية بتونس. إذ كان النشر مقصوراً يومئذ على الصحف.

حتى انتدب لسد ذلك العوز نابغ من شباب شيوخ الزيتونة، هو الشيخ الإمام محمد الخضر حسين، وكان في شبابه بتونس على ما عرف منه الشرق في كهولته وشيخوخته؛ اعتدالاً، وهدوء طبع، وخلوص نية، وسعة علم، وبراعة قلم، فأصدر في شهر المحرم سنة (١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م) مجلة علمية سماها: «السعادة العظمى»، ابتهجت لصدورها جميع الأوساط العلمية والفكرية؛ ثقة بعلم صاحبها وتحقيقه، وصلابة عوده في أمور الدين، مع ما اشتهر من تأييده لحركة المصلحين.

فكان ظهور «السعادة» في معمعة تلك الخلافات كطلوع الحكم العادل،

---

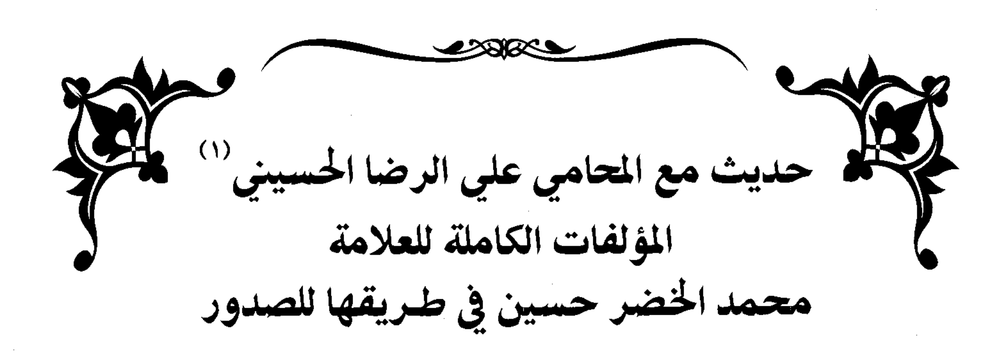
(١) فقرات تتعلق بمجلة «السعادة العظمى» للإمام محمد الخضر حسين من كتاب «الحركة الأدبية في تونس» للعلامة محمد الفاضل بن عاشور، طبعة سنة ١٩٧٢م.

تنزهت به المجادلات عن الفحش، وتطهرت من الهمز واللمز، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصي، فاقتبلها المجددون واثقين من أن التحيز والمبالغة والعناد ستزيف كلها على معيار هذه المجلة العلمية الراقية، وتلقفها خصوم التجديد حجة على أن شباب العلماء المتنورين، ليسوا على مذهب صاحب «المنار» وأتباعه، وقنع هؤلاء المحافظون بأن يعتضدوا بالشيخ النجار، ومجلة «السعادة العظمى»، مكتفين بذلك في باب الجدال العلمي، والنقاش النزيه، وإن بقيت لهم وسائلهم الأخرى في باب التشهير والسعاية والنكاية.

فقد عارضت هيئة النظارة العلمية بالجامع الأعظم في صدورها، وطالبت الحكومة بتعطيلها، وكان ذلك أصل الاضطهادات التي نالت صاحبها من طرف شيوخ النظارة، ومع ذلك، فقد أحاط بمجلة «السعادة العظمى» القبول الحسن، فقرظتها الجرائد، وانثالت عليها الرسائل والقصائد، في الثناء والتأييد من العلماء والأدباء وذوي الأفكار، وكانت نزعات التقارب تختلف باختلاف ما ينتمي إليه المقرظون من الشقين المتقابلين الواثقين بمجلة السعادة على السواء.

فكانت هذه المجلة مركزاً للحركة الفكرية، وقوة توجيه متصلة بجميع أهل الثقافة العربية، يجتمع تحتها شقان متباعدان، في صعيد الاحترام، وحسن الأدب، والتجرد، ولم تدم إلا عاماً ناقصاً، فصدر منها واحد وعشرون عدداً، أثيرت فيها مباحث مهمة حول المسائل الدينية التي كانت يومئذ شغل أفكار العلماء مع مجلة «المنار».

❐ ❐ ❐



حديث مع المحامي علي الرضا الحسيني[(١)] المؤلفات الكاملة للعلامة محمد الخضر حسين في طريقها للصدور

زار تونس هذه الأيام المحامي الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن العلامة الشيخ زين العابدين شقيق الإمام محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر.

والأستاذ علي الرضا ينحدر من أصل تونسي، وهو مقيم الآن في دمشق مع أسرته حيث يزاول مهنة المحاماة.

وفي بيت الأستاذ الهادي العبيدي الذي حوَّل ـ في هذه الأيام حيث يقضي فترة النقاهة ـ غرفة الاستقبال ببيته إلى نادٍ أدبي، يفد عليه رجال الفكر والأدب والفن من تونس، ومن شتى البلاد العربية، التقينا بالمحامي علي الرضا الحسيني الذي اتصل بالأستاذ الهادي العبيدي للاطمئنان عليه، والسؤال عن صحته، وأجرينا معه الحديث التالي:

س ـ ما هي الغاية من زيارتكم تونس؟

ج ـ إن الإقامة ـ وللأسف ـ قصيرة جداً إذا ما قيست بالشوق الذي أكنه لهذا البلد. والأمل الذي أرجو أن يتحقق مستقبلاً هو الإقامة لمدة أشهر؛

---

(١) جريدة «الصباح» التونسية، أوسع الصحف انتشاراً في تونس والمغرب العربي، لقاء في دار الأديب الكبير المرحوم الهادي العبيدي الذي كان يشغل رئاسة التحرير في الجريدة. ـ العدد (٧١٨٤) الصادر في ١٤ شعبان ١٣٩٢هـ الموافق ٢١ سبتمبر ١٩٧٢م ـ تونس.

حيث أتعرف أكثر فأكثر على تونس بمدنها التاريخية، ومصايفها الرائعة، وأعيش مع شعبها الطيب فترة هي من أجمل ما تكون في مرحلة العمر.

أما الغاية من هذه الزيارة، فهي البحث العلمي، والتنقيب عن الآثار العظيمة التي تركها العم العلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: للاطلاع والسياحة.

وقد تحققت الغاية العلمية؛ حيث كان لي شرف الاجتماع بأعلام تونس من أهل العلم والفضل، ممن عرفوا الشيخ الخضر، وكانوا إخوة صادقين؛ من أمثال: سماحة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي زودني بالتوجيهات القيمة، والآراء السديدة، فجزاه الله خيراً. كما التقيت بعدد من علماء تونس بهذا الاختصاص، ولهم جميعاً الشكر والامتنان.

وقد لازمتُ دار الكتب الوطنية (مكتبة العطارين)، وقمت بتصوير بعض الوثائق التي كنت أفتقدها، ولا سيما ما كتب في مجلة «السعادة العظمى» التي كان يصدرها الشيخ الخضر في تونس عام ١٩٠٣م، كما جمعت ما كتبه في مجلات: «البدر»، و«العرب»، و«الفجر» التي كانت تصدر في تونس، كما نقلت ما كتبته الصحف والمجلات التونسية عن حياته وآثاره.

س ـ علمنا أنكم قد باشرتم بطبع التراث الإسلامي للإمام الراحل، فهل تحدثون قراء «الصباح» عن هذا التراث، وإلى أين وصلتم في إخراجه؟

ج ـ منذ عشر سنوات خلت شرعتُ في جمع آثار الشيخ ـ رحمه الله ـ ومنها: رسائله المطبوعة على اختلافها، ومنها: مئات المقالات التي نشرها في المجلات الإسلامية والصحف، وخاصة في المجلة التي كان يصدرها في القاهرة، والمعروفة باسم «الهداية الإسلامية». وكذلك المجلات التي كان قد

تراس تحريرها مثل مجلة «نور الإسلام»، وهي مجلة الأزهر اليوم، ومجلة «لواء الإسلام».

وقد رتبت الأبحاث حسب مواضيعها في كتب طبعتها في دمشق. ومن الكتب التي تم طبعها: رسائل الإصلاح ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين ـ بلاغة القرآن ـ الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ـ تونس وجامع الزيتونة ـ الخيال في الشعر العربي ـ تراجم الرجال.

أما الكتب التي ستطبع ـ إن شاء الله ـ، فهي: السعادة العظمى ـ دراسات في اللغة ـ هدى ونور ـ محاضرات إسلامية ـ الرحلات ـ القاديانية والبهائية ـ دراسات في الشريعة الإسلامية ـ نقض كتاب في «الشعر الجاهلي» لطه حسين ـ نقض «كتاب الإسلام وأصول الحكم» ـ خواطر الحياة، وهو شعر فقيدنا الكبير ـ أسرار التنزيل[١].

وقد سبق أن طبعت إحدى دور النشر في دمشق كتاب «دراسات في العربية وتاريخها»، وسيعاد طبعها ـ إن شاء الله ـ فيما بعد.

كما أني قمت بجمع آثار العم الشيخ محمد المكي بن الحسين، ولا سيما لغوياته التي كانت لها شهرة واسعة بين قراء الأدب، وسأطبعها ـ إن شاء الله ـ بعد أن يتم ترتيبها في مجموعات أدبية[٢].

س ـ وماذا تحدثنا عن مؤلفات والدكم ـ أطال الله عمره ـ؟

إن سيدي الوالد الشيخ زين العابدين ـ حفظه الله ـ، منذ أن أقام في

---

(١) طبعت كافة هذه المؤلفات وغيرها للإمام، ولله ـ سبحانه وتعالى ـ الحمد والشكر.

(٢) طبعت كافة الآثار العلمية للعلامة النحوي محمد المكي بن الحسين.

دمشق، قد احتضنته تلك المدينة العظيمة، وكان له شأن كبير فيها، حيث انصرف إلى التوجه الديني فقط، في حلقات للتعليم والتوجيه تكاد تكون يومية، وقد زود المكتبة العربية بآثار هامة، ما زال يتلقفها القارئ العربي بشوق، ومن مؤلفاته: «المعجم المدرسي» الذي قضى في تحضيره سنوات، و«المعجم في النحو والصرف»، و«دروس الوعظ والإرشاد»، و«الدين والقرآن»، و«المعجم في الكلمات القرآنية»، و«الأربعون الميدانية» في الحديث. وثمة رسائل صغيرة أخرى؛ كمولد النبي ﷺ، ورسالة في الدين الإسلامي، ورسالة عن الأحاديث الواردة في رمضان، وغيرها.

ولسيدي الوالد شغف كبير بتونس، حيث ولد فيها، وقد بلغ هذا الشغف أنه كثيراً ما يحتفل بأبناء تونس الزائرين لدمشق، والذين يتميزون باللباس الخاص بهم، ويدعوهم إلى الدار دون معرفة سابقة، كل ذلك محبة في ذلك البلد.

ولا أعتقد أن هناك مواطناً تونسياً، سواء كان من الرسميين الذين زاروا دمشق ضمن وفود حكومية، أو من غيرهم، لم يجتمع بالوالد، إلا القليل ـ فيما أظن ـ، وستكون آثاره قريباً في المكتبات التونسية.

والواقع أنه يصعب علي الإفاضة بالحديث عن سيدي الوالد، وأترك هذا لمن عرفه من التونسيين؛ لتكون الصورة أوضح بتفاصيلها ووثائقها.

ومن المعروف أن الشيخ محمد الخضر حسين عبقرية إسلامية فذة، قلما يجود بها الزمان، وإن كانت ولادته في «نفطة» من الجنوب التونسي، فإن ميدان نضاله اتسع حتى شمل العالم الإسلامي.

وفي مثل هذه العجالة لا يمكن حتى الإيجاز عن حياة عظيم من عظماء

الإسلام في القرن العشرين، وإن آثاره أفضل سبيل لمعرفة هذا العظيم.

لقد ولد الشيخ الخضر في بلدة «نفطة» عام ١٨٧٤م من أسرة علم وصلاح وتقوى يتصل نسبها بالرسول الأعظم ﷺ. وقد انتقل إلى العاصمة تونس مع والده حيث التحق بالجامع الزيتوني، وحصل على شهادة التطويع، ومنذ مطلع حياته بدأ الكتابة وقرض الشعر، وأصدر مجلة «السعادة العظمى»، وتولى القضاء في مدينة «بنزرت». وقام بالتدريس في جامع الزيتونة، والمدرسة الصادقية.

ارتحل مع عائلته إلى الشرق، فأقام مدة في دمشق، وغادرها إلى القاهرة؛ حيث استقر هناك بقية حياته مناضلاً مكافحاً في شتى الميادين السياسية والدينية.

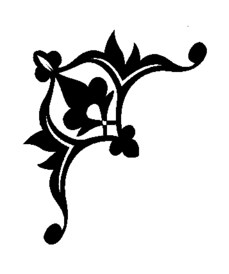
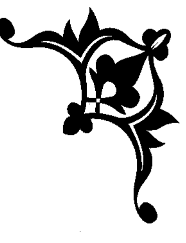
وترأس تحرير مجلة «نور الإسلام»، وعين مدرساً في كلية أصول الدين ـ إحدى الكليات الأزهرية ـ، ثم أستاذاً في التخصص، وأنشأ جمعية «الهداية الإسلامية»، وأصدر مجلة تحمل نفس الاسم، وعين عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضواً في المجمع اللغوي بالقاهرة، وقدم رسالة «القياس في اللغة العربية» التي نال بها عضوية هيئة كبار العلماء، وفي الميدان السياسي قام بتشكيل عدة جبهات للدفاع عن المغرب العربي، ومن أبرزها: (جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية) التي كان لها دور كبير في التمهيد لاستقلال المغرب العربي.

وقد اختير عام ١٩٥٢م إماماً لمشيخة الأزهر، فكان الأزهر في عهده مزدهراً، وتوفي عام ١٩٥٨ ودفن ـ بناء على وصية منه ـ مع صديقه المرحوم العلامة أحمد تيمور باشا في المقبرة التيمورية في القاهرة.

وأنهى الأستاذ علي الرضا الحسيني حديثه معنا بقوله: وإني ـ في هذا

اللقاء الخاطف ـ آمل من الباحثين التونسيين دراسة آثار الشيخ دراسة وافية، وتعريفها إلى النشء التونسي، كما آمل موافاة قراء «الصباح» في المستقبل بأحاديث عن حياة الإمام ـ طيب الله ثراه ـ.



محمد الخضر حسين
أحد زعماء النهضة الإسلامية

أحمد البختري[1]

يقف قلم الكاتب أمام ما يمليه عليه فكر حائر، لم يدر ما يكتبه عن حياة هذا العصامي والقطب العلمي، الذي تدور رحاه حول هذا العالم الإسلامي دوران الشمس في الأفق بشعاع نورها الوهاج، فيملأ أديم الأرض بأسرار العلم والحكمة الإلهية، ناشراً على زواياها المدلهمة ذلك النور المشرق من سماء الفكر، الذي خصّ الله به الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر النفطي شيخ الجامع الأزهر الشريف.

*** حياته:**

زاول الأستاذ تعليمه بـ «نفطة» حيث ولد، فحفظ القرآن الكريم حفظاً جيداً، كما تغذى من مبادئ العلوم الدينية، ثم التحق بالكلية الزيتونية إلى أن صار من أعلامها الأفذاذ، وتصدى للدفاع عن عزة الإسلام. ولكن سلط الحماية إذا ذاك لم يرق لها هذا النشاط منه، ففكرت جهلاً منها إغراءه بإسناد خطة القضاء الشرعي، لعلها تصدّه وتحدّه عن نشاطه المتزايد.

---

(١) من كتاب «الجديد في أدب الجريد» للأستاذ أحمد البختري ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ طبعة سنة ١٩٧٣م تونس.

*** خطة القضاء ببنزرت:**

قبل هذه الخطة عام ١٣٢٤هـ، وفي نفس الوقت قام بمحاضرة قيمة بعنوان «الحرية في الإسلام» طبعت بمدينة تونس، وبعد أيام من قبوله للقضاء ببنزرت، قدم تسليمه منها، وغادر البلاد التونسية إلى سوريا، ثم إلى مصر.

*** بمصر:**

وفي هذه البلاد العربية التي استقبلته استقبال أبنائها، وفتحت له نواديها، تولى بجامعها الأزهر خطة التدريس، وأنشأ «جمعية الهداية الإسلامية»، وتولى رئاستها، وسمّى مجلتها باسمها «الهداية الإسلامية» التي حياها الأستاذ محمد البسطامي بقوله:

طلعت في سماء (مصر) لتحيي ... في بني الشرق أنفساً وعقولا[1]

وفي ١٠ محرم الحرام سنة ١٣٥٢ ـ هجرية ـ عاد من زيارته إلى الأقطار الحجازية، فأقيم له حفل تكريم بنادي «جمعية الهداية» المذكورة، شارك فيها عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء المصريين وغيرهم، وقد ألقى الأستاذ علي سعيد أحمد منصور، (بقسم التخصص بالأزهر) قصيداً جاء فيه:

عدْ ناصر الدين عَوْدَ النصر والظفر ... يا حجةَ العصر بل يا مرشد البشرِ[2]

إلى أن يقول فيها:

نادي «الهداية» نادى وقت ظعنكمُ ... مَنْ لي بمجلس أنس السيد (الخَضِرِ)

---

(١) ج٩ ـ م٥ ـ ١٣٥٢هـ عن مجلة «الهداية الإسلامية».

(٢) عن المجلة المذكورة.

ثم ألقى الأستاذ محمد أفندي عجاج هذا القصيد الفريد تقتطف منه ما يلي:

صوتُ «الهداية» قد أهاب فأسمعا بالله يا قومي أجيبوا مَنْ دعا[1]

*** إسناد مشيخة الأزهر إليه:**

وفي عهد الثورة الحالية التي حدثت بمصر ١٩٥٢م أسندت للأستاذ الخضر مشيخة الجامع الأزهر الشريف، ولكن سن الأستاذ أبى عليه البقاء بها طويلاً، وطلب من مجلس الثورة إعفاءه، وقبل منه ذلك.

وكان الأستاذ قبل تقليده ذلك المنصب أنشأ مجلة «الأزهر» تصدى فيها للدفاع عن الأزهر الشريف.

*** الرحلة والتعارف في الإسلام:**

ومما كتبه فضيلته في هذا الموضوع، فيقول:

أخذت السياسة التونسية تنظر إلى الفيلسوف ابن خلدون بعين جافية، فرمى بنفسه في أحضان مصر، ولقي فيها حفاوة ارتفع فيها إلى مستوى العظماء من رجالها النابتين في معاهدها العلمية. وخشي أبو المكارم هبة الله بن الحسين المصري أن تمسه السلطة المصرية بأذى، فتخلص منها إلى البلاد المغربية، وكان من عاقبه أمره أن تقلد القضاء بمدينة تونس إلى أن توفي بها سنة ٥٨٦هـ خمس مئة وست وثمانين.

ولم يطمئن المقام بالقاضي عبد الوهاب بن نصر في بغداد، فقدم إلى الديار المصرية، وأدرك فيها من الحظوة ما يستحقه الذي يقول فيه المعري:

---

(١) عن المجلة المذكورة.

والمالكيُّ ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ بلادنا فحمدْنا النأي والسفرا
إذا تفقَّه أحيا مالكاً جدلاً وينشرُ الملك الضليل إن شعرا

ودخل أبو عبدالله المقري المغربي دمشق الشام، فأقبل عليه أهلها باحتفاء، ومنحوه رقة وأنساً، حتى أنشد مشيراً إلى انقسام فؤاده بين دمشق ووطنه:

إلى الله أشكو بالمدينة حاجةً وبالشام أخرى، كيف يلتقيان؟

تشهد هذه القصص التي ملئت صحف التاريخ بأمثالها: أن العلماء ما كانوا ليستصعبوا فراق أوطانهم، حتى تفقدهم شدة ألفها عن الرحيل إلى حيث تكون سوق المعارف قائمة، وبضاعة الأدب نافقة، أو تشد وثاقهم ليقيموا على هون وغضاضة؛ لأن هممهم إنما كانت تتجه إلى الحياة الاجتماعية الأدبية، فيسهل على (العالم) ـ ولا سيما أن بلاد الإسلام (وطن واحد) ـ أن يتحول إلى حيث يكون نظام الاجتماع راقياً، ومجال العمل فسيحاً.

* **بقصر آل عاشور بتونس:**

ومن مصر نعود بالقارئ إلى تونس؛ لتحدثه على اجتماع علمي ضم عدداً من علماء تونس، ولم يحضره الأستاذ الخضر، وذلك بقصر الأستاذ الطاهر بن عاشور بالمرسى، فارتجل الأستاذ الطاهر بهذين البيتين، وهما[1]:

---

(١) ذكر لي الكاتب الإسلامي الكبير، والقاضي التونسي الفاضل الأستاذ محمود الباجي ـ رحمه الله ـ: أنه حضر من المغرب العالمان الجليلان الشيخ شعيب الدوكالي، والشيخ عبد الحي الكتاني، ونزلا في دار الإمام محمد الطاهر بن عاشور في المرسى، ولما لم يجدا الإمام محمد الخضر حسين، أرسل الإمام الشيخ محمد الطاهر البيتين إلى صديقه الإمام الخضر في جامع الزيتونة بتونس. وروى العجز في البيت الثاني:

وفي مجمع البحرين لا يفقد الخضر

تألَّقت الآدابُ كالبدر في السحرْ   وقد لفظ البحران موجهما الدُّررْ
فمالي أرى منطيقها الآن غائبا؟   وفي مجمع البحرين يُفتقد (الخَضِرْ)؟!

* **شعره:**

ومن شعره هذه القطعة الشعرية الرائعة في الفخر بعنوان: (نخوة)، هذا نصها بحروفها:

تبغي الليالي أن تفلَّ حُسامي   وتصد وجدي بالعُلا وغرامي
طفقَتْ تحثُّ خُطا المطية بعدما   ألقتْ بها أيدي النَّوى بزمام
أتخالني أبلى بسلوة خاملٍ؟   ما شطَّ عن وطني الأنيس مُقامي
العزمُ ما بين الجوانح مرهفٌ   والمجدُ أنّى سرتُ فهو أمامي
والسهمُ يصدرُ راغماً ويُريك منْ   جلدٍ ترنُّم ظافر بمرام
لولا السرى لم ترشف النكباء من   نفحات ثغر الزهرة البسَّام
كم من يدٍ بيضاء طوَّقني بها   حادي الرِّكاب إلى ربوع (الشام)
وألذُّها سمرٌ يذكِّرني (البها)   و(ابن العميد) إلى (أبي تمام)

وله أيضاً (الهمام):

يرمي الهُمام، وما غير العُلا هدفا   ولا يباكرُ إلا الروضةَ الأُنُفا
والناس شعرٌ إذا ما جئت تنقده   ألفيتَ سَبْكَ القوافي منه مختلفا
كم بين شهمٍ يُداري الصعبَ في شممٍ   وخاملٍ بات في مهد الهوى دَنِفا
وللفضيلة نورٌ لا يكفكف منْ   شعاعه، جاحدوها حيثما انعطفا[1]

(١) هذه الأبيات الأربعة لم تنشر في ديوان «خواطر الحياة» للإمام. وقد أخذها =

انظرْ إلى السحب في الآفاق تكتمنا   شمس النهار، وأرخت دونه سدفا
فمدَّ قوسُ غمامٍ بينها عنقاً   وذكَّر الناس فضل الشمس وانصرفا
وللحشى نزعاتٌ شد ما صعدت   إلى الحجى، فأنالت حدَّه رهفا

وله أيضاً هذان البيتان، قالهما ابن الحسين عندما كان القطار يلتوي من ربى بلدة (تارار)[1] في فرنسا وبساط مروجها السندسية. فقال:

لجَّ القطارُ بنا والنَّارُ تسحبه   ما بين رائق أشجارٍ وأنهار
وإنَّ أعجب ما تدريه في سفرٍ   قومٌ تُقاد إلى الجنَّات بالنَّارِ[1]

*** وفاته:**

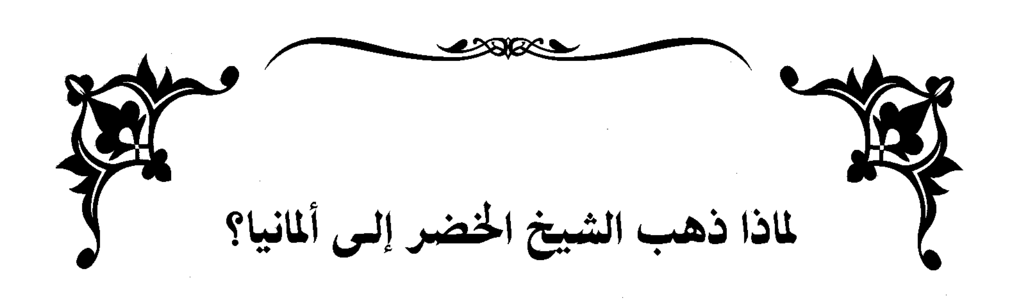
وقبل وفاة الأستاذ ابن الحسين، تمنى أن لا يموت حتى يرى وطنه حراً مستقلاً، وأدرك ما تمناه، وقد رثاه رجال العلم والأدب من مصر وغيرها، ودفن بالقاهرة في الثالث من رجب الأصب عام ١٣٧٧ سبعة وسبعين وثلاث مئة وألف هجرية، ١٩٥٨ ميلادية.

❐ ❐ ❐

= الكاتب من كتاب «الأدب الفرنسي في القرن الرابع عشر» للأستاذ زين العابدين السنوسي.

(١) لم يذهب الإمام محمد الخضر حسين إلى فرنسا، وهذان البيتان قالهما عندما دخل القطار في بساتين دمشق لأول مرة سنة ١٣٣٠هـ. انظر: ديوانه «خواطر الحياة»، وهما:

لج القطار بنا والنار تسحبه   ما بين رائق أشجار وأنهار
ومن عجائب ما تدريه من سفر   قوم يقادون للجنات بالنار



لماذا ذهب الشيخ الخضر إلى ألمانيا؟

محمد صالح الجابري(1)

في بحث جامعي مستوعب، قدّم لنا الأستاذ محمد مواعدة في أول كتاب له، وفي أول باكورة تقدم للطبع من باكورات رسائل التأهيل للبحث الجامعي التي تنظمها وتشرف عليها الجامعة التونسية وأساتذتها ـ قدم لنا شخصية تونسية إصلاحية، هي شخصية محمد الخضر حسين.

تلكم الشخصية التي تنال الاهتمام لثاني مرة خلال هذا الموسم الأدبي بكتاب أصدره عنها الأستاذ أبو القاسم كرو. ثم بهذه الدراسة الثانية، وإن دل هذا، فإنما يدل على مبلغ العناية التي أصبح أدباؤنا يولونها نحو الجيل المؤسس لحركة البعث والتثقيف والإصلاح.

على أننا نأمل أن تتلو هذه الالتفاتات غيرها يقوم بها الشباب نحو جيل رائد قدر له أن يعيش فترات حالكة صعبة مريرة، فرض عليه خلالها الصمت والقهر والكفاح، وحرم من أبسط ما كان يتمنى أن يراه في حياته، وللإبرار بتاريخنا، فإن علينا أن نوفي هؤلاء بعض الوفاء بنشر ما تركوا في

(1) كاتب تونسي معروف ـ مجلة «الإذاعة التونسية» العدد ٣٣٦ من السنة الخامسة عشرة الصادر في ١ ماي ١٩٧٤م. وهذا المقال عرض لكتاب الأستاذ محمد مواعدة «محمد الخضر حسين: حياته وآثاره».

مطاوي التاريخ، ونتخذ من أفكارهم ـ مهما كان مستواها ـ مقياساً نرى فيه مدى ما شملنا من التطور الذي لهم فيه فضل السبق، وشرف البداية.

ولعل الجامعة التونسية يدفعها الشباب من طلابها في هذا الاتجاه، تسهم مساهمة فعالة في تفتيح أعينهم وأذهانهم على تاريخهم وتراثنا؛ لأن من عادات الشباب منابذة الماضي بدعوى أنه ماض، وليس لأي شيء عداه.

وفي مضمار إحياء هذه الشخصية الإصلاحية، والتعريف بها، والتذكير بأهم آرائها، نلاحظ أن هناك جيلين اثنين متواكبين متكاملين: جيل أبي القاسم كرو، وجيل تلميذه محمد مواعدة، كلاهما يوفي هذا الماضي حقه، مما يدل على تكامل الجهود، وعلى الإحساس المشترك بعبء الوفاء..

قسّم الأستاذ مواعدة رسالته إلى ثلاثة أقسام تخللتها فصول وأبواب عديدة ومقدمتان، إحداهما: للمؤلف، شرح فيها منهجه أثناء الدراسة، والطريقة التي اتبعها للوصول إلى ما وصل إليه من الآراء، والدوافع التي جعلته يختار هذه الشخصية لبحثه دون غيرها قائلاً بهذا الصدد: «اهتممت بدراسة شخصية الشيخ محمد الخضر حسين؛ لأنه علم بارز من أعلام الإسلام في العصر الحديث، شارك مشاركة فعالة في الحركة الفكرية، سواء في المغرب، أو المشرق العربيين، وارتبط اسمه بأسماء عدد كبير من رجالات الدين، قاموا بدرهم في ميادين مختلفة دينية ولغوية وأدبية وسياسية».

يضم القسم الأول من أقسام الكتاب الثلاثة: حياة المؤلف بالبلاد التونسية منذ ولادته بـ «نفطة» إلى حين انتقاله إلى العاصمة. «فلقد تربى محمد الخضر حسين في بيئة يسيطر عليها العلم، وتغمرها الثقافة، ويحيط بها الورع الديني من كل جانب، فحفظ القرآن الكريم على مؤدبه الخاص الشيخ عبد الحفيظ

اللموشي، ودرس بعض العلوم الدينية واللغوية على عدد من العلماء، وخاصة منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز» (ص٢٥).

وبالعاصمة تابع الشيخ الحسين دراسته بجامع الزيتونة على عدد من الشيوخ البارزين، ثم تخرج منها ليؤسس مجلته «السعادة العظمى» التي تعتبر أولى المجلات بتونس، وذلك قبل أن يتقلب في وظائف عديدة في ميدان القضاء. وقد تأثر في هذه الفترة «بعدد من شيوخ العلماء الذين كان حريصاً لا على متابعة دروسهم فقط، بل كذلك على حضور مجالسهم، والاستماع إلى أحاديثهم ومناظراتهم في شتى فنون الأدب واللغة والدين. وأبرز هؤلاء الشيوخ ثلاثة، هم: الشيخ سالم بو حاجب، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ محمد النجار» (ص٤٣).

وهؤلاء «وإن تشابهوا في القيمة العلمية، فقد اختلفوا في أسلوب التفكير، ومعالجة القضايا العلمية، وخاصة الإسلامية منها، كما اختلفوا في نظرتهم إلى الحركة الإصلاحية التي كانت محل حوار ونقاش وجدال لدى الأوساط الفكرية والثقافية في تونس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين» (ص٣٧).

ويشمل الباب الثاني حياة الشيخ محمد الخضر حسين بالبلاد السورية التي انتقل إليها أول مرة يزور إخوته الذين استقروا هناك. واتصل هناك بالأوساط العلمية والثقافية. وألقى المحاضرات، وتبادل الإعجاب مع جلة علماء الشرق إثر توقفه بالإسكندرية، ثم القاهرة أولاً قبل أن يصل مدينة دمشق في سنة ١٩١٢م.. «وقضى الشيخ محمد الخضر بدمشق كامل شهر رمضان، زار خلاله أهم المؤسسات الثقافية بالعاصمة السورية، وخاصة الجامع الأموي،

حيث ألقى اثني عشر درساً في الحديث حضرها عدد كبير من طلاب العلم والشيوخ» (ص٦٢).

وعلى إثر عودته من دمشق، وجد قراراً بفصله من خطة التدريس بالمعهد الصادقي ينتظره، فحزّ ذلك في نفسه، وقرر الرحيل إلى الشرق نهائياً.

و«منذ المدة الأولى التي استقر فيها بدمشق، وقع انتدابه للتدريس بالمدرسة السلطانية. وهي من أبرز المعاهد الدينية بالبلاد السورية.. وبالإضافة إلى ذلك واصل إلقاء محاضراته العلمية بالجامع الأموي، وكتابة مقالاته في الصحف والمجلات، ويبدو أنه اهتم في هذه الفترة بالمشكلة العربية والتركية، ودعا إلى ضرورة تمتين روابط الإلفة بين العرب والأتراك في ظل الخلافة العثمانية» (ص٦٩).

وفي حمأة الأزمة التي أثارها بطش جمال باشا السفاح بالوطنيين الشاميين، أدخل الشيخ الخضر السجن، ثم لم يلبث أن أفرج عنه لبراءته، وانتدب في خدمة العثمانيين متنقلاً بين الآستانة وألمانيا في محاولة تثوير الوطنيين التونسيين، وتكتيل جهودهم ضد الاستعمار الفرنسي الذي كان يوالي الحلفاء ضد الألمان والأتراك.

وبعد نهاية الحرب، وبعد استباحة الاستعمار الفرنسي دمشق، قر قرار الشيخ الخضر بالهجرة إلى مصر التي قضى بها بقية حياته، وفيها أثبت خطوته التي أهلته لأن يكون ضمن أعضاء مجمعها اللغوي، وشيخ جامعها الأزهر في سنة ١٩٥٢م.

وقد كانت للشيخ الخضر في مصر نشاطات جمة: أبرزَها الأستاذ محمد مواعدة في الباب الثالث والأخير من كتابه.. نشاطات تهتم بوضعية المغاربة،

وبموقفه من الألفة الإسلامية، وتأسيس جمعية «الهداية الإسلامية»، ومجلة «نور الإسلام».

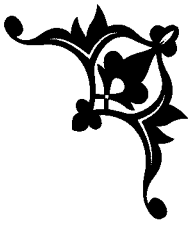
ولعل أبرز نشاطاته العلمية والفكرية ما كان يمارسه ضمن هيئة كبار العلماء، والتدريس بالأزهر، وظهور كتابيه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»[1]، و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لطه حسين. وهما كتابان ـ على ما لصاحبهما من نظرة خاصة ـ بوأه مكانة ممتازة في نخبة المثقفين المصريين.

ولعل أهم هذه الأقسام وهذه الفصول التي كانت على غاية من الدقة والتفصيل والأناة العلمية القسمُ الثاني من الباب الثالث، وهو القسم الذي شمل حياة الشيخ الخضر الثقافية وآثاره؛ إذ تناول فيه الباحث جملة مؤلفاته في تفصيل ودقة.. تليق بمكانة الكتاب، وبمكانة شخصية الشيخ المصلح، وبمكانة الجامعة التي أهلت بحثه ليكون باكورة ما يطبع من بحوث طلابها. وهو القسم الذي أريد للقارئ أن يقرأه بنفسه؛ لأن تلخيصه يفسد متعة مطالعته.

❑ ❑ ❑

(١) لعلي عبد الرازق.





محمد الخضر حسين
حياته وآثاره

الحبيب الشاوش[1]

يعرّف هذا الكتاب بأحد الأعلام المعاصرين، هو: محمد الخضر حسين، وهو من رجال الفكر والأدب التونسيين مولداً ونشأة، ساهم في إخصاب التراث العربي الإسلامي بإنتاج متنوع في الحقلين الديني والأدبي، إلا أنه كان - إلى حد كبير - مغمور الذكر والإنتاج[2]، لا سيما وأن ما خلفه من مؤلفات ومقالات عديدة في المجلات والصحف العربية - التونسية منها والشرقية - كان شتاتاً مهملاً، لا يكاد يعرفه الكثيرون معرفة دقيقة شاملة. ويتضح من مطالعة آثار الرجل أنه كان يغلب على ثقافته وتفكيره واتجاهه الطابع التقليدي،

---

(١) حوليات الجامعة التونسية - العدد ١١ لعام ١٩٧٤م. قدم فيه الكاتب كتاب الأستاذ محمد مواعدة عن الإمام محمد الخضر حسين، وعنوانه «محمد الخضر حسين حياته وآثاره» - الدار التونسية للنشر، سنة ١٩٧٤م.

(٢) تعليق: هذا رأي الكاتب وحده، ولا يشاركه فيه أحد في تونس أو العالم الإسلامي، ولو كان مطلعاً على الثقافة الإسلامية، ومكانة الإمام محمد الخضر حسين الرفيعة في المشرق العربي ومغربه، لما سقط من قلمه هذا القول، إلا إذا كان الكلام مقصوداً. ثم أليس هذا القول يناقض فيه الكاتب نفسه بنفسه عندما قال في نهاية البحث: «وختاماً يعتبر هذا البحث مفيداً من حيث تمكينه القارئ الدارس من الاطلاع على جوانب من شخصية هذا العلامة التونسي في العالم الإسلامي!!».

وهو بذلك ينتمي إلى شق المحافظين من الناحية الدينية، وحتى السياسية؛ كما سيأتي.

وظهر هذا الكتاب، مساهماً به صاحبه في إزاحة الغشاوة عن هذا العلامة في حياته ورحلاته وإنتاجه ونشاطه، وهو بحث أنجزه السيد محمد مواعدة تحت إشراف الأستاذ المنجي الشملي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية، لنيل شهادة الكفاءة في البحث(١).

ويشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام رئيسية(٢) متبوعة بملحق(٣)، وقد صُدر بتقديمين: الأول: للأستاذ المنجي الشملي(٤)، والثاني للسيد محمد مواعدة(٥)، ونجد في نهايته قائمة المراجع والمصادر، وفهرساً للأعلام.

وأول ما يسترعي انتباه القارئ لهذا الكتاب: عناية كل من صاحب البحث والأستاذ المشرف عليه بحب الإلمام بكل جوانب الموضوع على أساس الوضوح والشمول؛ مما يوفر للدارس سعة الانتفاع، ويسر الاستفادة بما جاء فيه، وإن الموضوع لعلى جانب من الطرافة تستهويك دراسته، ذلك أن شخصية محمد الخضر حسين طريفة في حد ذاتها، رغم بعض الشذوذ والتصلب في التفكير والاتجاه، بقدر ما كانت مجهولة أو تكاد، وقد ألمع

---

(١) نوقش هذا البحث في الخامس عشر من شهر ديسمبر ١٩٧٢م.

(٢) (ص١٨ ـ ٢٣٠).

(٣) (ص٢٣٢ ـ ٣٤٢).

(٤) (ص٧ ـ ٩).

(٥) (ص١١ ـ ١٣).

الأستاذ الشملي إلى ذلك في تقديمه الكتاب بقوله[1]:

«نذكر جميعاً هذا الرجل، فنكاد لا نتصوره إلا رمزاً غامضاً، يعرف الواحد من أمره ما لا يعرفه الآخر، هذا يكبره ولا دليل، وذاك يستنقصه ولا حجة، والرجل الرشيد يقتصد في الحكم فيتوقف. أما الآن فقد تجلّت لنا عن حياة الرجل وأفعاله ومواقفه وآثاره صورة إلا تكن واضحة وضوحاً، فهي غير غامضة على كل حال، وإلا تكن مقنعة إقناعاً، فهي سبيل إلى اليقين. . .».

وقد خصص السيد محمد مواعدة القسم الأول من بحثه لدراسة حياة الرجل في أطوارٍ لها ثلاثة، موزعاً لدراسته على أبواب وفصول.

أما الطور الأول: فيتعلق بحياة محمد الخضر حسين بالبلاد التونسية؛ أي: مرحلة السنوات التي قضاها في تونس منذ ولادته ببلدة «نفطة» إلى تعلّمه ثم تعليمه، وهي (فترة التعليم والتكوين)، وتمتد من سنة ١٨٧٣ ـ سنة ولادته[2] ـ إلى سنة ١٩١٢، وهي السنة التي غادر فيها البلاد التونسية نهائياً إلى الشرق.

وأهم ما يجدر ذكره أن الرجل قضى سنوات طفولته بمسقط رأسه بالجنوب التونسي حتى الثالثة عشرة من عمره، ثم انتقلت عائلته إلى تونس العاصمة[3] حيث واصل تعلّمه الابتدائي، وقد كان شرع فيه عندما كان بـ «نفطة»، ثم التحق بجامع الزيتونة[4] للمزيد من التعمّق في العلم والتبحر فيه.

---

(١) انظر بالخصوص: (ص٦ ـ ٨).

(٢) يوم ٢٦ رجب ١٢٩٣/ ٢١ جويلية ١٨٧٣م ـ انظر: (ص٢١).

(٣) في أواخر سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٦م ـ انظر: (ص٢٨).

(٤) سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٧م.

ويمضي السيد محمد مواعدة متحدثاً في هذا القسم عن جامع الزيتونة في ذلك العهد، وعن شيوخ محمد الخضر حسين، وتخرجه عنهم، ثم توليه خطة القضاء ببنزرت، والتدريس بجامع الزيتونة إلى تاريخ رحلته إلى الشرق، **وهو بداية الطور الثاني** من حياة الرجل، وتخص هذه المرحلة الثانية كامل الفترة التي قضاها من حياته في دمشق، وانتقل أثناءها إلى الآستانة وبرلين، وتمتد من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٢٠م، وهي السنة التي غادر فيها سوريا للاستقرار نهائياً بمصر، ويمكن تسميتها بمرحلة التنقل والترحال.

وأهم ما يحتفظ به الدارس من هذه المرحلة الثانية من حياة الرجل: أنها امتازت بكثرة التنقل أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد قام فيها بمهام خطيرة لم يرد في شأنها ما يشفي الغليل من تفاصيل واضحة، بقدر ما نعرف من ناحية أخرى أن محمد الخضر حسين أمضى في دمشق أعواماً طويلة، ودرّس علوم الدين والعربية في المدرسة السلطانية[1]، كما نعلم عن الرجل من حيث اتجاهه السياسي[2]: أنه كان ينتمي منذ كان بتونس إلى الحزب الدستوري

---

(١) بدأ التدريس سنة ١٩١٣م في هذه المدرسة، وهي أشهر مدارس دمشق. انظر: (ص٣٣٤).

(٢) لم تكن للإمام الخضر حسين أية صلة مطلقاً بالحزب الدستوري، أو بالشيخ عبد العزيز الثعالبي. وكيف يبرر الكاتب هذا الادعاء، وقد علمنا أن الإمام قد غادر تونس نهائياً عام ١٩١٢؛ أي: قبل تأسيس الحزب بثمان سنوات. ثم إن المطّلع على حياة الإمام ومراحل حياته في دمشق والقاهرة يعلم أنه لم يكن هناك صفاء في الصدور، ولا عداوة ظاهرة بين الإمام والشيخ الثعالبي. ونترك التفصيل في هذا الموضوع إلى ميدان آخر، أو لعلنا نصرف النظر عنه خدمة للإسلام، ونطلب الرحمة للشيخين.

القديم الذي أسسه عبد العزيز الثعالبي سنة ١٩٢٠م.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته، فهي تشمل السنوات التي قضاها في مصر حيث استقر نهائياً، وتمتد من سنة ١٩٢٠ إلى وفاته سنة ١٩٥٨م، وقد سماها صاحب الكتاب بمرحلة (المجد الثقافي)؛ لأنها الفترة التي أظهر فيها قيمته الثقافية، وبرزت فيها مكانته، وتقلد أثناءها مناصب علمية عالية أكدت غزارة علمه، وعمق شخصيته، ومن أهم هذه المناصب: إشرافه بمصر على مشيخة جامع الأزهر[١].

واعتمد السيد مواعدة ـ كما نلاحظ مما سبق ـ في هذا التقسيم لحياة الرجل، الإطار التاريخي والجغرافي، متبعاً في ذلك طريقة كل الذين كتبوا عن حياة الخضر حسين، الذي درج هو نفسه على نفس النسق عند حديثه عن أطوار حياته بمناسبة حفل التكريم الذي أقامه له أحد تلامذته الدكتور عبد الوهاب المالكي عند زيارته دمشق سنة ١٩٣٧م[٢].

وفيما يتعلق بآثار محمد الخضر حسين، فقد قدمها السيد مواعدة مع التعريف الموجز بمحتواها وقيمتها، ساعياً إلى تحليلها باقتضاب، مبيناً غزارتها وشمولها لميادين كثيرة من المعارف، ولا سيما الدين والأدب واللغة والسياسة، ومن الملاحظ أن هذه الآثار مرتبة في ثلاثة أبواب:

أ ـ الباب الأول: وهو يشمل المحاضرات المنشورة، والمقالات المجموعة في كتب، وأهم المواضيع التي تناولتها: الإصلاح في الإسلام،

---

(١) من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٥٤م.

(٢) انظر: (ص١٩)، والمرجع التالي: «الهداية الإسلامية» (١٠ ـ ج٥ ص٢٥٧) الملحق: «حديث عن رحلتي إلى دمشق»، (ص٣٣٦).

وبلاغة القرآن، والحرية في الإسلام، ثم مواضيع لغوية وأدبية؛ مثل: حياة اللغة العربية، والخطابة عند العرب، وعلماء الإسلام في الأندلس.

ب ـ الباب الثاني: وهو يشمل ما ألفه الرجل من كتب في اللغة والآداب، ولا سيما كتابيه: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»[1]. و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي»[2]، ويشمل هذا الباب أيضاً مجموعة من البحوث والرسائل.

ج ـ الباب الثالث: تعرض فيه السيد مواعدة إلى الحديث عن محمد الخضر حسين الشاعر الذي يجمع قسماً من قصائده في ديوان بعنوان «خواطر الحياة»، ولا يزال القسم الآخر موزعاً في المجلات والصحف (ينتظر الجمع والتبويب والنشر).

وفيما يتعلق بتبويب هذه الآثار، أشار صاحب البحث إلى أنه لم يعتبر فيه العامل التاريخي، وذلك (لتداخل المقالات الموجودة في هذا الميدان)، بل (اعتمد إطار العمل وشكله)، بقطع النظر عن محتواه حتى (يتجنب إعادة بعض المعاني، وذكر بعض الآثار في مناسبات عديدة)[3].

وقد عني السيد مواعدة بإبراز عناصر الشخصية الجذابة التي يتميز بها محمد الخضر حسين عناية خاصة، ولخصها في أربعة محاور، وهي:

ـ محمد الخضر حسين العالم في شؤون الدين.

---

(١) وهو رد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، أحد علماء الأزهر انظر: (ص١٦٣).

(٢) رد على كتاب طه حسين: «في الشعر الجاهلي» الذي صدر سنة ١٩٢٦م.

(٣) انظر: (ص ١٣٤).

- محمد الخضر حسين الأديب.
- محمد الخضر حسين المصلح.
- محمد الخضر حسين السياسي.

وسعى إلى تحليل كل منها بإيجاز اعتماداً على مراحل حياة الرجل، وما تركه من مؤلفات، وإلى بيان قيمة شخصيته الثقافية، ومكانتها ضمن الحركة الفكرية الإسلامية[١].

ويتضح من هذه الدراسة أنها شخصية قوية عميقة ساهمت مساهمة ملموسة في الحركة الإصلاحية، وقد علق عليها الأستاذ الشملي بقوله: «هي شخصية قوية لا شك، عنيدة صُلبة آسرة[٢]». وفي أواخر الكتاب (ملحق) يشتمل على مجموعة المقالات الوصفية التي ألفها محمد الخضر حسين عن رحلاته إلى البلاد الجزائرية، وبلدان المشرق العربي، وبلدان أورباوية مختلفة، وقد نشرها صاحبها في المجلات والصحف، إلا أنها بقيت موزعة، لذلك عمد صاحب البحث إلى جمعها، والتعليق عليها، وغرضه من ذلك «تمكين القارئ من الاطلاع على آراء الرجل وأفكاره بالاعتماد على نصوص من تحريره، بالإضافة إلى ما أوردناه في شأنه في هذه الدراسة»[٣].

ولئن كانت هذه الرحلات قد دُونت، أو دوّن جلّها في شكل مقالات محررة بقلم صاحبها، ألم يكن من الأجدر والأجدى أن تُضَمّ إلى مجموعة آثاره، وتُلحق بالقسم الثاني من الكتاب، وهو القسم المخصص لآثار الرجل

---

(١) انظر: (ص٢٠٦ ـ ٢٠٧).
(٢) انظر: التقديم، (ص٩).
(٣) انظر: (ص٢٣٢).

على تنوّعها، اللهم إلا أن يكون السيد مواعدة قد عثر عليها، أو دُلّ إليها بعد أن أنجز عمله كاملاً. . . فيكون هكذا قد لجأ إلى إضافة هذه المقالات الوصفية الخاصة برحلات الرجل في شكل (ملحق) في آخر البحث، وقد يكون رائده من ذلك حب الإفادة بما ظفر به في آخر المطاف من هذه الآثار.

وعلى كل، فيبدو أقرب إلى المنطق أن تُعدّ هذه المقالات من جملة آثار محمد الخضر حسين، وتُحشر ضمنها، وأهم هذه المقالات ثلاث:

- «الرحلة الجزائرية»[1].
- «خلاصة الرحلة الشرقية»[2].
- «حديث عن رحلتي إلى دمشق»[3].

والملاحظ أن الكثير من الأعلام المذكورين في هذه الرحلات لم يقع التعريف بهم، على أن صاحب البحث يعترف بذلك لصعوبة وجدها في القيام بهذا العمل، وله فضل التواضع في الاعتراف بذلك إذ يقول[4]:

«وقد اعترضنا صعوبة كبيرة في التعريف ببعض الأعلام المذكورين في هذه الرحلات خاصة في «خلاصة الرحلة الشرقية»، وقد تمكنا من التعريف بالبعض منها، وبقي عدد آخر لم نتمكن من التعريف به».

وفيما يتعلق بقائمة المراجع والمصادر ـ وهي عربية وفرنسية ـ فقد رتبها السيد مواعدة حسب تواريخ صدورها، وتشتمل المراجع على:

---

(١) نشرت في مجلة «السعادة العظمى» (عدد ١٩ و٢٠ و٢١).

(٢) نشرت في جريدة «الزهرة» (مارس ـ أفريل سنة ١٩١٣م).

(٣) نشر بمجلة «الهداية الإسلامية».

(٤) (ص٢٣٢).

أ ـ الكتب.

ب ـ المجلات.

ج ـ الجرائد.

أما المصادر، فتضمنت كلها ما نشر من مؤلفات محمد الخضر حسين.

وأما فهرس الأعلام ـ وهو مرتب حسب حروف الهجاء ـ، فلم يشمل الأعلام الموجودة بالحواشي[1].

هذا، وإن إخراج الكتاب وطبعه على جانب من الأناقة، ما عدا غلطات مطبعية وردت هنا وهناك، ونذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

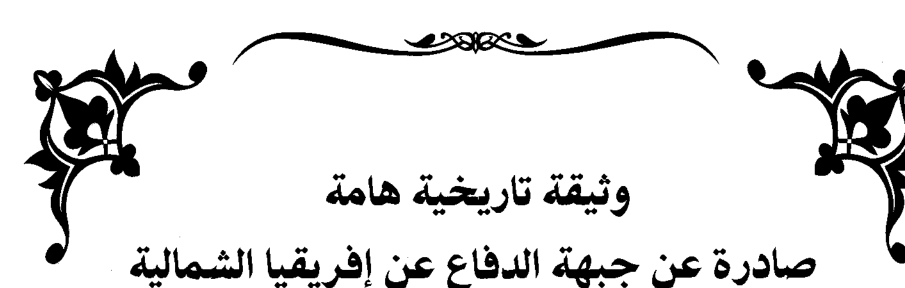
ـ ص٣٣٣، س١٣: رقم (٦) أمام (العلامة السيد محمد بن جعفر الكتاني) عوض رقم (٢).

ـ ص٣٣٥، س١٢: (المحتلون) عوض (المحتفلون).

وختاماً يعتبر هذا البحث مفيداً من حيث تمكينه القارئ الدارس من الاطلاع على جوانب من شخصية هذا العلامة التونسي الشهير في العالم الإسلامي، وعلى جوانب هامة من نظرياته وآرائه واتجاهه الإصلاحي، وهو من شأنه أن يفتح أبواباً جديدة على طريق البحث العلمي بخصوص هذه الشخصية؛ لزيادة التعمق في تحديد معالمها لدى المهتمين بالحركة الفكرية في بلادنا والعالم الإسلامي.

❑ ❑ ❑

(١) انظر: (ص٣٤٩): لم يراع المؤلف في ترتيب الأعلام (الـ) ولا (الكنية) ولا (ابن).



وثيقة تاريخية هامة
صادرة عن جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

الدكتور محمود عبد المولى[1]

*** محرر الوثيقة:**

أما محرر الوثيقة الخطيرة باسم: (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، فهو ـ دون ريب ـ محمد الخضر حسين، باعتبارها تحمل توقيع الشيخ بكل وضوح. فمن هو هذا الرجل؟.

لا يتسع مجال هذه المقدمة القصيرة للحديث عن جوانب الشيخ كلها؛ أي: باعتباره علماً بارزاً من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، قد ساهم طويلاً مساهمة جادة في الحركات الفكرية والسياسية في تونس والمشرق على السواء؛ حيث ارتبط اسمه بأسماء عدد كبير من رجالات الدين الذين قاموا بدور هام في ميادين مختلفة: دينية ولغوية وأدبية وسياسية، فكتاب محمد

---

(١) كاتب تونسي، وأستاذ العلوم الاجتماعية بجامعات تونس والجزائر وطرابلس، وهذه المقتطفات من كتابه «كشكول مسافر» صدر في تونس حزيران ١٩٧٨م، وهو كتاب يطرح قضايا تتعلق بالنقد والأدب والاجتماع.

وتحدث المؤلف عن وثيقة تاريخية هامة صادرة عن (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) عنوانها: (تونس ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي ١٨٨١ ـ ١٩٤٨م) للإمام محمد الخضر حسين، وسبق أن نشرنا هذه الوثيقة في كتابنا «تونس وجامع الزيتونة».

مواعدة عن الشيخ يحيط بهذه الجوانب إحاطة شاملة.

غير أن الجانب السياسي ـ في رأينا ـ يحتاج إلى دعم علمي بالوثائق، الأمر الذي جعل المؤلف محمد مواعدة يبدي تحفظات، واعترف ـ بتواضع نادر ـ بأنه لم يتمكن من تقديم صورة واضحة عن النشاطات السياسية للشيخ المترجم له؛ إذ اكتفى بما تجمع لديه من معلومات، واستخلاص صورة تقريبية راجياً أن تزداد جلاء عند الحصول على وثائق أخرى، هي الآن ـ حسب زعمه ـ لدى بعض أصدقاء الشيخ، وخاصة عن نشاطه بالبلاد المصرية.

والجدير بالتذكير هنا: أن الشيخ محمد الخضر حسين ولد في بلدة «نفطة» في الجنوب التونسي في (٢٦ رجب ١٢٩٣هـ ـ ٢١ جويلية ١٨٧٣م)، ويعد حياته بالبلاد التونسية وبالبلاد السورية قضى ـ كابن خلدون ـ بقية عمره في مصر (إلى وفاته عام ١٩٥٨م) حيث رقي فيها إلى أعلى المناصب، نخص بالذكر منها: مشيخة الجامع الأزهر.

هذا بعد نشاطه الديني، والعلمي، والأدبي، والسياسي، في كل من تونس ودمشق والآستانة (تركيا)، وخاصة بأوربا (برلين وجنيف) أين اتصل بالأخوين باش حانبة (محمد، وعلي)، والشيخ صالح الشريف، وغيرهم من مناضلي المغرب العربي الذين يتفق وإياهم في النظرية والاتجاه السياسي اللذين يتمثلان في تحرير أقطاب المغرب العربي (خاصة) من الاستعمار الفرنسي (المسيحي)، والعمل في ظل الحكومة العثمانية بالآستانة، أو ببرلين من أجل:

١ ـ (رابطة إسلامية) ستضم ـ عند قيامها ـ المسلمين كافة، في نظام سياسي مركزي، وهو نظام الخلافة، كما يتبين لنا ذلك من خلال كتابه «نقض

كتاب الإسلام وأصول الحكم».

٢ ـ تحرير المغرب العربي (أفريقية الشمالية)، ووحدة قضيته ومصيره، كما يتبين لنا ذلك من تأسيسه (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية)، ومن قراءتنا للوثيقة التي تخلفت عن هذه الجبهة.

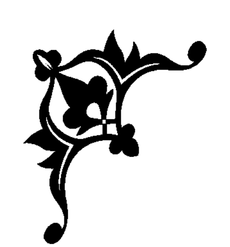
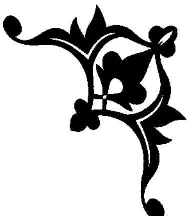
ولا بد من التذكير أيضاً: أن الشيخ محمد الخضر حسين قد أمضى التقرير الذي وجهته (اللجنة التونسية الجزائرية للدفاع عن مطالب الشعب الجزائري ـ التونسي) إلى مؤتمر الصلح المنعقد في فرنسا، وأمضى هذا التقرير حسب الترتيب كل من: الشيخ صالح الشريف التونسي، والمترجم له، ومحمد مزيان التلمساني، ومحمد الشيبي التونسي، ومحمد بيزار الجزائري، وحمدان ابن علي الجزائري، ومحمد باش حامبة.

ومما يذكر بهذا الصدد: أن مجلة «المصور» قامت بإجراء حديث صحفي مع الشيخ محمد الخضر حسين بعد أسبوع من توليه مشيخة جامع الأزهر، ومما قاله لمبعوثها:

«ولعلكم تنظرون إليّ نظرتكم إلى رجل عجوز هرم، ولكن هذه الشيخوخة البادية هي نتيجة الكفاح السياسي، أما القلب والرأس، فما زالا فتيين»[1].

❑ ❑ ❑

(١) مجلة «المصور» القاهرة. الأسبوع الأخير سبتمبر ١٩٥٢م.

علماء تونسيون في دمشق[1]



الدكتور صلاح الدين المنجد

وأُنهي هذا البحث بذكر عالمين تونسيين كبيرين، هبطا دمشق، وأفادا أهلها. وهما: الأخوان العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، وأخوه الشيخ زين العابدين، وقد ترجمتُ لهما تراجم طويلة في كتابي «أعلام العصر».

وقد وُلد الشيخ الخضر في بلدة «نفطة» بالقطر التونسي سنة ١٢٩٤ هجرية، والتحق وهو في الثانية عشرة من عمره بجامع الزيتونة، فدرس فيه، وتخرج منه سنة ١٣١٦هـ. وأنشأ سنة ١٩٠٤م مجلة علمية أدبية كانت أول مجلة من نوعها في المغرب كله، سماها: «السعادة العظمى»، فأغلقتها السلطات الفرنسية، ثم تولى القضاء في مدينة «بنزرت» عام (١٩٠٥م/ ١٣٢٣هـ). ولم يطب له القضاء، فعاد إلى الزيتونة والمدرسة الصادقية مدرّساً.

وقبيل الحرب العالمية الأولى حكم عليه الفرنسيون بالإعدام؛ لاشتغاله بالسياسة، وإثارته الخاصة والعامة، فهاجر إلى دمشق مع أسرته، وأخيه.

(١) بحث تقدم به الدكتور صلاح الدين المنجد في ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس جامع الزيتونة في (٢٥ المحرم - ٢ صفر عام ١٤٠٠هـ الموافق ١٥ ديسمبر كانون الأول - ٢١ عام ١٩٧٩م)، تونس. واخترنا من البحث ما يتعلق بالإمام محمد الخضر حسين.

وجلس في الجامع الأموي يلقي دروساً في أصول الفقه، والخلاف، والنحو، والأدب، والحديث النبوي. وأكرمه علماء دمشق، وأحبّوه؛ للطفه، ودماثة خلقه، وحلاوة معشره. ثم سافر إلى الآستانة، وتولى التحرير في وزارة الحرب، وعاد منها أوائل سنة ١٩١٨م.

وكانت دمشق تفور بفكرة الوطنية، فعاد يدرّس في الأموي. فلم ترُق دروسه لجمال باشا؛ لما كان يبثه في تلاميذه من معاني الوطنية والإصلاح، فاعتقله أشهراً في السجن، وفي سجنه نظم هذه الأبيات اليائسة:

غلَّ ذا الحبسُ يدي عن قلمٍ ... كان لا يصحو عن الطرسِ فناما

أنا لولا همّةٌ تحدو إلى ... خدمةِ الإسلام آثرتُ الحِماما

ليست الدنيا، وما يبسم من ... زهرها إلا جَهاماً وقتاما

وتوسط له علماء دمشق، فأفرج جمال باشا عنه، وبقي في دمشق حتى عام ١٩٢٠م، وشهد مولد الحكومة العربية الأولى في سورية، وقرّبه الملك فيصل، ورأيت رسالة بخطه وقّع فيها: محمد الخضر حسين التونسي الدمشقي.

فلما دخلت الجيوش الفرنسية دمشق، وقام عهد الانتداب، لجأ إلى مصر، وكان له فيها كفاح جديد وطويل في خدمة الإسلام. وكانت همته شمّاء، فالتحق بالأزهر، وقدّم الامتحان للشهادة العالمية، فنالها، وألّف «جمعية الهداية الإسلامية»، وأصدر لها مجلة باسمها رأس تحريرها، ثم درّس في الأزهر في كليتي الشريعة وأصول الدين، وعُيّن رئيساً لتحرير مجلة «الأزهر»[1]

---

(١) هي نفسها مجلة «نور الإسلام» قبل تسميتها بمجلة «الأزهر»، ولم يتسلم الإمام =

مدة، كما تولى رئاسة مجلة «نور الإسلام». وانتهى به الأمر أن انتُخب شيخاً للجامع الأزهر عام ١٩٥٢م، وكان أول عالم غير مصري الأصل يُنتخب شيخاً للأزهر.

وكان له في مصر مواقف باهرة في الدفاع عن العربية والإسلام. فألّف كتاباً في «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق. وكتاباً في «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لطه حسين، وكتاب «الدعوة إلى الإصلاح»، و«رسائل الإصلاح»، و«دراسات في العربية وتاريخها»، و«الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان»، و«محمد رسول الله وخاتم النبيين»، و«تراجم الرجال»، و«بلاغة القرآن»، وغير ذلك.

وانتُخب عضواً في مجمع دمشق، ثم في مجمع القاهرة عند إنشائه سنة ١٩٣٢م، وكان ـ رحمه الله ـ نمطاً خاصاً في ثقافته الإسلامية والعربية، التي أحاطت بكل شيء، فكان: فقيهاً، أصوليّاً، مفسراً، محدّثاً، أديباً، شاعراً، لغوياً، مصلحاً. ـ وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٥٨م، ودفن بالمقبرة التيمورية.

أما أخوه الشيخ زين العابدين بن حسين، فقد ولد بتونس سنة ١٣١٧ هجرية، فدرس في الزيتونة، وحفظ القرآن الكريم، ونال شهادة (التطوع)، وكان من أساتذته ـ كما كتب لي بخطه ـ: الشيخ محمد بن يوسف، وشيخ الإسلام أحمد بيرم، والشيخ الصادق بن القاضي، والشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ بلحسن النجار، والشيخ صالح المالقي ـ رحمهم الله ـ وكلهم من

= تحرير المجلة بعد التسمية الجديدة.

أعيان علماء تونس، ثم انتقل إلى دمشق مع أخيه الشيخ الخضر.

ودرّس اللغة العربية في مدرسة السلطاني العربي، وبقي في دمشق، ولم يغادرها مع أخيه، وعندما أُنشئت الجامعة السورية، التحق بكلية الآداب، ونال شهادة الآداب العليا. ثم درّس في مدارس دمشق الرسمية الابتدائية، ثم الثانوية، ثم دور المعلمين، حتى أُحيل على التقاعد عام ١٩٥٠م، بعد أن تخرج على يديه آلاف من التلاميذ الدمشقيين.

وكان أستاذي في (مدرسة البحصة) الابتدائية، يعلّمنا النحو والعربية. وكان التلاميذ يحبّونه؛ للطف كان فيه، ودُعابة. وألف مؤلفات مفيدة منها: «المعجم المدرسي»، و«المعجم في النحو والصرف»، وهو جيد، و«المعجم في القرآن»[١]، و«الدين والقرآن»، و«الأربعون الميدانية» في الحديث، وغير ذلك.

وكانت داره في حي الميدان مجمعَ الأفاضل، وكانت له دروس عامة يلقيها، ويجتمع فيها الكثيرون، ويفيدون منها. وكان في منتهى الذكاء، يخاطب كُلاًّ على قدر عقله وفهمه، وكان لطيف المعشر، خفيف الظل، مع صلاح ووقار، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٩٧٧م، جاءنا خبر وفاته إلى بيروت.

أيها السادة!

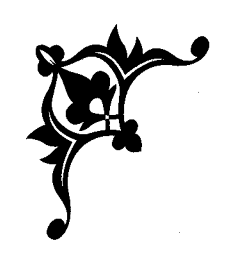
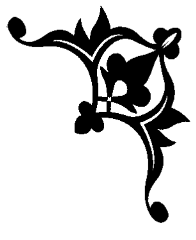
هؤلاء أنموذجات من علماء تونس الذين انطلقوا منها، ومن الزيتونة، فملؤوا دمشق والبلاد الإسلامية الأخرى بعلمهم، وقد تعمّدت ذكرهم؛ لأنهم أسهموا في ازدهار الثقافة الإسلامية في دمشق. ولي ـ ونحن في مطلع

---

(١) «المعجم في الكلمات القرآنية».

هذا القرن الخامس عشر ـ أملان: الأول: أن يتصدّى زملاؤنا الأساتذة التونسيون الشباب لإتمام هذا الموضوع، والبحث عن الأثر الثقافي التونسي في كل بلد عربي وإسلامي، والثاني: أن ينطلقوا هم أيضاً على خُطا أولئك، ويفيدوا البلاد الإسلامية كلها بعلمهم وثقافتهم. وإنهم لخليقون بذلك ـ إن شاء الله ـ.

❐ ❐ ❐

أعلام العلماء
الشيخ الخضر حسين

محمد عبدالله السمان[1]

*** العلم والجهاد:**

قليلون[2] الذين يعرفون فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، الذي ولي مشيخة الأزهر عام ١٩٥٢، واستقال عام ١٩٥٤م، ولزم داره حتى وافته منيته في فبراير عام ١٩٥٨م.

وربما كان لهؤلاء عذر أو بعض العذر؛ فالشيخ مصري الإقامة، تونسي الأصل، ولد ـ رحمه الله ـ في بلدة «نفطة» في تونس سنة ١٢٩٣هـ، وقد انتقلت أسرته إلى تونس العاصمة، والتحق الشيخ بجامع الزيتونة، وحصل على شهادة العالمية، ولم تشغله الوظيفة عن طلب العلم. وقد تولى قضاء «بنزرت»، وولي التدريس أيضاً بجامع الزيتونة، على أن يسهم بقلمه ولسانه وشبابه في الحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، ويسهم في النهضة العلمية

---

(١) كاتب إسلامي معروف ـ مجلة «أكتوبر» المصرية، العدد ٣٤٩ الصادر يوم الأحد ٣ يوليو تموز ١٩٨٣م ـ القاهرة.

(٢) استعمل الكاتب هذه الكلمة: (القليلون) بلاغة من قلمه؛ لأنه يريد الحث على المزيد من الاهتمام والعناية بمؤلفات الإمام محمد الخضر حسين، ودراسة أفكاره الإصلاحية والعلمية، وبثها في العالم الإسلامي.

والأدبية هناك باعتبار أن النهضة العلمية والأدبية تقف إلى جانب الحركة الوطنية في تحرير الوطن من الاستعمار الأجنبي الدخيل.

أصدر في تونس مجلة «السعادة العظمى»، وهي إسلامية سياسية أدبية..

كانت عصا الترحال تلازم الشيخ، رحل إلى تركيا، ثم إلى تونس، ولما اشتدت وطأة الاستعمار الفرنسي، واشتدت في مواجهتها الحركة الوطنية ضد الاستعمار، وأحس الشيخ الشاب أن عيون الاستعمار ترصده، قرر الهجرة إلى دمشق أولاً؛ ليواصل جهاده بقلمه ولسانه، وفي دمشق عين مدرساً في المدرسة (السلطانية) التي درس بها الإمام محمد عبده، ثم رحل من دمشق إلى الآستانة، وسافر إلى ألمانيا مرتين، وله هناك ذكريات سجلها في ديوان. ولم يطب له المقام في دمشق، فقرر الاستقرار بالقاهرة؛ حيث توثقت صلته بأبرز مفكريها؛ أمثال: الشيخ محمد رشيد رضا، والعلامة أحمد تيمور باشا..

الحق أن مصر فيما مضى كانت كعبة القاصدين من المجاهدين السياسيين، والمفكرين الإسلاميين الذين ضاقت عليهم الأرض بوجود الاستعمار، كانوا يجدون في مصر أهلاً، وينزلون سهلاً، قصدها الحكيم الثائر جمال الدين الأفغاني، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وعبد الكريم الخطابي بطل الريف بالمغرب، والشيخ البشير الإبراهيمي شيخ علماء الجزائر، وغيرهم.

وحين حل الشيخ محمد الخضر حسين بالقاهرة التحق بالأزهر، وحصل على العالمية، ورأس تحرير مجلة نور الإسلام «الأزهر» فيما بعد منذ إنشائها عام ١٩٢٩م، وكانت في عهده مجلة ذات قيمة علمية وفكرية، يجد فيها الخاصة والعامة بغيتهم، وعين الشيخ أستاذاً متفرغاً في جامعة الأزهر، وأسهم في

تأسيس «جمعية الشبان المسلمين»، ثم أسس «جمعية الهداية الإسلامية»، ومجلتها التي تحمل نفس الاسم، وكان مقرها بميدان لاظوغلي. ومن خلال هذه الجمعية تعرفتُ على الشيخ، وتوثقت صلتي به، وكانت الجمعية تضم خلاصة العلماء والمفكرين، كما كانت مقصد الطلاب المغاربة من ذوي الحاجات المادية والعلمية، وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ ينفق على هذه الجمعية ومجلتها من ماله الخاص..

واختير الشيخ عضواً في هيئة كبار العلماء لدراسته القيمة عن القياس كمصدر من مصادر التشريع، ثم اختير عضواً في المجمع اللغوي.

وعندما أصدر الأستاذ أحمد حمزة ـ رحمه الله ـ مجلة «لواء الإسلام» اختار الشيخ الخضر حسين أول رئيس تحرير لها، ولا شك أن هذه المجلة سدت فراغاً في دنيا الفكر الإسلامي. وكان من كتابها المشايخ: أبو زهرة، وعبد الوهاب خلاف، والأستاذ عبد الوهاب حمودة، وغيرهم ـ رحمهم الله ـ. ولم يكن الشيخ بمعزل عن التيارات الفكرية المناهضة للإسلام، فكان أول من تصدى للرد على كتاب «الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق..

*** الشيخ ومواقف لا تنسى:**

عين الشيخ شيخاً للأزهر عام ١٩٥٢م وعمره يناهز الثمانين، لذلك أشفق عليه من هذا المنصب تلامذته وعارفو قدره على ماضيه المشرق الحافل بأنصع الصفحات، ولكن الشيخ الذي كان يتمثل ببيت الشاعر:

إنّ الثمانين وبُلِّغْتها ... قد أحوجَتْ سمعي إلى ترجمانِ

كان بين جنبيه نفس أبية: وقلب فتى، وإيمان شجاع، واطمأننتُ حين

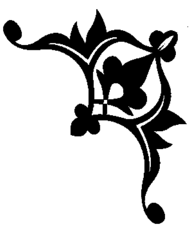
علمت من مصادر موثوق بها أن الشيخ لا يعتبر هذا المنصب غاية يصبو إليها. لذلك فمنذ توليه المنصب وهو يحتفظ في جيبه باستقالة محررة، ونسخة منها يحتفظ بها مدير مكتبه، وقد قال له ـ أي: لمدير مكتبه ـ: إذا أحسست بضعفي في موقف من المواقف، فقدم استقالتي نيابة عني..

وفي عام ١٩٥٣م عزلت فرنسا السلطان محمد الخامس الولي الشرعي للمغرب مستعينة بعملائها الخونة من المواطنين، فجمع الشيخ هيئة كبار العلماء، وأصدرت بياناً اعتبرت فيه هؤلاء المارقين العملاء خارجين على الإسلام، وأرسل البيان إلى الصحف، فلم تنشره، وفي الصباح أرسل البيان مرفقاً به استقالته إلى رئيس الجمهورية، وكان أن نشر البيان، وكان له أثره في الحركة الوطنية في المغرب..

وبعد:

فهذا هو الشيخ محمد الخضر حسين، العالم، الزاهد، الجريء، الذي قدم إلى المكتبة العربية والإسلامية ثروة أدبية ولغوية وفقهية.

❑ ❑ ❑

الأدب التونسي
وصداه في الشرق قديماً وحديثاً

أبو القاسم محمد كرو[1]

ويأتي بعد الثعالبي مباشرة رجل وديع ومتواضع، ويكاد أن يكون خجولاً خافت الصوت، إذا ما جالسته وتحدثت إليه، ولكنه جبّار في علمه وفي أدبه، رغم سلفيته ونزوعه إلى المحافظة، بحكم انتمائه العائلي، وتكوينه العلمي.. عنيتُ: الشيخ الجليل محمد الخضر حسين[2].. هذا الذي جاهد الاستعمار الفرنسي في تونس، وفي كامل بلادنا المغربية، حتى حكم عليه غيابياً بالإعدام، ومصادرة أملاكه؛ لأنه كان أحد الذين ساهموا في بعث الثورات المسلحة بالجنوب.. وكان هو والشيخان: صالح الشريف[3]، وإسماعيل الصفائحي[3]

---

(١) كاتب تونسي اهتم بسيرة الإمام محمد الخضر حسين وآثاره، وهذا المقتطف من مقاله المنشور في مجلة «المسار» تحت عنوان: «الأدب التونسي وصداه في الشرق قديماً وحديثاً»، وهي مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب التونسيين ـ العدد الأول من السنة الأولى خريف ١٩٨٨م. وله كتاب «محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق» طبع في تونس ١٩٧٣م.

(٢) انظر كتابنا عنه: «محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق» ط تونس ١٩٧٣م.

(٣) لنا عنهما دراسة مخطوطة «أذيعت عام ١٩٨١م» راجع عنهما أيضاً تراجم محفوظ، وكتاب د. محمود عبد المولى عن الجهاد التونسي الليبي (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، وهو بالفرنسية.

القادة الحقيقيين للنضال التونسي في أوروبا، خلال الحرب العالمية الأولى، ولكن بعض المزورين للتاريخ يحاولون سرقة هذا الشرف، وإسناده كاملاً لمن كان دورهم يأتي حتماً في الدرجة الثانية، وذلك بشهادة الوثائق التي بدأ الآن ظهورها في أرشيفات ألمانيا وفرنسا وتركيا[١].

هذا الخضر حسين الذي استطاع بضلاعته النادرة في الأدب والشعر والبلاغة والعلوم الدينية، أن يتصدى ـ كما لم يتصد عالم أو أديب غيره ـ في أكبر معركتين من معارك الأدب والفكر في مصر العشرينات، معركة طه حسين وكتابه «في الشعر الجاهلي»[٢]، ومعركة علي عبد الرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم»[٣]، وما أثاره من قضايا حول الخلافة، وهل هي من الإسلام، وضرورية اليوم للمسلمين أم لا؟.

ومن يرد أن يعرف مكانة الرجل، وقيمة كتبه، وردوده العلمية والأدبية على هذين الكتابين، فليعد إلى كتاب «مصادر الشعر الجاهلي»[٤] للدكتور ناصر الدين الأسد، وإلى الدكتور محمد عمارة فيما كتبه عن قضية الخلافة وبخاصة ما نشره عنها في مجلة الدوحة الخليجية[٥].

---

(١) انظر: ما كشف عنه باحث ألماني من مكانة كبيرة ودور بارز لصالح الشريف «من خلال وثائق ألمانية» حوليات الجامعة التونسية عدد ٢٤ سنة ١٩٨٥م.

(٢) حوكم من أجله طه حسين وأتلفت نسخه، لكننا نحتفظ بنسخة أصلية منه في مكتبنا.

(٣) طبع في ظروف سياسية معقدة عام ١٩٢٥م فور إلغاء الخلافة، ونحتفظ بنسخة من طبعته الأولى التي تمت بإشراف مؤلفه، أما طبعات بيروت اللاحقة، فهي تجارية، وفي بعضها تصرف غير علمي.

(٤) صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٢ والثانية ١٩٦٢.

(٥) أعداد سنة ١٩٨٧.

إن ما يعنينا هنا الآن، ليس ذلك فقط، بل حضوره الأدبي الطويل في مصر (٤٠ سنة) بعد حضوره القصير ـ نسبياً ـ في دمشق والآستانة، وما تميز به هذا الحضور من إسهام كبير ومتواصل، لا في نهضة مصر الأدبية والعلمية، وفي تطوير أزهرها بالخصوص، وارتقائها إلى أعلى درجات المسؤولية فيه، حتى تولى مشيخته في فجر الثورة الناصرية (٥٢ ـ ١٩٥٤)، ليس ذلك فقط، بل وما قام به من نشاط أدبي وصحفي، ومن إشعاع تونسي في شتى الميادين[١]، ويكفي دليلاً على ذلك عدد المجلات التي تولى إدارة تحريرها، فضلاً عن مجلاته الخاصة، وأهمها مجلة «الهداية الإسلامية» التي عاشت معه، ومع جمعيتها التي تحمل اسمها، مدى ثلاثين عاماً، وكانت ـ كما كان هو ـ صوت تونس الأدبي والوطني والديني والثقافي، في مصر وفي أنحاء العالم العربي، هذا فضلاً عن عشرات الكتب والمحاضرات، وفي طليعتها كتاباه الفائقان «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، و«نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»[٢]، يضاف إلى ذلك كله مئات المقالات التي كانت ـ كما كان هو ـ بحق إشعاعاً للأدب التونسي في معظم أوساط الأدب والثقافة في مصر والشام، وخاصة أوساط الأزهريين.

صحيح أن تركيز الشيخ الخضر ـ من الناحيتين الأدبية والتاريخية ـ كان على جماعات الزيتونيين، وخاصة منهم شيوخه وأصدقاءه اللامعين؛ كعمر ابن الشيخ، وسالم بو حاجب، والطاهر بن عاشور، وعلي النيفر. لكن هذا

---

(١) للشيخ الخضر نشاط سياسي وطني للدفاع عن تونس والمغرب العربي، راجع ذلك في كتابنا عنه.

(٢) طبع الأول عام ٢٦، والثاني قبله بسنة.

بالنسبة إليه كان أمراً منطقياً بحكم ظروفه وانقطاع صلاته بتونس إلا مع هؤلاء.

وصحيح أنه قامت بتونس في مطلع الثلاثينات معارضة لأفكاره الأدبية والدينية المحافظة؛ كموقفه هو من دعوة الحداد إلى تحرير المرأة[1]، وموقف الشابي والمهيدي[2] والسنوسي[3] من آراء الخضر الأدبية.

لكن من الصحيح أيضاً أن كتاب الشابي «الخيال الشعري عند العرب»[4] كان في عمقه الخفي معارضة لكتاب الشيخ الخضر حسين «الخيال في الشعر العربي» المطبوع لأول مرة في القاهرة عام ١٩٢٢م؛ أي: قبل طبع كتاب الشابي بسبع سنوات، وأنا ـ وإن كنت أعتز بالرجلين العظيمين ـ فإني أختلف معهما في الكتابين.

لقد توسعت كثيراً في الحديث عن الثعالبي، والخضر حسين؛ لأننا نعتقد أن دورهما في المشرق هو الذي لفت أنظار واهتمام المثقفين العرب هناك إلى أن تونس لها تاريخ أدبي وثقافي هام جداً، وأن فيها نهضة حديثة، وأدباً جديراً بأن يعرف ويدرس، ثم لأن إشعاع الرجلين ما زال قائماً يضيء الكتابات والعقول إلى اليوم، خاصة في مصر والعراق وبلاد الشام.

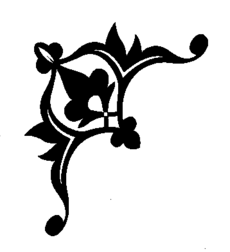
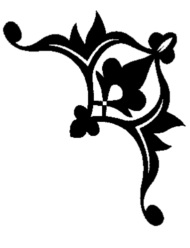
---

(١) انظر كتابه: «رسائل الإصلاح» (ج٣ ص٢٩)، أو كتابه «بلاغة القرآن» (ص١٣٢)، وهو من تنسيق حفيده للأخ.

(٢) عن موقف الشابي راجع: «رسائل الشابي» التي جمعها الحليوي، وقدمنا لها، ونشرناها عام ١٩٦٦، وعن موقف المهيدي: مجلة «الندوة» عدد خاص بالشابي ـ أكتوبر ١٩٥٣.

(٣) راجع: مجلة السنوسي «العالم الأدبي»، وكتابه عن الشابي.

(٤) طبعته الأولى عام ١٩٢٩.

من تاريخ الصحافة التونسية «السعادة العظمى ١٩٠٤» ودورها الحضاري

محمد الشعبوني[١]

إن صاحب مجلة «السعادة العظمى» هو أحد أعلام هذا العصر، الشيخ محمد الخضر حسين، ولد بـ «نفطة» سنة ١٨٧٤، والتحق وهو ابن ١٢ سنة مع والده إلى تونس العاصمة، ودرس بالمعهد الزيتوني، وأحرز على شهائده العلمية والأدبية، وأصدر مجلة «السعادة العظمى»، ثم تولى القضاء ببنزرت حتى سنة ١٩٠٥، فتولى التدريس بالزيتونة، وبالصادقية، ثم هاجر إلى دمشق مطارداً من طرف الاستعمار، ثم إلى مصر كلاجئٍ سياسي سنة ١٩٢٢، واستلم رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام»، وعين مدرساً بكلية أصول الدين، ثم أستاذاً متخصصاً. وأنشأ جمعية «الهداية الإسلامية»، وأصدر مجلة باسمها، وعيّن عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وعضواً بالمجمع اللغوي بالقاهرة، ونال عضوية مجلس كبار العلماء برسالته «القياس في اللغة العربية»، وأدار تحرير مجلة «لواء الإسلام»، وترأس (جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا)، ثم اختير شيخاً للأزهر سنة ١٩٥٢، وتوفي سنة ١٩٥٨ بالقاهرة، ودفن بالمقبرة (التيمورية).

---

(١) كاتب تونسي معروف ـ جريدة «الصباح» العدد الصادر في ٨/٢٩/ ١٩٩٠م ـ تونس.

هذا هو صاحب «السعادة العظمى»، فماذا عن هذه المجلة؟ في وقت لم يكن فيه للمجلة الدينية مكان ببلادنا؟

ظهرت «السعادة العظمى» في ١٦ محرم ١٣٢٢م بقطع من الورق الجيد مقياس ١٧ ـ ٢٤، وبعدد ١٦ صفحة، وقد جاء تحت اسم المجلة ما يلي: «مجلة علمية أدبية إسلامية تصدر غرة كل شهر عربي، وفي سادس عشر منه».

ولما ظهرت المجلة، استقبلها أهل العلم والأدب بكل حفاوة وترحاب، وكانت في الوقت نفسه وخزاً للمستعمرين الذين حاربوا ولاحقوا أصحابها، وضايقوا مديرها، حتى تعطل صدورها، ولم يمض عام على ظهورها، وكان آخر عدد ظهر منها يحمل رقم (٢١) قعدة ١٣٢٢هـ، وكان صاحبها يصدرها من منزله نهج (رحبة الغنم)[1] بالعاصمة.

أما عن محتواها، فهو كما أشار العدد الأول في افتتاحيتها التي استغرقت صفحات كامل العدد ما نقتصر على بعض عناصره: «تفاتح مطالعيها بمقالة تتخذ مظهراً لبعض مطالب تقتضيها المحافظة على حياة مجدنا القديم، ويتلوها باب تعتبره معرضاً لعيون مباحث علمية، ولا تريد إلا انتظامها في ما هو التحقيق، بما يتخللها من الأفكار السامية، ويتلوهما باب ثالث تنشر فيه من الآداب ما يكون مرقاة للتقدم في صناعتي الكتابة والشعر لا يتمتع بها عند المسايرة ثم ترقص كأضغاث أحلام ـ ونقصّ في هذا الباب من التاريخ أحسن القصص، ويتصل بذلك باب رابع في الأخلاق، ويلي باب آخر للأسئلة والاقتراحات، ثم خاتمة عنوانها مسائل شتى.

ومن مقاصد هذه المجلة: التعرض لما تتناوله الألسنة، وتتناقله الأقلام

---

(١) المعروف اليوم باسم: (معقل الزعيم).

من الأحاديث الموضوعة. وأورد المؤلف في افتتاحية مجلته اثني عشر استطلاعاً لبيان ما سيدرج تحت كل باب منها، من دراسات ومعارف، ذاكراً أن المجلة مستعدة لقبول ما يرد عليها من الرسائل المنقحة التي تنطبق على المنهج الذي كنا بصدد تسويته، ولا أخاله إلا صراطاً سوياً، ونؤمل من عواطف هؤلاء الفضلاء أن ينظروا إلى ما تنطوي عليه صحائف هذه المجلة كيفما صدرت نظر بحث وانتقاد، وإن عثروا على نوع ما من الخلل، جاهرونا به، ولا نتلقاه إلا بفساحة الصدر، وغاية الارتياح، بل ربما استدللنا على ذلك بنجاح المسعى، ومن انسدت أمامه طرق الإذعان إلى الحق، عميت عليه أنباء التحقيق.

يقول الشيخ محمد العربي الكبّادي:

(سعادتكم) فينا لقد طلعت شمسا　　فكلٌّ لها أضحى مشوقاً كما أمسى

ولله مـا خطّـت يراعتـك التـي　　برقَّـة مـا تبديـه تمتلـك النفـسا

مجلة علم لم تجـل فـي ضـلالة　　ولكن جراحات الضلال بها تؤسى

أما الشيخ محمد الحشايشي، فقد حياها بقوله:

تشرفت باستطلاع فكركم الأسمى　　وما ذاك إلا الـدرّ ترسـمه رسـما

مجلتكم روض مـن العلـم يـانع　　سترقى بفضل الله أغصانه النجما

وقد خلصت من كل بدعـة زائـغٍ　　فحقاً بأن تدعى: (سعادتنا العظمـى)

ومن لم يشارك في السعادة قاصر　　على نيلها فاسعد ودم جهبذاً قرما

وكثير هم العلماء والأدباء الذين استقبلوا ظهور المجلة بقصائدهم؛ كالمشايخ: محمد النخلي، والصادق المحرزي، وإدريس محفوظ، وصالح سويسي، ومحمد شاكر، ومحمد العزيز الشيخ، والأمين بوعلاق، ومحمد

المذكور بن الصادق، والطاهر بو دربالة، والشاذلي خزندار، وغيرهم. مما نشرت قصائدهم بكتاب «السعادة العظمى».

يقول محمد الطاهر بودربالة:

ذا زهــر روض عــاطر الأردان أعقــود درّ فــي نحــور غــوانِ

أم ذي السعادة للهدى قد أقبلـت حيّـت فأحيـت مجمـع العرفـان

عربيــة شــهدت لهــا أترابهــا وغــدت تحليهــا بحــسن بيــان

أما علاّمة العصر، ومفخرة القطر، الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، فقد أورد في كتابه لصاحب المجلة ما يشير إلى رأيه فيها: «ما زلت راجياً أن أرى منا ناهضاً يحيي لهاته الأمة فخاراً، ويقول لأهلها: امكثوا إني آنست ناراً، فهذا رجائي قد أسفر عن مجلتكم العظمى، وعسى أن يقارنها من تعضيد المؤازرين ما تحقق به الآمال، وسيكون ـ إن شاء الله ـ من اسمها للأمة أصدق فال. لكنك ستجد في صنيعك هذا ألسناً شاجرة، وصدوراً ثائرة، وعيوناً متغامزة؛ كما وجد الناهضون من قبلك، فإن استطعت أن لا تزيدك أراجيفهم إلا معرفةً بكبر نفسك، وتصميماً على غاية فكرك، ولهواً عن قولهم؛ فإنهم حاسدون، ويأساً من نصرتهم، فأولئك هم الخاذلون، ولتكن استعانتك وتوكلك على من كفل الهداية إلى الصراط المستقيم، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم».

وهكذا أصبح اسم الشيخ الخضر حسين مقترناً باسم مجلته «السعادة العظمى»، هذه المجلة التي تناولت من المباحث العلمية: (الاعتصام بالشريعة)، و(الأخذ بالقول الراجح)، و(براءة القرآن من الشعر)، و(العمل والبطالة)، و(حياة الأمة)، و(التربية)، و(التقدم بالكتابة)، و(النهضة للرحلة)، و(مدنية

الإسلام والعلوم العصرية)، و(كبر الهمة)، و(التعاون والتعاضد)، و(الديانة والحرية المطلقة)، و(البدعة)، و(الزمان والتربية)، و(الصيام)، و(الأحاديث الموضوعة).

وتناولت عن المباحث الأدبية: (تقسيم الكلام بحسب أغراضه)، و(الإبداع في فنون الكلام)، و(طريق الترقي في الكتابة والشعر)، و(الشعر العصري)، و(الكلام الجامع). وحياة بعض الأعلام؛ كأبي بكر بن العربي، وأبي الوليد الباجي، ومنذر بن سعيد، وتحقيق مسائل تاريخية، والرحلة الجزائرية، أما الأسئلة والأجوبة، فقد كانت متنوعة عن (ليلة النصف من شعبان)، و(صوت المرأة)، و(الاقتباس من القرآن)، و(الطب النبوي)، و(الاستخارة)، وغيرها.

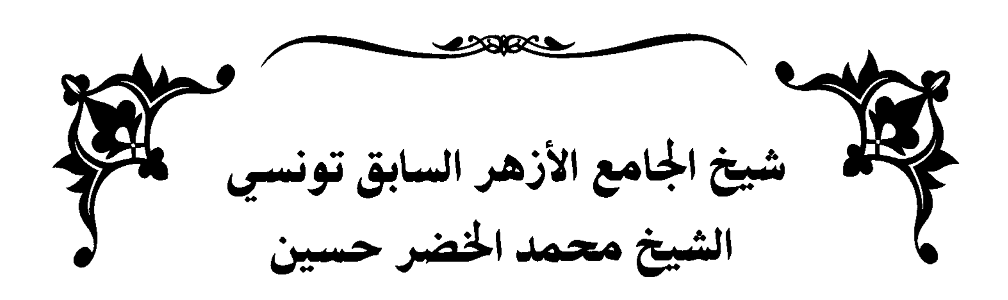
هذه هي مجلة «السعادة العظمى» التي تعد أول مجلة دينية ظهرت بتونس في أوائل هذا القرن. نختم باستعراض حياتها بهذه الأبيات لشيخ شعراء «صفاقس» الأستاذ محمد شاكر يراسل بها صاحب المجلة:

هناء لهذا القطر بالمأمل الأسمى ... وبشراه إذ لاحت سعادته العظمى

مجلة علم طالما استشرفت لها ... نفوس ذوي الآداب ممن حوى العلما

فمدوا أولي الألباب أيدي جدّكم ... عسى أن ترى الإسعاد للقوم قد تمّا

❐ ❐ ❐



شيخ الجامع الأزهر السابق تونسي
الشيخ محمد الخضر حسين

حامد الحبيب براهم[1]

ليس من السهل أن تنسى تونس هذا العالم الكبير، ولابد للشباب التونسي أن يعرف من هو الشيخ محمد الخضر حسين شيخ جامع الأزهر السابق، هذا الرجل الذي آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

إن الاستقامة على طريق الله بعلم وحزم وحكمة ويقين هي الولاية، فإذا تعارضت مصلحة الدين ومصلحة الدنيا أمام الرجل المسلم، فآثر مصلحة الدين، ومضى على ذلك في تصرفاته كلها مدى الحياة، فهو من أولياء الله؛ أي: من أنصاره، والولاية هي النصرة، وقد جرت سنة الله أن يأخذ بأيدي أوليائه، وينصرهم ما نصروا دعوته وسنته في الأرض، وهذه المرتبة في متناول يد كل من رامها من شبابنا وكهولنا وشيوخنا، إذا آلى أن يجعل وجهته في مراحل الحياة. وسأتحدث في هذه الجريدة المباركة «جريدة الصباح» إلى إخواني من الشباب التونسي عن حياة هذا الرجل المؤمن بالإسلام.

---

(١) كاتب تونسي ـ جريدة «الصباح» العدد الصادر في ١٤ سبتمبر أيلول ١٩٩٠م ـ تونس.

ولد شيخنا المرحوم محمد الخضر حسين عام ١٢٩٣هـ في مدينة «نفطة» الجمهورية التونسية، وأبوه من أسرة شريفة، أصلها من الجمهورية الجزائرية، وكانت أمه من صالحات النساء، وله فيها قصيدة: (بكاء على قبر) لما بلغه خبر وفاتها سنة ١٣٣٥هـ. وكان أبوها الشيخ مصطفى بن عزوز من أهل العلم والفضل، له ترجمة في تاريخ الوزير أحمد بن أبي الضياف، وأبو جده لأمه محمد بن عزوز من الأفاضل أيضاً، وله ترجمة في كتاب «تعريف الخلف برجال السلف» للشيخ الحفناوي بن عروس، وخاله السيد محمد المكي بن عزوز من كبار العلماء الصالحين، وكان موضع الإجلال والاحترام من رجال الدولة العثمانية في العهد الحميدي، وقضى الشطر الأخير من حياته في الآستانة برغبة من السلطان، وله مؤلفات معروفة، ولشيخنا الفقيد قصيدة في تأبينه ووصفه بمناسبة وفاته سنة ١٣٣٤هـ أثبتها في (ص١٨٠) من «ديوانه» في طبعته الثانية.

وفي سنة ١٣٠٥ انتقلت أسرتهم من «نفطة» إلى العاصمة التونسية، وكان الفقيد في الثانية عشرة من حياته، وقد تأدب قبل ذلك بأدب الإسلام، وتلقى كتاب الله، ومبادىء العلوم الشرعية والعربية، فلما نزلوا تونس، التحق بجامع الزيتونة الأعظم، وأخذ يتنقل في مراحل التعليم، وكان من أبرز شيوخه: العلامة الكبير المرحوم سالم بو حاجب المولود ببلدة بنبلة، والمتوفى سنة ١٣٣٩هـ ـ رحمه الله ـ، ولفقيدنا أبيات في وصفه ورثائه هي في «ديوانه» (ص١٠١).

وفي سنة ١٣٢١ حصل على شهادة العالمية من جامعة الزيتونة المعمور، وما لبث أن أصدر مجلة «السعادة العظمى»، وأخذ يساهم في النهضة العلمية والأدبية، ويباري رجالها لإحراز قصبات السبق طمعاً في مرضاة الله، وفي

«ديوانه» (ص٧٣) قصيدة نظمها في هذه الحقبة، انطوت على روح الدعوة التي أنشأ هذه المجلة للقيام بها.

وفي سنة ١٣٢٤هـ تولى قضاء مدينة «بنزرت» ومنطقتها. وفي مساء ١٧ ربيع الآخر من تلك السنة ألقى محاضرة عنوانها: (الحرية في الإسلام) في نادي قدماء خريجي المدرسة الصادقية بلغت ٦٤ صفحة، ودلت على نزعته المبكرة إلى الحرية، وفهمه السليم لرسالة الإسلام من هذه الناحية، ولم تطل مدة ولايته القضاء؛ لأن الجمع بينه وبين انطلاقه الفكري في بلد محتل بالاستعمار الملعون كان محاولة للجمع بين الضدين، لذلك رأيناه في سنة ١٣٣٧هـ عاد مدرساً في جامع الزيتونة، ولعله فارق القضاء قبل تدريسه في الزيتونة، فتولى التدريس قبل ذلك في المدرسة الصادقية حيث كانت المدرسة الصادقية هي الوحيدة في كامل الوطن التونسي، وفي مساء السبت ١١ شوال سنة ١٣٢٧هـ ألقى في نادي الجمعية الخلدونية بتونس العاصمة محاضرة عنوانها: (حياة اللغة العربية) تحدث فيها عن أطوار هذه اللغة، وفصاحة مفرداتها، وحكمة تراكيبها، وتعدد أساليبها، وما تفردت به من إعجاز وبدائع التشبيه، وارتقاء مستوى اللغة بارتقاء التمدن العربي، وتحدث عن العامية والعربية الفصحى، وفي «ديوانه» (ص٢٣) قصيدة نظمها سنة ١٣٢٨هـ بعد ولايته القضاء والتدريس يوجه بها أنظار القائمين على جامع الزيتونة إلى ضرورة العناية بتدريس الإنشاء، وتمرين الزيتونيين عليه؛ ليكون للوطن من علماء هذا المعهد الإسلامي كتّاب بارعون، يؤدون مهمة الدعوة، ويقودون الأمة إلى أهدافها.

وفي تلك السنة، مرت بتونس بعثة الهلال الأحمر العثماني قاصدة طرابلس الغرب بعد حملة البغي الإيطالي عليها، فنظم قصيدة يدعو فيها إلى معونة

هذه البعثة وإعانتها، وهي في «الديوان» (ص٣٣).

وفي السنة التالية (١٣٢٩هـ) وجهت إليه التهمة ببث روح العداء للغرب، ولا سيما سلطة الحماية الفرنسية، فسافر إلى الآستانة متذرعاً بزيارة خاله السيد محمد المكي بن عزوز، ولما ظن أن الزوبعة هدأت، عاد إلى تونس بطريق «نابولي»، ولما استقر به المقام، رأى أنه لن يطيق البقاء في ذلك الجو الخانق، فأزمع الهجرة منه نهائياً، ووقع اختياره على دمشق؛ ليتخذها وطناً ثانياً له، وقد مر بالقاهرة سنة ١٣٣٠هـ، وقد اجتمع بالشيخ طاهر الجزائري، وأحمد تيمور، والسيد رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب الذي كان وقتئذٍ في قلم تحرير «المؤيد».

ولما وصل إلى دمشق، كانت الحركة العربية في بدايتها، وكانت الأمة تطالب الحكومة العثمانية بإعطاء اللغة العربية حقها من التعليم في المدارس الرسمية، فعين الشيخ محمد الخضر حسين مدرساً للعربية في المدرسة (السلطانية) بدمشق، وكانت سكة الحجاز الحديدية متصلة فيما بين دمشق والمدينة المنورة، فزار المسجد النبوي سنة ١٣٣١هـ، وله في هذه الزيارة قصيدة في «الديوان» (ص١٠٦).

وفي هذه الفترة زار البلاد التونسية، وفي «ديوانه» من ذكريات هذه الزيارة أبيات في (ص١٢٦ و١٣٤). وذهب في هذه المرة إلى الآستانة، ولقي وزير حربيتها أنور باشا، واختير الشيخ محرراً عربياً في وزارة الحربية، وكان في هذه الحقبة قد عرف دخيلة الحال في الدولة، وأصيب بخيبة أمل ما كان يتصوره بعين الخيال، وبين ما رآه بعين الحقيقة، فنظم في سنة ١٣٣٢ أبيات بعنوان: (بكاء على مجد ضائع) تجدها في «ديوانه» (ص٦١)، وفي سنة ١٣٣٣

أرسله أنور باشا إلى «برلين» بمهمة رسمية، فقضى في ألمانيا تسعة أشهر، اجتهد خلالها في تعلم الألمانية، وفي «ديوانه» قطع كثيرة مما نظمه هناك، ومن ذلك: أنه كان في قطار بضواحي برلين يرافقه مدير الأمور الشرقية بوزارة الخارجية الألمانية، وكان يتحدث مع شاب ألماني باللغة الألمانية، ثم أقبل مدير الأمور الشرقية على الشيخ، وقال له: أليس هكذا يقول ابن خلدون: إن العرب أبعد الناس عن السياسة؟ فنظم الشيخ في هذه الحادثة أبياتاً يقول فيها:

عذيري من فتى أزرى بقومي وفي الأهواء ما يلد الهذاءَ

سلوا التاريخ عن حكم تملت رعاياه العدالة والرخاء

هو الفاروق لم يدرك مداه أمير هزّ في الدنيا لواء

وعاد إلى الآستانة، فوجد أن خاله الشيخ المكي بن عزوز قد توفي بها، قبل قدومه بنحو شهرين، فرثاه بما في «الديوان»، ثم ضاقت به العاصمة العثمانية على سعتها، وصرفه عنها وعن عظمتها يومئذٍ ما كان يشعر به من الشوق إلى دمشق، حتى تمكن من الوصول إليها، والاستقرار فيها، غير أنه ما لبث أن ناله شواظ من شرور السفاح الجنكيزي أحمد جمال باشا، الذي لم يسلم فاضل من شره، فاعتقل في رمضان سنة ١٣٣٤هـ، وكان في زنزانة واحدة هو والأستاذ سعدي بك الملا الذي تولى رئاسة الوزراء اللبنانية بين الحربين العالميتين، وكان جريرة سعدي بك الملا: أنه كان سكرتيراً لشكري باشا الأيوبي من كبار رجال الجيش العثماني الذين أنجبتهم الشام، أما شكري باشا، فكان تحت التعذيب الأليم الذي يذكِّر الناسَ بديوان التفتيش الكاثوليكي في إسبانيا.

ومن شعر الشيخ محمد الخضر حسين في هذا الاعتقال:

جرى سمر يوم اعتقلنا بفندق ... ضحانا به ليل، وسامرنا رَمْسُ
فقال رفيقي في شقا الحبس: إن في ... الحضارة أنساً لا يقاس به أُنْسُ
فقلت له: فضل البداوة راجحٌ ... وحسبك أن البدو ليس به حَبْسُ

وأكبر ظني أنه كان لأنور باشا دخل في إنقاذ الشيخ من قبضة جمال باشا، فما كاد يفرج عنه، ويخرج، حتى أزمع السفر إلى الآستانة، وما كاد القطار يسير به حتى قال، وهي في «ديوانه» (ص١٢٦):

أردد أنفاساً كذات الوقود إذ ... رمقتني من البين المشت رواشِقُ
وما أنت مثلي يا قطار وإن نأى ... بك السير تغشى بلدة وتفارقُ
فما لك تلقى زفرة بعد زفرة ... وشملك إذ تطوي الفلا متناسق؟!

ولما بلغ الآستانة، أوفده أنور باشا سنة ١٣٣٥ للمرة الثانية إلى ألمانيا، فقضى فيها زمناً طويلاً، وعاد إلى الآستانة، ثم إلى دمشق، فتولى التدريس بالمدرسة السلطانية مرة أخرى بقية سنة ١٣٣٥، وفي هذه المدة شرع في دراسة كتاب «مغني اللبيب» في علم العربية لجمال الدين بن هشام (٧٠٦ - ٧٦١) بمحضر جماعة من أذكياء طلاب العلم بدمشق، وكان يرجع في تقرير المسائل المتصل بالسماع والقياس إلى تلك الأصول المقررة والمستنبطة، فاقترح عليه أولو الجد من الطلبة جمع هذه الأصول المتفرقة؛ ليكونوا على بينة منها ساعة المطالعة، فألف مقالات تشرح حقيقة القياس، وتفصل شروطه، وتدل على مواقعه وأحكامه، ومن المقالات تألفت رسالة «القياس في اللغة العربية» التي أعاد عليها نظره بمصر، ونال بها عضوية جماعة كبار العلماء.

وفي سنة ١٣٣٧هـ ذهب إلى الآستانة، وكانت الحرب العالمية الأولى في نهاياتها، والحالة في دولة الاتحاد والترقي مؤذنة بالزوال، فتوجه إلى ألمانيا، وقضى هناك سبعة أشهر، وكانت عودته منها هذه المرة إلى دمشق رأساً، وهو يقول «الديوان» (ص٢٢٠):

سئمت وما سئمت سوى مقامي — بدارٍ لا يروج بها بياني

فأزمعت الرحيل وفرط شوقي — إلى بردى تحكم في عناني

هلم حقيبتي لأحطّ رحلي — فنفحُ زهور جِلّق في تداني

ووافقت عودة الشيخ إلى دمشق دخول الجيش العربي، وولاية فيصل ابن حسين على سوريا، على أمل أن يعود إلى تونس، فيكمل حياته فيها، ولكن الله أراد له الاستقرار والبقاء بمصر.

وفي مصر أخذ يشتغل بالكتابة والتحرير والدرس، وفي سنة ١٣٤٠هـ ألف رسالته «الخيال في الشعر العربي». وبعدئذٍ كسبته دار الكتب المصرية، فالتحق بقسمها الأدبي عدة سنين، ثم تجنس بالجنسية المصرية، وتقدم للامتحان في الأزهر، فقام على امتحانه لجنة برئاسة العلامة الشيخ عبد المجيد اللبان، وكانت اللجنة كلما اكتشفت آفاق علمه، زادت في التعمق بمناقشته، واستخراج كنوز فضله، وأصبح بعدئذ من أكمل أساتذة هذا الصرح العلمي العظيم في عصور الإسلام الطويلة، وإن تلاميذ الشيخ صاروا فحول العلماء، وأطواد التحقيق في الشريعة وعلوم العربية.

وفي سنة ١٣٤٢هـ أسس «جمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية»، وسن لها قانوناً، وفي سنة ١٣٤٣ مرض مرضاً شديداً، ردد صداه في شعره «الديوان» (٢٦)، وفي سنة ١٣٤٤هـ ظهر كتاب «الإسلام وأصول الحكم».

واصل ـ رحمه الله ـ السنين المباركة في حياته بعد ذلك في التدريس بكلية أصول الدين على طريقة العلماء الأقدمين في التحقيق والرجوع بقضايا العلم إلى أصولها، والغوص في أعماقها، ويقضي الليالي في محاضرة جماهير الشباب وأهل الفضل بدار «جمعية الهداية الإسلامية» داعياً إلى تجديد حيوية الإسلام في نفوس أهله، وتقرير حقائقه بأساليب بليغة، كانت موضع الحرمة والتقدير من جميع الطبقات.

وعندما أسس المجمع اللغوي، كان من أقدم أعضائه، وله فيه بحوث وقصائد ودفاع عن الفصحى، وتبيان لأسرارها، وعرض لجواهرها.

وفي سنة ١٣٧٠ نال عضوية هيئة كبار العلماء برسالة «القياس في اللغة العربية» التي ألف أصولها وهو في دمشق أيام الحرب العالمية الأولى، وفي يوم الثلاثاء (٢٦ من ذي الحجة ١٣٧١هـ ـ ١٦ سبتمبر ١٩٥٢م) خرج من مجلس الوزراء أثناء انعقاده ثلاثة من أعضاء ذلك المجلس، فتوجهوا إلى المنزل الذي كان يسكنه الشيخ، وعرضوا عليه مشيخة الجامع الأزهر باسم حكومة الثورة، وجاء الشيخ إلى مشيخة الأزهر، وللأزهر في ذهنه رسالة يتمنى لو اضطلع بها الأزهر؛ ليتم له بها حمل أمانة الإسلام.

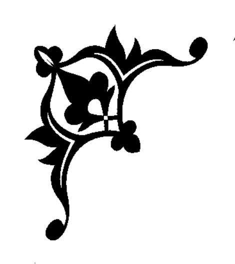
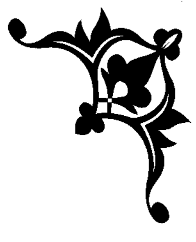
وكان هذا الاختيار تحقيقاً للأخوة الإسلامية في الدستور الإسلامي، وبرهاناً من الله ﷻ على أن من كان مع الله، كان الله معه، وعلى أن من عاش يؤثر الآجلة على العاجلة عند اختلافهما، فإن الله يكافئه بخير مما يطمع فيه الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة.

ولما أضعفته الشيخوخة عن مواصلة الاضطلاع بحمل هذه الأمانة، عاد إلى منزله يواصل العكوف على الكتب والكتابة والتفكير، حتى لقد نظم ديواناً

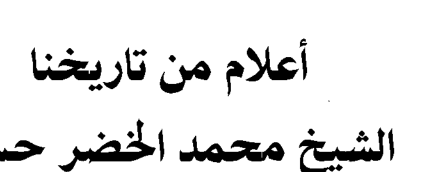
كله مقطعات في الحكمة والخواطر التي تحوم حول الحق والخير . .

وفي يوم ١٣ رجب ١٣٧٧ مساء اختاره الله إليه، وهو لا يزال على عهده الأول من الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا، فكان جديراً بما وعد الله به أمثاله أن تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، وفي ظهر اليوم التالي صُلي عليه بعد الفريضة في الجامع الأزهر، ومشى في موكب جنازته علماء الأزهر وأعيان الأمة المصرية والمنتسبون إلى العلم، ودفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بوصية منه ـ رحم الله الشيخ محمد الخضر حسين التونسي شيخ جامع الأزهر السابق ـ.



أعلام من تاريخنا
الشيخ محمد الخضر حسين



عمر بُوشيبة[1]

في الجنوب التونسي، وفي زوايا العلم؛ حيث الإشعاع الفكري والروحي، وفي واحات النخيل الباسقة، ولد شيخنا الخضر حسين في بلده «نفطة» سنة ١٨٧٣هـ من أسرة علم وتقوى يتصل نسبها بالرسول الأعظم ﷺ، ولما بلغ من العمر الثانية عشرة، انتقل مع والده إلى العاصمة؛ حباً لطلب العلم، وانتسب إلى جامع الزيتونة الذي نهل من معينه العلم الكثير، وفي هذا الصرح الحضاري درس، ودرّس العلم، وتولى بعدها القضاء في مدينة «بنزرت»، فكان وقافاً عند كتاب الله، ولم يكتف بهذا، بل راح يخوض غمار الصحافة، فأسس مجلته الخالدة «السعادة العظمى» التي أوقفتها السلطات الفرنسية.

لقد كان صوتاً إسلامياً مدوياً في أنحاء المعمورة، يخشع لسامعه العدو والصديق. رحم الله شيخنا، لم يدع درباً ولا طريقاً إلا سلكه في سبيل تحرير تونس الحبيبة من براثن الاستعمار، لقد كان خطيباً مفوهاً يلهب حماسة الجماهير

---

(١) كاتب تونسي ـ مجلة «الفجر» ـ العدد العاشر الصادر يوم السبت ١٠ ربيع الأول ١٤١١هـ ـ ٢٩ سبتمبر ١٩٩٠م ـ تونس.

من فوق المنابر، فلما شعرت فرنسا بالخطر المحدق عليها، لاحقته، وضيقت عليه السبل، فخرج فراراً بدينه إلى الشرق حاملاً قلماً بليغاً معطاءً، لا ينفد خيره، وعقـلاً مؤمنـاً ثاقبـاً، يتابعـه حكـم الإعـدام الذي أصدرته محكمـة العدو.

وحط به الترحال في دمشق الفيحاء، فأقام فيها مدة طويلة تولى في مطلعها التدريس، ثم اعتقله جمال باشا فترة من الزمان؛ لاشتغاله بالسياسة، وتحريض الناس للجهاد المقدس، وعلى أثرها سافر إلى الآستانة وألمانيا داعياً؛ لأنه يدرك أنه يمثل خلية من خلايا جسم الدعوة الإسلامية، وأن قوة هذه الخلية وفاعليتها في مدى انسجامها وتفاعلها مع خلايا الجسم الأخرى. هكذا كان ينظر إلى عبء الدعوة الإسلامية.

وفي سنة ١٩٢٠م وصل إلى مصر بعد أن لاحقته فرنسا طويلاً، فبدأ النضال السياسي إلى جانب الدعوة والإصلاح، كانت داره عبارة عن سفارة تونسية، بل مغاربية، يؤمها الأمراء والمناضلون من أبناء المغرب العربي الكبير، فكان الشيخ يبعث فيهم روح النضال الموحد والمشترك؛ لأن عدوهم واحد، وهدفهم واحد، فأسس (رابطة تعاون جاليات أفريقيا الشمالية)، فعقدت المؤتمرات، وشرحت قضايا المغرب للعالمين العربي والإسلامي، ثم أنشأ (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية) التي قامت بدور فعال، وكانت إحدى الطعنات التي مزقت صدر الاستعمار، وهو في كل هذا بقي يحن إلى تونس مسقط رأسه، ومنبِت فكره، ونجد ذلك في شعره تحت عنوان: (أبناء تونس). قال عندما زاره أحد الأدباء قادماً من تونس إلى القاهرة:

أمحدّثي رُبّيتَ في الـوطن الـذي ... رُبّيتُ تحت سمائه وبلغت رشدا

وجنيتَ زهر ثقافة مــن روضــة[1] كنتُ اجتنيت بنفسجاً منها وورداً

هاتِ الحديث فإنني أصـبو إلـى أبناء تونس من صميم القلب جِدّا

وبعد رحلة طويلة من الكدح والجهاد، ناداه ربه إليه، فاستجاب لنداء خالقه، وكان ذلك في رجب سنة ١٩٥٨م حيث دفن في المقبرة التيمورية بالقاهرة إلى جانب صديقه أحمد تيمور باشا.

استلم رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام» التي يصدرها الأزهر، المعروفة اليوم بمجلة الأزهر، وانضم إلى علماء الأزهر، وعيّن مدرساً للفقه في كلية أصول الدين، ثم أستاذاً في التخصص، وعين أيضاً في المجمع العربي العلمي بدمشق، واختير عضواً في جامعة كبار العلماء بعد أن قدم رسالته العلمية «القياس في اللغة العربية». استلم رئاسة تحرير مجلة «لواء الإسلام»، وقام بتأسيس جمعية (الهداية الإسلامية)، وجمعية (الشبان المسلمين)، ثم تولى سنة ١٩٥٢م إماماً لمشيخة الأزهر.

*** بعض أقواله في فكرة فصل الدين عن الدولة:**

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين.

*** مؤلفاته:**

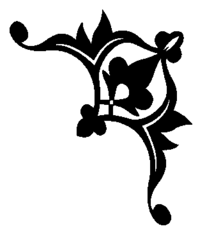
كثيرة منها: ديوانه في الشعر ـ خواطر الحياة ـ أسرار التنزيل ـ الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ـ القاديانية والبهائية.

رحم الله شيخنا، ما ترك فناً إلا وكتب فيه.

---

(١) يقصد به: (جامع الزيتونة) المعمور بتونس.





أعلام الإعلام في تونس
محمد الخضر بن الحسين

الدكتور محمد حمدان[1]

إذا كان تاريخ الصحافة بتونس زاخراً بالدوريات التي صدرت في شكل جرائد، فإن الدوريات التي صدرت في شكل مجلات تعد ضئيلة نسبياً. وإذا كانت الجرائد متصلة بالأحداث الآنية، وبالأخبار السياسية العامة، فإن المجلات تأخذ عادة بعدها الكافي عن الأحداث؛ لتكون وسائل تفكير نظري، وخلق أدبي، وتعبير عن الرأي. وتواجه المجلات بالتالي أكثر من الجرائد مشاكل في الصدور والاستمرارية؛ نظراً لجمهورها المحدود، ولتكاليف إخراجها المرتفعة.

وقد كان لمحمد الخضر بن الحسين الفضل في إصدار أول مجلة تونسية عنوانها «السعادة العظمى»، تبعتها بعد ذلك مجلات أخرى ذات طابع ديني أو أدبي إلى جانب المجلات الرسمية والمختصة.

ومحمد الخضر بن الحسين من مواليد «نفطة» بالجنوب التونسي

---

(١) كاتب تونسي معروف، وأستاذ محاضر في معهد الصحافة وعلوم الأخبار بتونس، له كتاب قيم في الإعلام في تونس تحت عنوان «أعلام الإعلام في تونس ١٨٦٠ - ١٩٥٦» ط١٩٩١م، صدر عن مركز التوثيق القومي بتونس. ومن الكتاب المذكور أخذنا هذا البحث.

حوالي ١٨٧٣م، ودرس بالمكتب القرآني في مسقط رأسه قبل أن يلتحق بالزيتونة، حيث تحصل على (التطويع)، وبدأ حياته العامة بإصدار مجلة «السعادة العظمى» منذ شهر محرم ١٣٢٢هـ (الموافق لشهر أفريل ١٩٠٤م)، وهي مجلة علمية أدبية إسلامية ونصف شهرية.

وأبرز الخضر بن الحسين من خلال مجلته نزعته الإسلامية الإصلاحية، ودعوته للتمسك بالدين، وبالتضامن الإسلامي لضمان النهضة. وقد انتهجت مجلة «السعادة العظمى» في شكلها ومنهجها ما سلكته مجلة «المنار» المصرية الشهيرة من خيارات.

وأحدثت المجلة هزة للفكر الديني التقليدي؛ إذ فتحت ودعت إلى فتح أبواب الاجتهاد، كما فتحت أبواباً للمقالات العلمية العصرية، لم يتعود عليها القارئ ، وفتحت أيضاً أبواباً للجدل حول مواضيع دينية ودنيوية حساسة. وفتحت المجلة أعمدتها لبريد القراء. وقد واجهت المجلة معارضة واحتجاج علماء الدين التقليديين الذين حاولوا إخماد صوتها. ولم تتمكن مجلة «السعادة العظمى» من الصدور أكثر من واحد وعشرين مرة؛ إذ توقفت عن الصدور في شهر جانفي ١٩٠٥م. بعد أن قامت هيئة النظارة العلمية لجامع الزيتونة بمطالبة الحكومة بتعطيلها.

وكان لهذه المجلة تأثير كبير على المسار المهني للخضر بن الحسين في المؤسسة الزيتونية، وعلى الشهرة التي سيتمتع بها لدى جانب معين من الزيتونيين، وعلى الاضطهاد الذي سيمارسه عليه جانب آخر منهم، مما سيدفع به في النهاية إلى ديار الغربة.

ومن الناحية الصحفية، يمكن اعتبار «السعادة العظمى» أول مجلة تصدر

في تونس باللغة العربية، وإن سبقتها في الظهور مجلات أخرى باللغة الفرنسية؛ مثل: «المجلة التونسية» منذ سنة ١٨٨٥، وإن سبقتها كذلك التقاويم السنوية التي صدرت في تونس مطبوعة باللغة العربية منذ ١٨٨١. وتعتبر مجلة «السعادة العظمى» امتداداً للكتاب؛ إذ أن صفحات مختلف أعداد المجلة متتابعة يمكن جمعها في كتاب، ولم تصل بعد في شكلها إلى مرحلة متطورة من الإخراج، إذ أنها لا تحتوي على رسوم أو صور، ولا تبرز بإخراج يميزها عن الكتب.

وبعد هذه التجربة الإعلامية الرائدة، انصرف محمد الخضر بن الحسين عن المهنة الصحفية، وإن واصل بعد ذلك مساهماته الصحفية، فإنه لم يتفرغ لهذا الميدان؛ فقد دعي الخضر بن الحسين إلى مباشرة القضاء في «بنزرت» سنتي ١٩٠٥ و١٩٠٦، ثم إلى التدريس في الزيتونة، وشقّ طريقه بصعوبة في هذه المؤسسة التعليمية، كما زاول التدريس في (الصادقية).

وبدأ الخضر بن الحسين أسفاره للخارج بداية من سنة ١٩١١ بعد تعرضه للمضايقات، واستقال من الزيتونة عام ١٩١٢م؛ ليتجول بين بلدان المشرق والغرب، وليدافع عن القضية التونسية والجزائرية في «برلين» خلال الحرب العالمية الأولى إلى جانب صالح الشريف، ومحمد باش حانبة.

واستقر بالشيخ الخضر بن الحسين المطاف بمصر، حيث قرر الإقامة، فتحصل على الجنسية المصرية، وزاول التدريس في جامع الأزهر إلى أن تولى رئاسة مشيخة الجامعات الأزهرية الشهيرة سنة ١٩٥٢. وفي مصر أيضاً كان للشيخ الخضر بن الحسين نشاط إعلامي؛ إذ تولى رئاسة تحرير المجلة الإسلامية التي تصدرها مشيخة الأزهر بعنوان «نور الإسلام»، كما تولى رئاسة (جمعية الهداية الإسلامية)، وأشرف على إصدار مجلة هذه الجمعية التي تحمل عنوان

«الهداية الإسـلامية». واسـتلم أيضاً رئاسة تحرير مجلة أخرى بعنوان «لواء الإسلام». وهكذا حافظ الشيخ الخضر بن الحسين على وفائه لتوجهاته الإسلامية في الإعلام. كما حافظ على قالب المجلة في إصداراته الإعلامية نظراً لتماشيها مع المواضيع الجدية التي يتطرق إليها.

وبالرغم من بعده عن تونس، وحجز أملاكه بها، والحكم عليه بالإعدام غيابياً، فإن علاقات الشيخ الخضر بن الحسين لم تنقطع مع الصحافة التونسية، فقد نشر في جريدة «الزهرة» اليومية في سنة ١٩١٣ خلاصة رحلته الشرقية. كما راسل مجلة «الفجر» التي أصدرها الحزب الحر الدستوري التونسي سنة ١٩٢٠، وقدم في أعمدتها مساهمة حول النظرية السياسية في الإسلام، وراسل الشيخ الخضر بن الحسين كذلك مجلة «البدر» الزيتونية، فتطرق لموضوع الخلافة في الإسلام، ولمسؤوليات العلماء، وساهم أيضاً بمراسلات إلى «مجلة العرب» عام ١٩٢٣. وبذلك تواصل حضوره على أعمدة الصحافة التونسية من خلال مقالاته.

كما تواصل هذا الحضور الإعلامي من خلال ما كان يكتبه عنه بعض الصحفيين الذين تتلمذوا على يديه. وقد كان الطيب بن عيسى صاحب جريدة «الوزير» ضمن التلامذة الأوفياء للشيخ، يتابع أخباره، ويفتخر بارتفاع شأنه في المشـرق. أما طلبة «الجريـد»، فقد بقي الشـيخ الخضر بالنسبة إليهم رمزاً للكفاح والعلم، وأسسوا سنة ١٩٤٧ جمعية (شباب الخضر بن الحسين النفطي)، وأسسـوا نشـرة أدبية سـنوية لهذه الجمعية عام ١٩٤٨، ساهم في تحريرها محمد صالح المهيدي، ومصطفى خريف، ومحمد العربي صمادح، وغيرهم. وبقي الشيخ الخضر بن الحسين متواجداً في الصحافة التونسية حتى

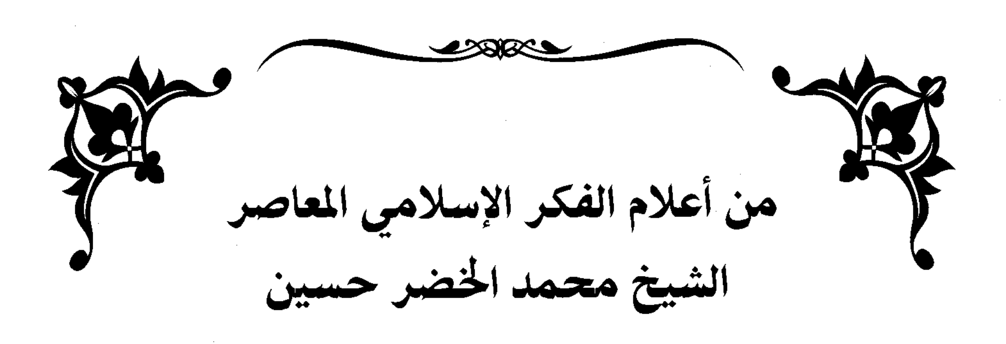
توفي في ١٢ فيفري ١٩٥٨ بالقاهرة، فخصه الطيب بن عيسى في جريدته «المشير» بسلسلة من المقالات تمجد ذكراه.

وإذا برز الشيخ الخضر بن الحسين على الصعيد العلمي والتعليمي والسياسي أكثر من بروزه على الصعيد الصحفي، وإذا لم ينل من مهنة المتاعب إلا المتاعب، فيكفيه فخراً أنه كان صاحب أول مجلة عربية في تاريخ الصحافة التونسية. وقد قامت الشركة التونسية للتثقيف والترفيه بجمع كامل أعداد مجلته «السعادة العظمى» في مجلد واحد، ونشرها سنة ١٩٨٧؛ حتى تكون في متناول جميع القراء.

*** المراجع:**

- محمد مواعدة: «محمد الخضر حسين: حياته: آثاره ١٨٧٣ ـ ١٨٥٨م»، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٤م، ٣٤٢ص.
- جعفر ماجد: «الصحافة الأدبية في تونس» (بالفرنسية)، الجامعة التونسية ١٩٧٩م، (ص٣٠).
- مركز التوثيق القومي: ملف ب ـ ٢ ـ ٨١ (الحركة الوطنية).
- محمد الفاضل بن عاشور: «أركان النهضة الأدبية بتونس».
- الطيب بن عيسى: مقالات عن محمد الخضر بن الحسين في «جريدة الأسبوع» (في ٣ و١٠ نوفمبر ١٩٥٢، وفي ٨ ديسمبر ١٩٥٢م)، وفي مجلة «المشير» (في ١٧ فيفري و٣ مارس و١٤ أفريل و١٩ ماي ١٩٥٨م).





من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر
الشيخ محمد الخضر حسين

الدكتور محمود حمدي زقزوق[1]

ولد الشيخ محمد الخضر حسين بمدينة «نفطة» في جنوب تونس في ٢٦ رجب ١٨٧٣م، وقد التحق بجامع الزيتونة بتونس عام (١٣٠٧هـ - ١٨٨٧م)، وحصل على شهادة التطويع عام ١٨٩٨م، وهي شهادة تمكن حاملها من التطوع لإلقاء دروس في جامع الزيتونة، كما تؤهله للظفر بمناصب علمية أو دينية عديدة، وبخاصة إذا كان صاحبها يتمتع بنبوغ وجد وسعة معرفة.

وفي عام ١٩٠٤ أنشأ أول مجلة عربية أدبية علمية في شمال أفريقيا هي مجلة «السعادة العظمى»، وتولى عام ١٩٠٥ قضاء بلدة «بنزرت»، ولكنه استقال بعد شهور قليلة، وعاد للتدريس بجامع الزيتونة، ثم بالمدرسة الصادقية، ورحل إلى الشرق عام ١٩١٢، وأقام في دمشق، ورحل إلى الآستانة، وبرلين، وفي عام ١٩٢٠ استقر في مصر، وحصل على الجنسية المصرية عام ١٩٣٢، وامتدت فترة إقامته في مصر حتى وفاته. وفي مصر ظهرت قيمته العلمية، وبرزت مكانته الثقافية.

---

(١) كاتب إسلامي معروف، ووزير الأوقاف المصري - نشر هذا البحث عندما كان يشغل منصب عميد كلية أصول الدين بالقاهرة - جريدة «الأهرام»، العدد الصادر يوم الأحد ٤ رمضان (١٤١٢هـ الموافق ٨ مارس آذار ١٩٩٢م).

وقد أسس عام ١٩٢٨ مع عدد من علماء الأزهر (جمعية الهداية الإسلامية)، وكان أول رئيس لها، وأصدرت الجمعية مجلة «الهداية الإسلامية» في أكتوبر ١٩٢٨ . وظلت تصدر شهرياً إلى أن توقفت أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد كان الشيخ مع صديقه الحميم تيمور باشا في طليعة المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٨ ، وعندما أصدر الأزهر مجلة «نور الإسلام» (مجلة الأزهر فيما بعد) عام ١٩٣٠ أسندت إليه رئاسة تحريرها، وقد تم اختيار الشيخ عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩١٩ ، وعضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في أول تشكيل له عام ١٩٣٣ ، وعين عضواً بجماعة كبار العلماء بالأزهر ومشيخة الأزهر عام ١٩٥٢ ، واستقال منها عام ١٩٥٤ ، ولكنه ظل يمارس نشاطه العلمي حتى آخر لحظة في حياته، وكان آخر مقال نشر له في عدد فبراير ١٩٥٨ من مجلة «لواء الإسلام»، وهو الشهر الذي توفي فيه.

* مؤلفاته:

له مؤلفات عديدة، وأبحاث مختلفة، من أهمها: «القياس في اللغة العربية» (١٩٣٤) ـ وبهذا البحث نال عضوية جماعة كبار العلماء. «الخيال في الشعر العربي» (١٩٢٢)، «محمد رسول الله وخاتم النبيين» (١٩٢٢). «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» (١٩٢٢)، «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» (١٩٢٧)، «رسائل الإصلاح» في ثلاثة أجزاء (١٩٣٩)، «خواطر الحياة»، «بلاغة القرآن» (١٩٧١)، «القاديانية والبهائية».

وللشيخ بالإضافة إلى ذلك العديد من المقالات والبحوث في موضوعات متنوعة، نذكر منها: الحرية في الإسلام، حياة اللغة العربية، العظمة، الخطابة

عند العرب، علماء الإسلام في الأندلس، ويعد كتاباه في «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي» من أبرز الكتب التي كان لها أثرها في ذيوع اسمه في الأوساط العلمية والأدبية.

*** آراؤه واتجاهاته الفكرية:**

لقد كان الشيخ صاحب غيرة دينية، ونزعة إصلاحية معتدلة، تجلت في مقالاته وبحوثه ومؤلفاته، وقد اهتم في مقالاته العديدة التي جمعت فيما بعد في كتابه «رسائل الإصلاح» بمجالات الدين والأخلاق والاجتماع. واهتم بصفة خاصة بالميدان الأخلاقي، فركز على الخصال التي يجب أن يتحلى بها الفرد، وبخاصة العالِم، وما يجب أن تتحلى به الأمة حتى تسلم من التفكك والانحلال. وتعرض لموضوع الإسلام والمدنية الحديثة مبيناً أهمية الدين في المجتمعات الحديثة، وضرورة عناية حكوماتها بنشره، وأن تستمد قوانينها من تشريعه الواسع النطاق، وهاجم العلمانية.

وقد كان الشيخ من دعاة الرابطة الإسلامية، المدافعين عن الدين، ودعوة المسلمين إلى ضرورة المحافظة عليها، وكان من دعاة الاجتهاد، وقد بين قيمته في الشريعة الإسلامية، مؤكداً على أن الشريعة الغرّاء تساير كل عصر، وتحفظ مصالح كل جيل.

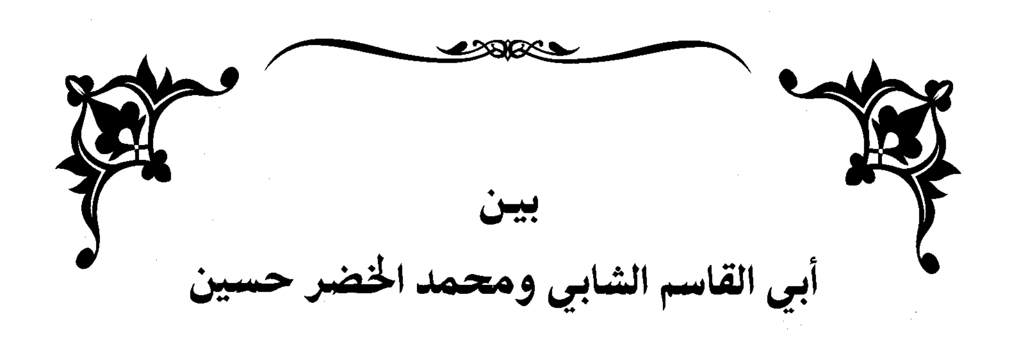
ومن منطلق الغير الدينية أيضاً، رأينا الشيخ يرد على الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦.

وقد ردَّ الشـيخ الخضر حسين رداً تفصيلياً على كل ما جاء في كتاب الدكتور طه حسين، مؤكداً أنه لا يعارض المؤلف في انتهاج الأسلوب الذي يريد في بحثه، بشرط ألاَّ يكون في ذلك مساس بالدين الإسلامي، وانحراف

عن الحقيقة، وبيّن أن منهج الشك ليس جديداً، فقد ذهب إليه الغزالي، وابن خلدون قبل ديكارت.

وقد نال كتاب الشيخ الخضر حسين «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» تقدير عدد من علماء الإسلام المعاصرين، والأدباء العرب البارزين في ذلك الوقت؛ لما اشتمل عليه من نقاش موضوعي، ولما قدمه من حجج لغوية وتاريخية.





بين
أبي القاسم الشابي ومحمد الخضر حسين

البشير العريبي[1]

ظاهرة غريبة ـ وإن كانت بسيطة ـ تلاحظ في بعض إنتاج الأديبين التونسيين الكبيرين: أبي القاسم الشابي، ومحمد الخضر بن حسين.

وقبل بسط هذه الظاهرة تجدر الإشارة إلى حقائق تبدو ذات ارتباط بها، بل هي كالممهدة لها، والمؤذنة بها، وأخص ما فيها أنها ـ كلها ـ قدر مشترك بين الأديبين.

أولى تلك الحقائق: أن كلاً من الرجلين أصيل الجنوب الغربي التونسي المعروف باسم: (بلاد الجريد).

فالشابي ينتسب إلى «الشابية» من ضواحي «توزر».

وابن الحسين ينتسب إلى «نفطة»، وهي من نفس المنطقة «ولاية توزر».

وثانية الحقائق: أن كليهما يصدر عن بيت علم وصلاح وتصوف، كما أن كليهما كانت له ـ تبعاً لذلك ـ اهتمامات بالعلم والفكر، والأدب شعره ونثره:

فالشابي جده: (سيدي عرفة الشابي).. وأبوه كانت له رحلة في طلب

---

(١) كاتب تونسي. جريدة «الصباح» الصادرة بتاريخ ٢١/٣/١٩٩٥م، تونس.

العلم؛ حيث تخرج من الجامع الأزهر، وقد ولي بعد عودته إلى البلاد التونسية منصب القضاء الشرعي في مناطق متعددة يعرفها كل من تابع حياة أبي القاسم وتنقلاته.

والشابي نفسه درس بجامع الزيتونة الأعظم، وتخرج منه بشهادة (التطويع)، وانتسب إلى (دروس الحقوق الفرنسية) التي كانت شعبة من التعليم العالي، مهدت لقيام (كلية الحقوق).

وابن الحسين جدّه (سيدي الحسين)[1] الذي كان معروفاً في حياته بالإصلاح، وأنشأ له مريدوه بعد وفاته (زاوية) كانت قائمة الذات قبالة (سيدي عبدالله) على مرتفع كان يقع في الجانب الشرقي لكلية الآداب بتونس اليوم، وقبره في تلك الزاوية كان يزار..

والشيخ الخضر نفسه كان من علماء جامع الزيتونة، وممن تولوا القضاء الشرعي بإحدى مناطق البلاد التونسية «بنزرت».

كما التحق بعد ذلك بالمشرق العربي الإسلامي، واستقر ـ كما هو معلوم ـ بمصر، وأصبح من كبار علماء الأزهر الشريف، بل وولي مشيخة الجامع الأزهر في مطلع ثورة ٢٣ جويلية ١٩٥٢ المصرية.

وثالثة الحقائق يمكن استخلاصها من ثانيتها، وهي: ميل الرجلين وعائلتيهما إلى توثيق الصلة ببلاد المشرق، والتعامل مع الإخوة الشرقيين كالتعامل مع مواطنيهم التونسيين.

فقد ذكرنا أن والد أبي القاسم الشابي درس بمصر، وتخرج من الأزهر.

---

(١) الصحيح: والده سيدي الحسين، وجده سيدي علي بن عمر دفين «طولقة» في الجزائر.

ونعرف أن أبا القاسم نفسه كون صلات أدبية قوية بأدباء المشرق، وخاصة مصر، وفي مقدمتهم: (جماعة أبولو) التي كان يتزعمها الشاعر الشهير (أحمد زكي أبو شادي) الذي أصدر أول مجلة شعرية عربية تحمل عنوان (أبولو)، على صفحاتها ظهر شعر الشابي، وكان لها أكبر الفضل في تعريف قراء العربية به على نطاق أوسع من النطاق التونسي الصرف، مما أنشأ لسمعته رصيداً ملحوظاً.

وأكثر من ذلك، فإن أحمد زكي أبا شادي كان صاحب مجموعات شعرية متعددة، ولعله أول شاعر عربي معاصر يصدر شعره في مجموعات بدل ديوان واحد. ومن تلك المجموعات: ديوان بعنوان «الينبوع» الذي كان صدر مصدراً بمقدمة كتبها أبو القاسم الشابي.

ولنتصور أبعاد هذا الموقف، وأي معنى يحمله: زعيم مدرسة شعرية متطورة، يبشر بها عن طريق مجلة ينشئها خصيصاً لذلك، يضع ثقته في شاعرنا التونسي؛ ليتولى تقديمه إلى قرائه في ديوان من أهم دواوينه.

ذكرنا ـ أو أشرنا ـ إلى أن محمد الخضر بن الحسين قد ارتحل إلى المشرق، ونذكر أنه تنقل بين مختلف أجزائه، وقام في كل منها بنشاط يستحق الذكر، في «الآستانة» «تركيا»، وفي «دمشق» إذ أقام حيث أقام بعض أفراد أسرته، وخصوصاً الشيخ زين العابدين بن الحسين. ثم استقر به المقام ـ كما سبق ـ في مصر التي أصبح فيها قطباً من أقطاب العلم والأدب والاجتماع، مما لا يتسع المقام لبسطه، وتسنَّم أعلى المناصب الدينية واللغوية.

هذه بعض الحقائق التي ارتأينا بسطها قبل عرض الظاهرة الأدبية التي أومأنا ـ منذ البداية ـ إلى أنها تجمع بين أديبينا: الشابي، وابن الحسين، بصفة

توشك أن تكون متعمدة، حتى كأن كلاً منهما يترصد خطا الآخر فيها، سواء في الشعر، أو في النثر، رغم ما بينهما من الفوارق، في التوجه الأدبي، والمنزع الشخصي:

فأبو القاسم الشابي كان ممتلئاً شباباً، وميلاً نحو التجديد إلى حد الثورة، وتعاملاً مع حداثيي زمانه، وتأثراً بالأدب المهجري والأجنبي.

ومحمد الخضر بن الحسين كان شيخاً رصيناً، يتسم بالمحافظة، سواء عندما كان في تونس، أو عندما ارتحل عنها، وكان قوام معارفه: الدين، والأصالة اللغوية.

أقول هذا عن الشيخ الخضر، رغم علمي بأنه كان ـ هو الآخر ـ يحمل بذور الثورة، ولا مجال هنا للحديث عن أسباب هجرته من تونس، وهي وليدة ثورة عن موقفه في تركيا، وردود الفعل التي ترتبت عليها، أو عن مساهماته في النضال ضد المستعمرين.. ولكن يكفي أن أشير إلى أنه كان معنياً بإشاعة معاني التحرر الصحيح، ولا أدل على ذلك من كتابه الذي أصله محاضرة ألقيت بتونس، ودرس فيها بعناية معنى «الحرية في الإسلام».

وأخلُص إلى (الظاهرة) التي دعتني إلى الحديث عن الرجلين، فأقتصر هنا على ذكرها، وأفسح المجال أمام الآخرين ليبحثوا فيها، إن أرادوا، وقد أعود إليها في فرصة، أو فرص أخرى.

والظاهرة بسيطة في ذاتها، كما قلت من قبل، ولكنها تنم عن نوع آخر من الاشتراك بين أديبينا، اشتراكاً قد تكون بواعثه نفسية، أو بيئية، أو غير ذلك، رغم الفوارق التي ألمعنا إليها بينهما.

وتتجلى تلك الظاهرة من جهة: في إنتاجهما الشعري، وبالخصوص

في عنواني ديوانيهما، ومن جهة أخرى: في أثرين من إنتاجهما النثري.

أما في الشعر، فقد تعلق كل منهما بالحياة، ولكن على طريقته، فكان إحساس الشابي بالألم، ومعاناته للمرض، وتوْقه الذي لم يتحقق إلى لون معين من الحب، وشعوره العارم بأن الموت يلاحقه في كل مجال، والفناء يطارده بكل سبيل.. كل ذلك ولَّد فيه ردود فعل إيجابية مرة، وسلبية مرة أخرى، ولكن الإيجابية هي التي تغلبت؛ إذ جعلته يتحدى كل تلك العوامل المؤلمة، ومما عبر عنه أصدق تعبير ببيته الشهير الذي سمي به وبأمثاله: (شاعر الحياة):

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

وانعكس تحديه على ديوانه الذي اتخذ من الحياة جزءاً من عنوانه: «أغاني الحياة».

وقد كان لصاحبه ابن الحسين نظرات إلى الحياة، قد تتفق مع نظرات الشابي، وقد تختلف عنها في جوانبها الشخصية والاجتماعية والسياسية.. ولكنها تتفق معها على كل حال في: الإحساس بالظلم والضيم، والتمرد عليهما، والْتماس حياة أفضل في الداخل، وإلا، كان التماسها في الخارج، ويتفق مع الشابي خاصة في انعكاس نظراته تلك على ديوانه، الذي اتخذ الحياة، كصاحبه جزءاً من عنوانه: «خواطر الحياة».

وأما في النثر، فقد عالج الأديبان الكبيران ـ كل بطريقته أيضاً ـ موضوعاً واحداً، أعتقد أن البون كان فيه شاسعاً بينهما.. وهو موضوع (الشعر العربي)، وما له صلة به من (الخيال) الذي هو في اعتبار العرب القدامى والوسيطين عنصر أساسي لا يسمى الشعر بدونه شعراً.

ومهما كان ما بين الباحثين في هذا الموضوع من الاختلاف عميقاً وجوهرياً، فالذي يسترعي الانتباه فيه: اشتراكهما في عنواني كتابيهما إلى حد أنه يكاد يكون عنواناً واحداً.

فإذا كانت محاضرة أبي القاسم الشابي الشهيرة تحمل عنوان: «الخيال الشعري عند العرب»، فإن محمد الخضر بن الحسين له كتاب كذلك يحمل عنوان: «الخيال في الشعر العربي».

ترى أيكون هذا وسابقه كلاهما من باب الصدفة.. مجرد الصدفة؟ أم هناك تعمل وتعمد؟ فما بواعثه؟ وما مسماه وأبعاده؟

ولئلا نظلم أياً من الرجلين، نتساءل، ونحتفظ بالإجابة:

أي الأديبين أسبق إلى إعداد ديوانه، وإلى اختيار ما أزمع أن يطلقه عليه من تسمية؟

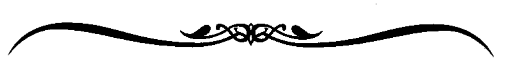
أي الرجلين أسبق عناية بالبحث في مدى توفر (الخيال) في الشعر الذي تناقلناه عن العرب أو عدم توفره؟

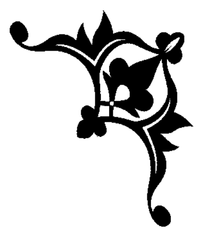
ثم ما الذي أثبته كل من الرجلين في بحثه؟ وما أدلته على ما وصل إليه من نتائج؟ وإلى أي حد كانا فيما عالجناه من ذلك متفقين، أو مختلفين، أو بين بين؟

الأسئلة التي يمكن أن تثار هنا كثيرة، والإجابات عليها قد تؤلف بحثاً مطولاً، رغم أن منطلقها بسيط ـ ظاهراً ـ كما سبق.

وعلى كل، فالموضوع يحتاج إلى دراسة جادة للكتابين، وإلى مقارنة واعية، وتحليل ودعم.







أعلام محمد الخضر حسين وخطابه الحداثي

الشاذلي الساكر[1]

*** الرجل العامل:**

ولد محمد الخضر بن الحسين (اسمه الأصلي: محمد الأخضر) ببلدة «نفطة» يوم (٢٦ رجب ١٢٩٣هـ الموافق لـ ٢١ جويلية ١٨٧٣م)، وهو من عائلة مشهورة بالعلم، فجده للأم هو الشيخ مصطفى بن عزوز، وخاله هو الشيخ محمد المكي بن عزوز الذي تلقى عليه مبادئ العلم.

قضى الخضر سنوات طفولته الأولى بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى تونس في العام ١٨٨٦م، أين واصل تعلمه الابتدائي، ثم التحق بجامع الزيتونة (١٨٨٧م).

وقد تأثر بجملة من العلماء المصلحين، من أبرزهم: سالم بوحاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد النجار.

في العام (١٣٢٢هـ - شهر أفريل ١٩٠٤م) أسس مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس، وبعد انقطاعها عن الصدور، تولى

---

(١) كاتب تونسي - جريدة «الحرية» العدد الصادر يوم الخميس ١٢ جوان - حزيران ١٩٩٧ - تونس.

خطة القضاء بـ «بنزرت» بتحفيز من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

بقي في خطته هذه بعض الأشهر، ثم استقال منها، وعاد إلى مدينة تونس، وباشر التعليم بجامع الزيتونة، وفي نفس الوقت أشرف على تنظيم مكتبة هذا الجامع، كما درّس في الصادقية وبالجمعية الخلدونية.

وكان من بين شيوخ جامع الزيتونة الأوائل الذين تزعموا حركة إصلاح التعليم بتأسيس جمعية (تلامذة جامعة الزيتونة) سنة (١٣٢٤هـ ـ الموافق لسنة ١٩٠٦م).

ثم زار الشيخ الخضر مصر، أين التقى بعدد من علمائها منهم: الشيخ (رشيد رضا)، ثم تجول في دول عديدة، منها: السعودية، وسوريا، وألبانيا، وبلاد البلقان، والآستانة، ثم استقر بدمشق أين تم انتدابه للتدريس بالمدرسة السلطانية.

أدخله جمال باشا السجن بدعوى التآمر، ثم أطلق سراحه بعد خمسة أشهر. بعدها تلقى صاحبنا دعوة من مركز الخلافة العثمانية للعمل منشئاً عربياً بوزارة الحربية، وقبل العرض. ثم تم تكليفه من طرف الباب العالي بمهام سياسية بألمانيا، مكث في هذا البلد نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد أتقن في هذه الفترة اللغة الألمانية.

بعد مدة وجيزة قضاها في سوريا، انتقل الشيخ إلى مصر، واستقر بالقاهرة بداية من عام ١٩٢٠م، وانطلق في التدريس وتحرير المقالات.

وبمعية الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر وثلَّةٍ من العلماء أسسوا (جمعية الهداية الإسلامية)، كما ساهم في إصدار مجلة «نور الإسلام»، وساهم في بعث (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة.

وقدم بحثاً موضوعه «القياس في اللغة»؛ لكي يتمكن من الانتساب لـ (جمعية كبار العلماء)، وهي أعلى هيئة علمية، وتم قبوله بالإجماع.

ثم تولى مشيخة الأزهر في سنة ١٩٥٢م، وقد زاره وزراء منهم: الشيخ حسن الباقوري وزير الأوقاف الذي بادره بالقول: «لقد وقع الاختيار عليك لتكون شيخ الأزهر، وقد جئت مع زميلي لنبلغك هذا القرار».

واصل الشيخ نشاطه الإداري والعلمي بالأزهر إلى العام ١٩٥٤م، ثم استقال من هذا المنصب مبرراً ذلك «بأن هذه الخطة حالت دون تلقي العلم وكتابته».

تابع نشاطه التربوي والثقافي إلى أن توفي في (١٣ رجب سنة ١٣٧٣هـ ـ ٢ فيفري ١٩٥٨م)، وقد نعى العالم الإسلامي هذا الشيخ العامل والعالم، وحضر تشييع جنازته عدد كبير من علماء المشرق والمغرب، ومن رجالات السياسة.

*** إنتاجه العلمي والأدبي:**

١ ـ «رسائل الإصلاح» (في ثلاثة أجزاء).

وهي ذات بعد تربوي، تعرض فيها إلى الخصال المحمودة التي يجب أن تتحلى بها المجموعة، حتى تسلم من التفكك، مؤكداً على ضرورة قيام العلماء بوظيفتهم؛ «لأن النهضة لن تقوم إلا بهم».

٢ ـ «بلاغة القرآن».

٣ ـ «تونس وجامع الزيتونة».

درس فيه عديد الجوانب التاريخية والحضارية والعلمية والأدبية بتونس، كما درس فيه عديد الأعلام من أمثال: ابن خلدون، مستنتجاً أن لتونس أعلاماً

هم في مقدمة العلماء الأدباء في تاريخ الحضارة الإسلامية.

٤ ـ «الحرية في الإسلام».

يؤكد فيه على أن الحرية لا تستقيم بدون تربية وتعليم، ولا تتواصل بدون مساواة.

٥ ـ «حياة اللغة العربية».

٦ ـ «العظمة».

٧ ـ «الخطابة عند العرب».

٨ ـ «علماء الإسلام في الأندلس».

يذهب فيه إلى أن سبب نهضة العلوم في الأندلس ترجع إلى عناية رجالات الدولة بالعلم، وشعورهم بأهمية العلماء في كل نهضة حضارية. ويذهب إلى أن علماء الأندلس هم في طليعة من حاربوا الآراء الفاسدة والبدع.

٩ ـ «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

١٠ ـ «نقض كتاب في الشعر الجاهلي».

١١ ـ «الدعوة إلى الإصلاح».

١٢ ـ «الخيال في الشعر العربي».

أرجع فيه أسباب جودة الخيال الشعري إلى عنصرين:

أولهما: «أن يعيش الشاعر في إطار حضاري؛ لكي تكون مخيلته أكثر إبداعاً في إنشاء المعاني وبلورتها».

آخرهما: الشعور بالحرية «ومن ذا ينكر أن الخيال الذي يسخره صاحبه

في كل غرض، سيطلق العنان في كل حلبة، يكون أبعد مرمى، وأحكم صنعاً من خيال الشاعر الذي حاصرته السياسة في دائرة، ورسمت له خطة لا يفوتها؟».

١٣ ـ «القياس في اللغة العربية».

١٤ ـ «محمد رسول الله».

١٥ ـ «خواطر الحياة» (ديون شعر).

١٦ ـ «الرحلات»، وتضم:

أ ـ الرحلة الجزائرية.

ب ـ خلاصة الرحلة الشرقية.

ج ـ (حديث عن رحلتي إلى دمشق).

د ـ الرحلة إلى ألمانيا.

١٧ ـ مجلة «السعادة العظمى».

كتب فيها بنفسه، كما كتب فيها كل المنتمين إلى حركة الإصلاح والتحديث، ومن بينهم: سالم بو حاجب، ومحمد الطاهر بن عاشور، ومحمد النجار، ومحمد النخلي.

وقد طلب المحافظون بتوقيفها عن الصدور، فرفض الوزير بوعتور ذلك قائلاً: «ما تنشره المجلة لا يعارض الشرع ولا القانون».

وقد تواصل صدور المجلة إلى شهر جانفي من العام ١٩٠٥م، ثم انقطع بعد ذلك وقد بلغت ٢١ عدداً.

*** فكرة الحداثي:**

نظر الخضر حسين في التراث الإسلامي من ناحية، وفي حضارة اليوم

من ناحية ثانية نظرة معتدلة حكَّم فيها عقله، فلم يتعصب تعصباً غير مشروط للتراث رامياً وراء ظهره ما جاءت به الحضارة من إيجابيات، كما أنه لم يهتز لهذه الحضارة وكأنها كلها الخير والتقدم، متناسياً منجزات الحضارة الإسلامية، وما جاءت به من إيجابيات:

١ ـ لم يناد بالتقوقع على الذات، والتغني بما فات، كما أنه لم يناد بالتحديث المجحف، كان موقفه موقف المعتدل، وقد عبر عنه بقوله: «يقع في وهم من لا يدري ما الإسلام: أن شريعته لا توافق حال العصر الحاضر، ويبني توهمه هذا على أن القوانين إنما تقوم على رعاية المصالح، ومصالح العصور تختلف اختلافاً كثيراً، فالدعوة إلى بقاء أحكامها نافذة هي دعوة إلى خطة غير صالحة، ذلك ما نقصد إلى تنفيذه، وتفصيل القول في دفع شبهته، حتى يثبت بالدليل المرئي رأي العين: أن الشريعة الغراء تساير كل عصر، وتحفظ مصالح كل جيل».

دعوة الخضر حسين هي أولاً: دعوة ضد الجمود والتعصب، والاكتفاء بالدوران في حلقة مغلقة، وثانياً: هي دعوة للاهتمام بقضايا العصر، والتفتح على الحضارة، بدون التفريط في مقوماتنا، وشخصيتنا الأساسية التي تميزنا عن غيرنا.

يقول: «وإن تعجب، فعجب ما يتخيله بعض من رُبي في مهد الجمود من أن هذا الدين القيم لم يرشد إخوانه إلا إلى العبادات المحضة، وأنه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية».

هي دعوة إلى التوازن شعارها: (لا إفراط في الحداثة، ولا تفريط في التراث).

وبالتالي لم يكن مناصراً للمحافظة في كل شيء، أو مخالفاً للمصلحين في كل شيء، بل وقف موقفاً توفيقياً، فقد كان يوافق القائلين بالتراث بالتمسك بالثوابت والقيم التي جاء بها الإسلام، وكان يوافق القائلين بالحداثة في فتح باب الاجتهاد، وتوظيفه قصَد تمكين العالم الإسلامي من مسايرة ركب الحضارة والتقدم.

وهذا ما كان يفعله عندما كان يدرس الفقه والتفسير وعلم الأصول، لم يكن مجرد ناقل لأقوال الأئمة والعلماء، بل كان يناقش كل نظرياتهم، ويرجح ما يراه أقرب إلى المنطق، وإلى مسايرة العصر.

٢ ـ يرى أن النهضة لن تكون إلا بالتربية والتعليم، وبمكافحة البدع التي هي ضد القيم «وإلى المزاعم الباطلة، وربط قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح»، وإلى مسايرة حضارة اليوم، والاستفادة من علومها وتقنياتها، مع الاستغناء عن سلبياتها وسقطاتها. يقول: «نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء، رائعة الطلاء، محمودة العاقبة».

وقد أكد على أن سبب انحطاط المسلمين، وتخلفهم عن ركب الحضارة، يكمن في التعليم، «وتهاون العلماء والحكام في التمسك بذلك والأخذ به».

كما أكد أن سعادة الأمة الإسلامية لن تتوفر إلا بالتعليم، وأن التوازن الاجتماعي والسياسي لن يحصل إلا به، وأنه يصعب على القادة تركيز هذا التوازن إذا كانت الأمة جاهلة؛ لأنه «يصعب على قادتها متى أرادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة أن يجدوها لينة القيادة خفيفة».

وأكد أن الأمة لن تنهض بالتعليم العلمي وحده، بل لا بد من توفر التربية، يقول: «سعادة الأمة أن تستنير عقولها، وتسمو أخلاقها، أما استنارة

عقولها، فبإقامة معاهد كافية للتعليم، وأما سمو أخلاقها، فلتستقيم أعمالها، وتنتظم المعاملات بينها».

وقد أرجع أسباب جمود المد الحضاري الإسلامي إلى جمود التعليم، ويرجع هذا الأخير إلى جمود علماء الإسلام، وتحجر الأفكار عندهم، وعدم مسايرتهم لروح العصر، «فكان انزواؤهم وزهدهم في الإرشاد العام فرصة لظهور الدعايات المنحرفة عن الطريق المستقيم، وهكذا فإن انحطاط العلماء نتج عنه انحطاط العالم الإسلامي».

والتربية التي يريدها وينادي بها هي: تربية ترتكز على القيم الإسلامية، وعلى الأخلاق الفاضلة، والتي لا تجاري (إيمان العجائز)، والتعصب والانغلاق.

وهو يعتقد أن التربية الصحيحة هي التي تركز على الحرية «إن الأرض التي اندرست فيها أطلال الحرية، إنما تأوي الضعفاء والسفلة، ولا تنبت العظماء من الرجال».

والحرية عنده ترتكز على عاملين أساسيين، وهما:

- الشورى، وهو عامل سياسي.
- المساواة، وهو عامل اجتماعي واقتصادي.

وهو يرغب في تعليم منفتح على العلوم، والتقنية الحديثة التي شيدت حضارة اليوم.

وهكذا، فالخضر حسين يرى: أن كل تقدم حضاري يكمن في التعليم، وأن سعادة الأمة لن تتوفر إلا به، ولا يمكن أن ترقى أمة أغلب أبنائها غير متعلمين.

٣ ـ حارب كل مثبطات العقل والعلم، وأخطرها بالنسبة إليه: السلفية؛ سلفية الطرقية التي تصف نفسها بالصوفية، أو هي صوفية حقاً، والتي تعادي التربيـة ذات المنهـج العلمي والعقلي؛ لأن هدفهـا هو (ترويض مريديها)، والسيطرة على سلوكهم بواسطة الترهات والأوهام لكي تصير منهم كائنات خانعة قانعة خاضعة خائفة متقوقعة على نفسها، تعيش في عالم سحري مشبع (بالخوارق)، و(الكرامات) التي نسجتها (الإسرائيليات) لغايات أيديولوجدية بحتة، متشبعة بأفكار ونظريات هي أبعد ما تكون عن الدين (ما جعل المسألة خطيرة، وتبعة السكوت عنها غير هينة؛ لأن مثل هذه الطرق تمس الإسلام، وتلصق به وصمة تجعل بينه وبين الجاهلين حجاباً كثيفاً)؛ لأن مثل هذه الطرق تقتل مبادرات العقل، بل تقتل العقل ذاته.

٤ ـ وقد تفطن إلى الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام من صحف ونشريات، وكذلك إلى الدور الذي تلعبه النوادي والجمعيات، وهذا الدور بالإمكان أن يكون سـلبياً، لكنه يكون إيجابياً حتمـاً إذا تحمل مسـؤولية هذه الصحـف والجمعيات العلماء الذين تتوفر فيهم الشروط التالية:

أولاً: أن يكونوا على بيّنة مما يقومون به.

ثانياً: أن يتميزوا «باستقامة السيرة؛ لأن الناس لا يقتدون برأي مرشد، ولا تلين قلوبهم لموعظة واعظ، إلا إذا وثقوا بأمانته، وأبصروا حالته الظاهرة مثالاً لما ينصحهم».

ثالثاً: قدرتهم على التأثير، وتمكنهم من العلوم الإنسانية؛ مثل: علم النفس، والعلوم الموازية، والرافدة، والممارسة، ويؤكد «إلى ضرورة مراعاة أذواق المخاطبين باللسان أو بالقلم، ودرجاتهم الثقافية، وأحوالهم النفسية».

رابعاً: استعمال الطرق والوسائل التي تتماشى مع «نفسية الأفراد والجماعات، والحالات التي تكون فيها».

خامساً: التحلي بالصبر، وتحمل المكاره.

٥ ـ يعتقد أن اللغة هي الركن الأساسي لكل نهضة حضارية، ولكل تفوق مدني، «هذا بالنسبة لكل اللغات، فما بالك باللغة العربية التي كان لها الفضل الكبير في تأسيس الحضارة العربية؟ هذا من ناحية، ثم إن اللغة هي أداة الربط والاتصال بين أفراد المجتمع، وعاملٌ من عوامل وحدته وترابط أجزائه؛ لأنه «متى أهملت الأمة لغتها، وزهدت في تعلمها، انفصمت عرا جامعتها لا محالة».

كما شدد على أن اللغة العربية قادرة على مسايرة حضارة اليوم، وقادرة على استيعاب حاجات المدنية الحديثة، ولأن القضية بالنسبة إليه ليست قضية لغة، بل قضية أصحابها، تأخروا، فتأخرت.

ونوه بقدرتها على الاقتباس من اللغات الأخرى «تتلقى العربية ما يرد عليها من الألسنة الأخرى، وتقبله بقبول حسن بعد تنقيحه وسبكه في قالب عربي، فلا مانع من أن نقتبس أسماءها الموضوعة لها في اصطلاح مخترعيها عند استحسانها، ونهذبها، ثم نحشرها في زمرة ما هو عربي فصيح».

وقد نبه إلى خطر اللهجات الدارجة على اللغة العربية، مع اعتقاده أن (لغة العامة) هي لغة عربية محرفة في حالة مرض «يجدر السعي إلى معالجتها وإصلاحها».

٦ ـ يقول: بضرورة أن يقوم علماء الأمة بدورهم السياسي المتمثل في قولهم كلمة الحق، «ولا ينبغي لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب

والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم، حتى إذا أبصروا عوجاً، نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقاً مهملاً، لفتوا أنظارهم، وأعانوا على إقامته».

«ومن واجب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم في سبيل النصيحة من مكروه، وكم من عالم قام في وجه الباطل، فأوذي، فتجلد للأذى!».

*** مصادر محمد الخضر حسين:**

أ ـ ديوان شعره «خواطر الحياة» الذي افتتحه بتوطئة تعرض فيها إلى أبرز محطات حياته، وإلى أهم مشاغله العلمية والعملية.

ب ـ رحلاته، وهي:

١ ـ «الرحلة الجزائرية» نشرت بمجلة «السعادة العظمى» (أعداد ١٩ ـ ٢٠، و٢١).

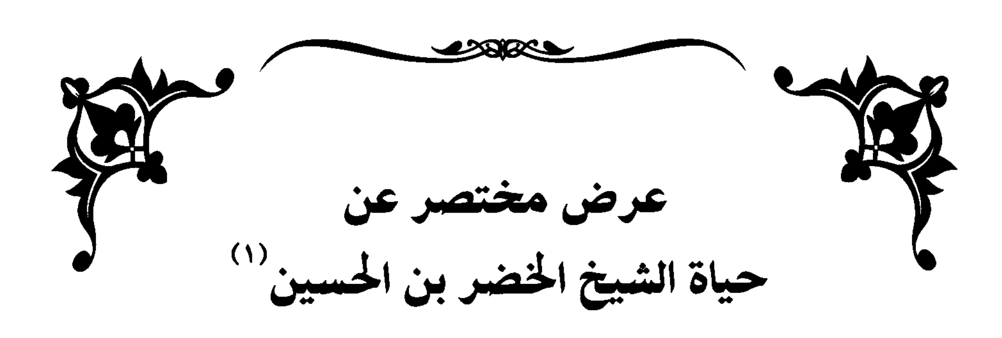
٢ ـ «خلاصة الرحلة الشرقية»، نشرت بجريدة «الزهرة» مارس وأفريل ١٩١٣م.

٣ ـ «حديث عن رحلتي إلى دمشق» نشرت بالجزء الخامس من المجلد العاشر (جانفي ١٩٣٨م) ـ مجلة «الهداية الإسلامية».

هذه الرحلات تلقي أضواء كاشفة على نشاطه التربوي والعلمي والإعلامي، كما تمدنا بمعلومات قيمة عن حياته في الأقطار التي زارها.

ج ـ نتاجه العلمي والأدبي.

من محاضرات ورسائل وبحوث وجدال مذهبي، وقد خصصنا القسم الثاني من هذا البحث لمسحها، ولعرض أهم طروحاتها.



عرض مختصر عن حياة الشيخ الخضر بن الحسين[1]

محمد بلقاسم خمار
رئيس اتحاد الكتاب العرب الجزائريين

«طولقة» هذه المدينة الأصيلة في حضارتها، العريقة في تاريخها، الجميلة بظلالها، ومياهها، وثمارها، المتمسكة بإيمانها وقيمها وتقاليدها السامية. طولقة هذه الواحة الوارفة الرائعة كانت ولم تزل موئلاً للعلم، وملتقى للمآثر، وجامعة للإسلام، منبتاً للرجال المتفوقين فكراً وتقى، سلوكاً وأخلاقاً. . وصدق من قال: لا تنبت الأرض الطيبة إلا طيّباً. . وبالفعل فإن من مثل هذه الأرض الطيبة كانت الجزائر تبني تاريخها الثقافي المجيد، وتعلي راية فخرها بين الأمم والشعوب، وتفيض عبقريات، ورسالات، وجهاداً؛ لتغمر أشقاءها وجيرانها إصلاحاً وخيراً، ولتعمر العالم أمناً وحبّاً وسلاماً.

في هذه الأرض المباركة؛ انطلقت منابع العلم والتقى، ومن هذه الأرض المباركة تزودت أجيال وأجيال بكنوز معارفها، وسلاح حصانتها، ورسوخ مبادئها، ومن هذه الأرض المباركة أضاءت شموس نيّرة في أهم العواصم العربية والإسلامية؛ كتونس، والقاهرة، ودمشق، وإسطنبول،

(١) مجلة «الثقافة» مجلة فكرية تأسست في دمشق عام ١٩٥٨م. العدد الصادر في (ربيع الثاني ١٤١٨هـ ـ آب ١٩٩٧م)، دمشق.

وما زالت أشعتهم ساطعة دافئة قوية حتى اليوم.

لقد كانت الروابط الوحدوية ـ التي تجمع بين أبناء المغرب العربي منذ القدم ـ روابط قوية متينة، جمعتها القرابة والنسب، ولحمتها العقيدة واللغة، وصقلتها التجارب التاريخية، والآلام والآمال المشتركة، وأكدتها الأرض والجوار، فلم يكن هناك فرق بين مراكشي أو جزائري أو تونسي أو ليبي، كلهم في مشاعرهم ومصائرهم سواء، رغم ما طرأ من اختلاف عليهم في أنظمة الحكم التي سادت أقطارهم خاصة منذ احتلال فرنسا للجزائر في بداية العقد الثالث للقرن التاسع عشر.

ودعماً لذلك أرى من المهم أن أثبت ما قاله الشيخ عبد الحميد بن باديس، عندما تكلم عن وحدة أبناء المغرب العربي، قال ـ رحمه الله ـ: حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ، وجدنا هذا المغرب العربي: طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش، يرتبط بروابط متينة روحية ومادية، تتجلى في وحدته للعيان، ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن التاريخ القديم، وإنما نريد أن نعرض صفحة من التاريخ الحديث الجاري.

ويذكر رائد النهضة الجزائرية الإمام ابن باديس كيف أن أبناء المشرق العربي ينسون، أو يتجاهلون أبناء المغرب العربي، مع أننا دائماً نمدهم بخيرة ما عندنا من رجال السيف والقلم؛ كالأمير عبد القادر الجزائري وأبنائه الشهداء من أجل سورية، وأحفاده؛ مثل: الأمير خالد، ويسترسل في عرض أسماء بعض الأعلام؛ كسليمان باشا الباروني الطرابلسي، والشيخ السنوسي الطرابلسي الجزائري الأصل، والشيخ طاهر الجزائري الأصل، والشيخ عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس، الجزائري الأصل، والشيخ الخضر حسين التونسي الأصل، وغيرهم

من أقطاب المعرفة والعلم.

من المعلوم أن الكثير من أبناء الجزائر كانوا يتوجهون إلى (القرويين) في المغرب، أو (جامع الزيتونة) في تونس، أو إلى (الجامع الأزهر) في القاهرة؛ لطلب العلم، والاستزادة من المعارف، خاصة بعد أن دبّ الضعف في كتّاب الحكم العثماني، واستُعمرت الجزائر من طرف فرنسا، مما أثر في مسيرة نهضتها العلمية التي حوربت بشتى الوسائل والأساليب.

ومن المعلوم أيضاً أن الجزائر قد مدّت المغرب والمشرق العربيين بالكثير الكثير من العباقرة والعلماء، أولئك الذين حوصروا في آرائهم وعقائدهم، وحرموا من أداء أماناتهم العلمية، وواجباتهم الإسلامية، ومُسوا في كرامتهم وحرياتهم، فاتجهوا إلى ديارهم الأخرى في المغرب أو المشرق، يدافعون عن الشريعة، ويدعون إلى الإصلاح، وينشرون العلم، ويجاهدون في سبيل الله من أجل وحدة العرب والمسلمين، لا فرق بين قطر أو قطر، ولا بين مسلم ومسلم، إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ومن بين هؤلاء الجزائريين المهاجرين: الشيخ مصطفى بن عزوز، جدّ الشيخ الخضر لأمه، ثم الشيخ الحسين بن علي بن عمر والد الشيخ الخضر، وقد كان من مريدي الشيخ مصطفى بن عزوز، حيث التحق بالشيخ ابن عزوز إلى بلدة «نفطة» في منطقة الجريد التونسي، وتزوج من ابنته والدة الشيخ الخضر، وقد أسس الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي في «نفطة» عندما هاجر إليها مع عدد كبير من أتباعه سنة ١٨٣٧م، أسس زاويته المشهورة، المشتملة على عدد كبير من المساكين لإيواء الواردين عليه من كل صقع، وأحدث بها مدرسته الحافلة، وأنشأ بها بيوتاً لسكنى المنقطعين لقراءة القرآن،

وتعلم العلم، وحشد لها العلماء والأعلام من كل جهة؛ ليدرسوا بها فنون العلم على اختلاف مشاربها.

ويبدو أن زاوية ابن عزوز في «نفطة» كانت فرعاً من الزوايا الكبرى في «طولقة»، و«البرج»، والتي تنتسب إلى الطريقة الرحمانية. . وكانت زاوية طولقة تعرف عندنا بالزاوية العثمانية، وبزاوية (سيدي علي بن عمر)، وقد ملأت شهرتها آفاق العالم الإسلامي، وذلك لما جمعته من علم وعلماء، وطلاب ومريدين، وكرم وزهد، وتقى، بالإضافة إلى مكتبتها العامرة.

وفي هذا الجو العائلي، المفعم بالعبادة، وحب العلم، وبالجلال والهيبة والوفاء، ولد الشيخ الخضر بـ «نفطة» سنة ١٨٧٣م، داخل أسرة متمكنة من تعاليم الشريعة الإسلامية، مستنيرة بآدابها، متمسكة بتقاليدها وأعرافها السامية، حيث كان جده لأمه الشيخ مصطفى بن عزوز يشغل مكانة القطب فقهاً وتديناً، ويعتبر شيخاً وزعيماً كبيراً بين أتباعه ومريديه، وكانت والدته بنت الشيخ ابن عزوز على جانب كبير من الثقافة والتعليم وقوة الشخصية، وكان خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز عالماً جليلاً، متبحراً في أصول الشريعة واللغة والآداب، وكان والده الشيخ الحسين بن علي بن عمر فقيهاً تقياً زاهداً، وقد توفي وكان ولده الشيخ الخضر ما زال صغيراً.

في هذا الجو العائلي المهيب قضى الشيخ الخضر بن الحسين طفولته الأولى؛ حيث حفظ القرآن الكريم برعاية مؤدبه الخاص الشيخ (اللموشي)، وأخذ مبادئ بعض العلوم الفقهية واللغوية والأدبية على عدد من العلماء في زاوية جدّه، وكان في مقدمتهم الشيخ محمد المكي خال الشيخ الخضر، والذي أحب ابن أخته حباً عميقاً، وتوسّم فيه مستقبلاً زاهراً، فمنحه عناية كبرى،

وأشـرف على توجيهه وتعليمه وتثقيفه، وكان الشيخ الخضر يعترف بذلك، ويذكره باعتزاز في أكثر من مناسبة، ومنها قوله: «من أعزها ما تشرفت به من قلم أستاذي الذي شبّت في طوق تعليمه فكرتي، وتغذيت بلبان معارفه من أول نشـأتي، العلامة الهمام القدوة، خالنا الشـيخ سـيدي محمد المكي بن عزوز».

وفي سنة ١٨٨٦م انتقلت عائلة الشيخ الخضر من «نفطة» إلى تونس للإقامة الدائمة، ويبدو أن سبب هذا الانتقال يعود إلى رغبة والدة الشيخ الخضر في أن يواصل أبناؤها تعليمهم في جامع الزيتونة الذي كان محطة أنظار طالبي العلم. وأن يتعمقوا في معارفهم وعلومهم خاصة، منهم: الشيخ الخضر الذي كانت تلوح منه سمات الذكاء والتفوق منذ صغره، والذي بدأ يقول الشعر وهو في الثانية عشرة من عمره، وكانت والدته تتوسم فيه العظمة والنجاح، وتغني له وهو صغير قائلة:

يـــــا رب الأكبــــــــر خلّيلـــي محمـــد الأخـــضر

فــــي الجـــامع الأزهـــــر يعـــود يقـــرّي وأنـــا حيّـــة

التحق الشيخ الخضر بجامع الزيتونة وهو في الرابعة عشرة من عمره؛ أي: بعد سنة من استقرار عائلته بتونس.

وبعد إحدى عشرة سنة من الدرس والجهد والتحصيل في علوم الدين واللغة والأدب، وهي المواد التي كانت متداولة بصفة عامة في جامع الزيتونة لذلك الوقت، وبواسطة علماء بارزين، ومن بينهم: الشيخ المكي بن عزوز، بعد هذه المدة تحصَّل الشيخ الخضر على شهادة (التطويع)، وهي شهادة يستطيع حاملها أن يكون مدرساً في جامع الزيتونة، أو أن ينال مناصب علمية أو

دينية في الوظيف، وقد فضل الشيخ الخضر التفرغ للعلم، واختار أن يكرس حياته للتعليم والتثقيف، والتزود بمختلف المعارف، والتعمق فيها، لذلك انخرط في سلك المدرسين بجامع الزيتونة، وفي الوقت نفسه تابع تحصيله بالمطالعة الجادة، وحضور الدروس الهامة، إلى أن تسامت مكانته، وارتفع شأنه بين أقرانه، وأصبح مضرب المثل في اتساع الباع، وقوة الحجة، وبلاغة المنطق، ورجاحة العقل، وجاذبية الشخصية التي كان يتميز فيها بهدوء الطبع، والتواضع، والتقى، وبالروح الأدبية المرحة.

حصل الشيخ الخضر على (التطويع) سنة ١٨٩٨، وفي سنة ١٩٠٤، أسس مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة عربية تظهر في تونس، وكان يحرر أغلب مقالاتها، وينشر فيها مختلف المواضيع المتعلقة بالشريعة والأخلاق، واللغة والآداب، والتفسير، والفتوى، والرحلات، إلى غير ذلك من المواضيع الهادفة إلى إصلاح المجتمع، وترقية المسلمين.

وقد توقفت هذه المجلة عن الصدور سنة ١٩٠٥؛ أي: بعد سنة من تأسيسها، وذلك لأسباب مادية، ولموقفها الحيادي بين صراعات العلماء المحافظين والمصلحين في تونس؛ حيث إنها كانت تعبر عن الاتجاه المعتدل لصاحبها، ولم تتورط في الذوبان لصالح فئة ضد أخرى.

وعلى أثر توقف مجلة «السعادة العظمى» تولى الشيخ الخضر منصب القضاء ببنزرت، بتأثير صديقه الحميم الشيخ الطاهر بن عاشور، ولكنه استقال بعد شهور من ذلك المنصب، وعاد إلى التدريس في جامع الزيتونة، وكان في طليعة الداعين إلى إصلاح التعليم، ومن أوائل المؤسسين لجمعية (تلاميذ جامع الزيتونة) سنة ١٩٠٦.

ونشير إلى أن الشيخ الخضر كان قد قام برحلتين إلى الجزائر سنة ١٩٠٣، وسنة ١٩٠٤، زار فيها الأهل والأقارب، والتقى خلالها بعدد كبير من العلماء الأجلاء خاصة في «سوق أهراس»، و«عين البيضاء»، و«قسنطينة»، و«باتنة»، والجزائر العاصمة، كما سجل ذلك في كتاباته.

وربما يكون الشيخ الخضر قد قام بأكثر من رحلتين إلى الجزائر، خاصة عندما كان صغيراً، ويقيم في منطقة الجريد، ولا تفصله مسافة بعيدة من «طولقة». كما أن رحلاته من مصر إلى سورية كانت أكثر مما سجل وعرف عنها، فقد زار دمشق سنة ١٩٥٢، وزارها كذلك سنة ١٩٥٥، وتدخل كل تلك الرحلات في إطار خاص، ألا وهو زيارة الأهل والأقارب، سواء إلى «طولقة» لزيارة الأهل والأقارب، أو إلى «دمشق» لرؤية أخيه الشيخ زين العابدين وعائلته.

لقد اشتهر الشيخ الخضر بن الحسين خلال تواجده بتونس، وفي مطلع القرن العشرين، اشتهر بنشاطه الجم في مجالات الإصلاح الديني والاجتماعي، والدعوة إلى يقظة الشباب، وتكتلهم وتشجيعهم على الأخص بمختلف العلوم الحديثة، وممارسة فن الخطابة، والجرأة على قول الحق ومواجهة الصعاب.. اشتهر عنه هذا، إلا أن جانب الخوض في الصراعات السياسية ظل غير واضح إلى حد الآن؛ بسبب ما كان يتصف به الشيخ الخضر من هدوء ووقار، ومن تركيز على الجوانب الدينية الإصلاحية، والبحوث اللغوية والأدبية، غير أن هذا السلوك الظاهري لا ينبغي أن يكون الشيخ الخضر قد قام بأنشطة سياسية كثيرة، ولكن بأشكال وصور خفية ومتسترة، نتأكد من ذلك فيما كان يتمتع به من حساسية ووعي ووطنية صادقة.. ومن رفضه عضوية المحكمة التونسية الفرنسية، ومن مشاركته الفعالة للتنديد بالحملة الاستعمارية الإيطالية

ضد ليبيا سنة ١٩١١، ودعوة أبناء المغرب العربي لمساعدة إخوانهم الليبيين، وكذلك من مضايقة السلطات الاستعمارية الفرنسية، ومناوأة أتباعها؛ مما دعاه إلى الخروج من تونس، والهجرة إلى سورية سنة ١٩١٢.. ونتأكد أيضاً من اهتماماته السياسية فيما كان ينشره أو يقوله من نثر وشعر، ومن ذلك ما جاء في قصيدته الداعية إلى نصرة ليبيا حيث يقول فيها:

ردّوا على مجدنا الذكر الذي ذهبا ... يكفي مضاجعنا نوم دهى حقبا

ولا تعود إلى شعب مجادته ... إلا إذا غامرت همّاته الشهبا

وهي قصيدة عظيمة، منشورة في ديوانه: «خواطر الحياة».

إذن، فالشيخ الخضر - بالإضافة إلى شخصيته الدينية العلمية الأدبية الغالبة - كان يعيش أحداث وطنه السياسية، وكان يسعى بأسلوبه الخاص إلى ضرورة التحرر من الاستعمار؛ بمحاربته، والتصدي له.

ولعل الدوافع التي أدت لخروج والده وجدّه من «طولقة» إلى «الجريد»، ثم إلى تونس، هي نفس الدوافع التي أدت بهجرة خاله وأستاذه الشيخ محمد المكي بن عزوز إلى تركيا، ثم بهجرة والدته الفاضلة مع إخوته إلى دمشق بسورية سنة ١٩١١، ثم التحاق الشيخ الخضر بهم سنة ١٩١٢، وهي دوافع لا تخرج عن مفهوم الابتعاد من مضايقة المستعمر، والبحث عن مناخ تتوفر فيه حرية طلب العلم، وحرية الحركة في ميادينه بكرامة واعتزاز.

كان للشيخ الخضر أربعة إخوة، وهم: الشيخ الجنيدي، وهو أكبرهم، وقد توفي في الجزائر، ويأتي بعده الشيخ الخضر، والشيخ العروسي، والشيخ المكي، والشيخ زين العابدين، ولهم ثلاث أخوات هن: ميمونة، وزبيدة، وفاطمة الزهراء، ومن المعروف أن كل أشقائه كانوا من العلماء الرجال الأفاضل،

ولهم مآثر قيمة في مجالات التدريس والتأليف.

وعندما هاجرت والدة الشيخ الخضر بأبنائها إلى دمشق، كان في استقبالهم عمنا الشيخ قدور خمار الذي كان قد سبقهم بالهجرة إلى تلك الديار سنة ١٩٠٩، وكانت تربطه بعائلة الشيخ الحسين بن علي بن عمر علاقة قرابة ونسب، حيث كانت شقيقته متزوجة من أحد أفراد عائلتهم بطولقة، ثم بعد ذلك تزوج عمنا من بنات الشيخ العروسي شقيق الشيخ الخضر.

نشير إلى أن الشيخ الخضر عندما التحق بعائلته في دمشق، قد عاد إلى تونس بعد خمسة أشهر تقريباً أمضاها في عدة رحلات إلى سورية ولبنان وتركيا، وقام خلالها باتصالات كثيرة، وأنشطة ثقافية هامة، ولكنه عندما عاد إلى تونس، لم يطب له المقام؛ للمضايقات والتحرشات الاستعمارية التي وجدها، بالإضافة إلى فراغ الجو العائلي الذي أحس به، فعاد إلى سورية بعد شهرين فقط من مكوثه، واستقر بها، بعد أن ترك زوجته التونسية التي رفض أهلها مرافقتها له، وتزوج من دمشق، واستقر بها.

وقد لقي الشيخ الخضر في سورية كل تكريم وإجلال، وتولّى التدريس بالمدرسة السلطانية التي درس بها قبله عدد كبير من العلماء، من بينهم: الشيخ الإمام محمد عبده، كما كان يلقي المحاضرات في الجامع الأموي وغيره من الأماكن المشهورة، وكان يلتف حوله عدد كبير من الشخصيات العلمية والسياسية البارزة، وفي طليعتهم أبناء الجالية الجزائرية في سورية، وأبناء وأحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، وذلك لطيب معشره، وارتفاع مكانته العلمية والعائلية، ولشهرته الواسعة التي كانت تعم البلاد العربية والإسلامية، خاصة بعد انتشار مؤلفاته، ومجلة «السعادة العظمى»، وكتب: «الدعوة إلى

الإصلاح»، و«الحرية في الإسلام»، وغيرهما.

كان الشيخ من المؤيدين للخلافة الإسلامية، المؤمنين بوحدة المسلمين تحت راية واحدة، ولكنه خلال تواجده في سورية، وفي بداية الحرب العالمية الأولى، كان لا يخفي ألمه وحسرته أمام مظاهر الضعف والانحلال التي كان يراها تدب في كيان الدولة العثمانية، لذلك عندما قام الوطنيون السوريون خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٦ ضد نظام الحكم العثماني، قام القائد التركي السفّاح جمال باشا بارتكاب مجزرته المشهورة في دمشق ضد رجال العلم والسياسة، فأعدمهم شنقاً، واتهم الشيخ الخضر بتعاطفه مع الوطنيين السوريين، وسجنه لمدة ستة أشهر، وكاد أن يعدم.

وبعد تبرئته وخروجه من السجن، استدعي من طرف الخلافة العثمانية للعمل في وزارة الحربية التركية ككاتب عربي بالآستانة، يشرف على المراسلات الواردة والصادرة من مركز الخلافة العثمانية إلى البلدان العربية والإسلامية المرتبطة بالدولة العثمانية، ثم أرسله الباب العالي بالآستانة في مهمة سياسية إلى ألمانيا التي كانت تربطها بتركيا علاقة تحالف محورية خلال الحرب العالمية الأولى، ورغم الغموض الذي ما زال لم يتضح تماماً حول مهمات الشيخ الخضر في ألمانيا، إلا أنها ـ في الغالب ـ تتعلق بموضوع الحرب، ولها صلة بقضية تحرير المغرب العربي، وزعزعة نظام الحكم الفرنسي فيه، ونجد في الوثائق: أن الشيخ الخضر كان قد اتصل في «برلين» بالزعيم التونسي محمد باش حامبه، كما يشارك في إمضاء التقرير الذي أرسلته اللجنة التونسية الجزائرية للدفاع عن المغرب العربي إلى مؤتمر الصلح المنعقد في فرنسا سنة ١٩١٧ تحت عنوان: (مطالب الشعب الجزائري التونسي).

وعند سقوط الدولة العثمانية في أيدي الحلفاء، عاد الشيخ الخضر إلى تركيا، ثم إلى سوريا، وكان يعاني من ألمين محزنين: سقوط الخلافة العثمانية، وموت والدته ـ رحمها الله ـ.

وظل في دمشق يفيض نشاطاً وإبداعاً، يكتب، ويحاضر، ويدرس، ويؤلف الكتب، ويلتقي بأصدقائه في جلسات مسامرة وأدب، وفي سنة ١٩١٧ تم تعيينه كعضو عامل في المجمع العلمي العربي بدمشق، وباختصار، فقد كانت السنوات الثمانية التي عاشها في سورية من أسعد مراحل حياته، ومن أزخرها نشاطاً وحركة وإنتاجاً.

وتشاء الأقدار أن يظل الاستعمار الفرنسي يتتبع بشبحه الرهيب مسيرة شيخنا؛ حيث احتلت سورية سنة ١٩٢٠ من طرف فرنسا، وكان دخولها إلى دمشق يحمل كل مخاطر التهديد والوعيد للشيخ الخضر، فما كان منه إلا أن يشد رحال السفر، ويهاجر إلى القاهرة عاصمة مصر.

صادف الشيخ الخضر بعض الصعوبات في مصر خلال المرحلة الأولى لإقامته فيها، ولكنه اعتمد على قوة علمه في شق طريقه بنفسه، والتفّ حوله أبناء المغرب العربي المتواجدين آنذاك بالقاهرة، فقام وأسس لهم جمعية (تعاون جاليات شمال إفريقيا)، وكان يدرّس في الجامع الأزهر، وينبري في كتاباته بالرد على المعارضين لمبدأ الخلافة الإسلامية، كما فعل في كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» رد على كتاب الشيخ علي عبد الرازق، وكذلك فعل مع الدكتور طه حسين في الرد عليه بكتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي». ووقعت بينه وبين الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» مشادات كتابية كبيرة، وأصبح الشيخ في مصر قبلة الأنظار، وكانت له المكانة السامية،

حتى لدى الملك فؤاد ملك مصر، واستقبله شخصياً.

ثم قام شيخنا مع بعض زملائه بتأسيس (جمعية الهداية الإسلامية) سنة ١٩٢٨، وهي جمعية لتوحيد كلمة الشباب من أجل خدمة المجتمع والأخلاق، والاتجاه الديني الإسلامي الصحيح، كما قامت هذه الجمعية بإصدار مجلة تحمل اسمها وهي مجلة «الهداية الإسلامية»، وقد ترأس هيئتها الشيخ الخضر نفسه، ثم تأسست بعد ذلك مجلة «نور الإسلام» الأزهرية، وقد أعطيت رئاسة تحريرها للشيخ الخضر؛ لما كان يمتاز به من عمق التجربة، وسعة الاطلاع، وعظمة المكانة العلمية والاجتماعية في مصر، وكان ذلك سنة ١٩٣٠. وفي سنة ١٩٣٣ عيّن الشيخ الخضر بمرسوم ملكي عضواً في المجمع اللغوي مع أول هيئة مؤسسة من مشاهير العلماء في العالم.

ورغم زخارة النشاط العلمي والديني والصحفي الذي كان يقوم به الشيخ الخضر يومياً، فإن علاقته بأبناء المغرب العربي ظلت قائمة ومستمرة، وكان يقدم المساعدات والتسهيلات للمناضلين، والطلبة الوافدين إلى مصر، ثم قام أخيراً بتأسيس (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية) التي لم ينقطع نشاطها حتى قيام مكتب المغرب العربي بالقاهرة.

وفي سنة ١٩٥٠ اجتاز الشيخ الخضر امتحاناً علمياً صعباً، وتفوق فيه تفوقاً باهراً، وأحرز بامتياز على درجة الانتساب إلى (هيئة كبار العلماء)، وهي هيئة لا يصل إليها إلا المتحصلون على أعلى مراتب العلم والثقافة.

وفي سنة ١٩٥٢ اختير العلامة الشيخ الخضر لتولي منصب مشيخة الجامع الأزهر، فامتنع عن ذلك؛ نظراً لحساسية المهمة وخطورتها، وهو منصب لم يتوله غير مصري من قبل، ولكنه قبل به بعد إلحاح أصدقائه، ووفد

الوزراء الذي زاره في منزله، وعرض عليه المهمة. وبعد تسييره لشؤون جامع الأزهر مدة سنتين، قدم استقالته؛ نظراً لكبر سنه، واعتلال صحته، وقد جاوز عمره الثمانين، وقد أمضى في التدريس بالأزهر أكثر من عشرين سنة، وأمضى عمره كله في الكد والجهد، والبحث والتنقيب، والحل والترحال، والكتابة والتأليف، بحيث لم يمض يوم واحد من عمره إلا وكان له فيه إبداع أو شعاع.

وفي يوم الأحد ١٣ رجب ١٣٧٧هـ انتقل الشيخ محمد الخضر بن الحسين إلى جوار ربه عن سن يناهز الخامسة والثمانين سنة أمضاها جهاداً في سبيل الإسلام والعلم، فرحمه الله، وطيب ثراه. وقد دفن بالقاهرة في مقبرة آل تيمور بوصية منه إلى جوار صديقه الأستاذ أحمد تيمور باشا الذي كان يكنّ له كل الود والتقدير والوفاء.

وبعد:

هل تراني قد قدمت صورة واضحة عن حياة الشيخ الخضر بن الحسين..؟ لا أعتقد ذلك.. ومهما فعل الكاتب مثلي لا يستطيع أن يلم بجوانب حياة حافلة بالمآثر لأكثر من نصف قرن، ولرجل كرّس كل أيامه للجهاد والاجتهاد في مختلف ميادين البلاغة والأدب، وأصول الشريعة، والذود عن الإسلام وعن الوطن بالكلمة والقلم، وبالحجة والحق، وبالشجاعة والصراحة، وبكل ما أوتي من قوة في الفكر والروح والبدن.

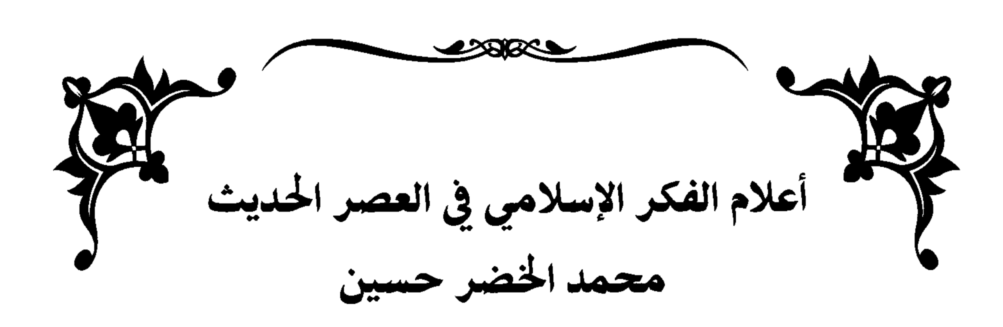
وقد ترك ـ رحمه الله ـ آثاراً كثيرة مطبوعة، أذكر منها الكتب التالية: «أسرار التنزيل»، «بلاغة القرآن»، «محمد رسول وخاتم النبيين»، «رسائل الإصلاح»، «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان»، «محاضرات إسلامية»،

«القاديانية والبهائية»، «دراسات في الشريعة الإسلامية»، «السعادة العظمى»، «هدى ونور»، «الرحلات»، «الدعوة إلى الإصلاح»، «تراجم الرجال»، «تونس وجامع الزيتونة»، «دراسات في العربية وتاريخها»، «دراسات في اللغة»، «الخيال في الشعر العربي»، «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، «خواطر الحياة»، وهو ديوان شعر.

كما أن للشيخ مخطوطات، وأشعاراً كثيرة، ما زالت لدى أقاربه أو أصدقائه، أو منشورة هنا وهناك في المجلات والصحف والمراسلات، لم تجمع وتنشر حتى الآن.

وأحسن ما اختتم به كلمتي هذه، هو: الدعوة إلى أن يخصص لقاء سنوي للشيخ الخضر بن الحسين، يكون على مستوى دولي عربي إسلامي، يجمع بين من كانوا على صلة به في مختلف أنحاء العالم، أو من لهم اهتمام به، وذلك لإعطائه بعض ما يستحق من الدراسة، والكشف عن شخصيته الفريدة من نوعها، والتي نعتز بها، ونرجو لها المزيد من التعريف والتكريم.





أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث
محمد الخضر حسين

أحمد تيمور باشا[1]

ولد الشيخ محمد الخضر حسين[2] بمدينة «نفطة» بالقطر التونسي في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣هـ، واشتغل بالعلم بعد أن حفظ القرآن، فقرأ بعض الكتب الابتدائية ببلده، وفي آخر سنة ١٣٠٦هـ رحل مع أبيه وأسرته إلى القاعدة التونسية، فدخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧هـ، وقرأ على أشهر أساتذتها، وتخرج عليهم في العلوم الدينية واللغوية، ونبغ فيها وفي غيرها. فطُلب لتولي بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته، لكنه أبى، وواظب على حضور دروس العلماء والأكابر؛ مثل: عمر بن الشيخ، والشيخ محمد النجار، وكانا يدرّسان

---

(١) ترجمة الإمام محمد الخضر حسين في كتاب «أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث» للمؤرخ والعلامة المحقق أحمد تيمور باشا. وطبعته لجنة نشر المؤلفات التيمورية ـ الطبعة الأولى (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م)، والتعليقات في الهامش من وضع اللجنة. . . .

(٢) كتب الإمام هذه الترجمة في حياة المترجم، وكان صديقه، وأوصى بأن يدفن إلى جواره، وقد أنشأ الشيخ الخضر جمعية «الهداية الإسلامية»، وأصدر مجلة لها، وعين عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وعضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم اختير شيخاً للأزهر في بداية ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وتوفي سنة ١٩٥٨م.

التفسير، والشيخ سالم بوحاجب، وكان يدرّس «صحيح البخاري».

ثم رحل إلى الشرق سنة ١٣١٧هـ، ولكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أياماً، فلازم جامع الزيتونة، يقيد ويستفيد إلى سنة ١٣٢١هـ، فأنشأ فيها مجلة «السعادة العظمى»، ولقي في سبيل بثّ رأيه الإصلاحي ما يلقاه كل من سلك هذا السبيل.

وفي سنة ١٣٢٣هـ ولّي القضاء بمدينة «بنزرت»، والتدريس والخطابة بجامعها الكبير. ثم استقال ورجع إلى القاعدة التونسية، وتطوع للتدريس بجامع الزيتونة، ثم أحيل إليه تنظم خزائن الكتب بالجامع المذكور. وفي سنة ١٣٢٥هـ اشترك في تأسيس جمعية زيتونية، وفي هذه المدة جعل من المدرسين المعينين بالجامع.

وفي سنة ١٣٢٦هـ جعل مدرساً بالصادقية، وكلف بالخطابة بالخلدونية.

ولما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين، كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة. ونشر بجريدة «الزاهرة» قصيدته التي مطلعها:

ردوا على مجدنا الذكر الذي ذهبا   يكفي مضاجعنا نوم دهى حقبا

ثم رحل إلى الجزائر، فزار أمهات مدنها، وألقى بها الدروس المفيدة. ثم عاد إلى تونس، وعاود دروسه في جامع الزيتونة، ونشر المقالات العلمية والأدبية في الصحف.

وفي سنة ١٣٣٠هـ سافر إلى دمشق ماراً بمصر، ثم سافر إلى القسطنطينية، فدخلها يوم إعلان حرب البلقان، فاختلط بأهلها، وزار مكاتبها، ثم لما عاد إلى تونس في ذي الحجة من هذه السنة، نشر رحلته المفيدة عنها، وعن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف.

ثم جعل عضواً في اللجنة التي ألفتها حكومة تونس للبحث عن حقائق في تاريخ تونس، ثم ترك ذلك لما عزم على المهاجرة إلى الشرق. فرحل إليه، ونزل مصر، وعرف بعض فضلائها، ثم سافر إلى الشام، ثم للمدينة، ثم للقسطنطينية، ثم عاد إلى دمشق معيناً مدرساً للّغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بها، وبقي كذلك إلى أن اتهمه مدة الحرب العظمى جمال باشا حاكم سورية بكتم حال المتآمرين على الدولة، واعتقله سنة أشهر وأربعة عشر يوماً، ثم حوكم، فبرئ من التهمة، فأطلق سبيله في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٢٥هـ.

ومن شعره في حبسه، وكانوا حالوا بينه وبين أدوات الكتابة:

غلّ ذا الحبس يدي عن قلم ... كان لا يصحو عن الطرس فناما

هل يذود الغمض عن مقلته ... أو يلاقي بعده الموت الزؤاما

أنا لولا همة تحدو إلى ... خدمة الإسلام آثرت الحِماما

ليست الدنيا وما يقسم من ... زهرها إلا سراباً أو جهاما

ثم استمر في التدريس بالمدرسة بدمشق، إلى أن دعي إلى القسطنطينية سنة ١٣٢٦هـ، فجعل منشئاً عربياً بوزارة الحرب، وواعظاً بجامع الفاتح، فبقي كذلك إلى سنة ١٣٢٧هـ، ففارق الآستانة، وعاد إلى دمشق، وقال في ذلك:

أنا كأس الكريم والأرض نادٍ ... والمطايا تطوف بي كالسقاة

ربَّ كأسٍ هوت إلى الأرض صدعاً ... بين كفٍّ تديرها واللّهاة

فاسمحي يا حياةُ بي لبخيلٍ ... جفن ساقيه طافح بالسبات

وعيّن عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق ومدرساً ببعض المدارس، فلم يباشر شيئاً من ذلك، بل سافر قاصداً مصر، ونزل بها، فولي التصحيح، وعمل الفهارس بدار الكتب المصرية.

ومن مؤلفاته:

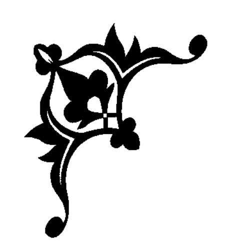
«نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، و«حياة ابن خلدون»، و«الخيال في الشعر العربي»، و«حياة اللغة العربية»، وغيرها[1].

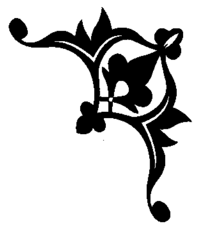
❐ ❐ ❐

---

(١) توفي إلى رحمة الله سنة (١٣٧٨هـ الموافق سنة ١٩٥٨م)، وصلي على جثمانه بالجامع، وقد احتفل رجال الدين والعلماء ونحوهم بتشييع جنازته، ودفن بجوار جثمان المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا بمدافن الأسرة التيمورية بالإمام الشافعي ﷺ بناء على وصيته بذلك.







محمد الخضر حسين[١]

(١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ) (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨م)

محمد محفوظ

محمد الخضر[٢] بن حسين بن علي بن عمر.

أصل سلفه من بلدة «طولقة» بالجنوب الجزائري، انتقل والده منها إلى «نفطة» بالجنوب الغربي التونسي في إقليم الجريد، وهي غير بعيدة عن الحدود الجزائرية، حل بها إبّان الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٤٣ صحبة صهره الشيخ مصطفى بن عزوز، الضليع من العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، الكاتب الشاعر، السياسي، الصحفي.

ولد بـ «نفطة» يوم (٢٦ رجب/ ٢٣ جويلية)، وبلدة «نفطة» واحة جميلة حبتها الطبيعة برونق أخّاذ يثير الخيال، وينبه الشاعرية، قال المترجم في ديوانه «خواطر حياة»: «نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي، يقال لها: «نفطة»، وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات

---

(١) ترجمة الإمام محمد الخضر حسين في كتاب «تراجم المؤلفين التونسيين» للمحقق والأديب الأستاذ محمد محفوظ ـ تونس. طبعة ١٩٨٢، بيروت.

(٢) اسمه في الأصل: الأخضر، ثم حوره إلى الخضر، ووالده اسمه الحسين، ولما استقر بالمشرق، جرى على عادتهم في حذف كلمة ابن قبل اسم الأب، وحذف حرف التعريف من اسم والده.

تهب في مجالس علمائها، وكان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت وأنا في سن الثانية عشرة نظم الشعر».

وهذه البلدة ذات المناخ الشاعري الملهم، أخرجت شعراء وعلماء على مدار العصور، وفي بعض العصور ازدهرت فيها الحركة العلمية ازدهاراً كبيراً حتى سميت بالكوفة الصغرى.

وفي سنة (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م) انتقل مع أسرته إلى العاصمة حيث أتم تعليمه الابتدائي؛ أي: حفظ القرآن، ثم التحق بجامع الزيتونة في العام الموالي، أخذ عن أعلامه؛ كسالم بوحاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد النجار، وغيرهم، وتخرج منه محرزاً على شهادة التطويع في سنة (١٣١٦/ ١٨٩٨)، وفي العام الموالي لتخرجه درّس متطوعاً بجامع الزيتونة، بعد أن قام برحلة إلى ليبيا.

وكانت عنايته بالأدب واللغة في عهد الطلب بجامع الزيتونة أكثر من غيرهما. وكان ينظم الشعر في بعض المناسبات؛ كتهنئة بعض شيوخه عند إتمام دراسة بعض الكتب، وهو تقليد شائع بجامع الزيتونة في ذلك العهد وما سبقه.

قال في مقدمة ديوانه «خواطر الحياة»: «انتقلت إلى مدينة تونس، والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة، وكان من أساتذة الجامع، ومن هم في الطبقة العالية من طلاب العلم من أولعوا بالأدب والتنافس في صناعة القريض إلى شأو غير قريب، فاقتفيت أثرهم، وكنت أنظم قصائد تهنئة لبعض أساتذتي عند إتمام دراسة بعض الكتب».

وفي سنة (١٣٢٢ ـ ١٩٠٤) أصدر مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة صدرت بتونس، صدرت نصف شهرية، واستمرت قرابة العام، وأعدادها ٢١ عدداً، وكان ظهور هذه المجلة حدثاً فكرياً بارزاً اهتزّ له رجال العالم المحبين للأدب والإصلاح والشباب، وساء المتزمتين ضيقي الأفق، عبّاد القديم؛ فإن هذه المجلة بدت فيها نزعة إلى حرية النقد، ودعوة إلى احترام التفكير، وتأييد لفتح باب الاجتهاد، ففي المقال الافتتاحي الذي قدّم به المجلة يقول: «إن دعوى أن باب الاجتهاد قد أغلق هي دعوى لا تُسمع إلا إذا أيّدها دليل يوازن في قوته الدليل الذي فتح به باب الاجتهاد»، ومثل هذه الدعوى وأمثالها مما روجته مجلته، لم تكن لتلقى القبول والترحيب من وسط الجامدين دعاة التمسك بالقديم، وقامت هيئة النظارة العلمية بجامع الزيتونة (المديرة له) تطالب الحكومة بمنع صدور هذه المجلة، وتدعو إلى معارضتها ومقاومتها، وكانت بذلك مجلبة لكثير مما ناله من الاضطهاد طيلة مقامه بتونس.

وكشفت هذه المجلة عن مكانة صاحبها في النثر الفني والعلمي، واتجاهه إلى تجديد أغراض الشعر بصوغ القصائد في المعاني الاجتماعية والفلسفية، والتوجيه إلى مسالك النهضة والتحرر والتجدد.

وفي مدة تدريسه بجامع الزيتونة، درّس كتاب «المثل السائر» لابن الأثير، كان درساً عظيم الصدى، ازدحم عليه المستفيدون، وحاز به شهرة ومكانة لدى الوسط العلمي، وبتوجيهه واعتنائه تأسست أول منظمة طالبية بتونس تحت إشرافه باسم: (جمعية تلامذة جامع الزيتونة) سنة (١٣٢٤ / ١٩٠٧).

قال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: «وبذلك بدا الشيخ الخضر يستهدف

لما استهدف له المصلحون العاملون من قبله من آثار المكائد والسعايات والدسائس، فأصبحت كل حركة تبدو من الطلبة محمولة على حسابه، ونظرته أعين المسؤولين شزراً، عندما أعلن طلبة الزيتونة الإضراب عن الدروس سنة (١٣٢٨/ ١٩١٠) باعتبار كونه المسؤول عن ذلك التحرر».

وعندما تضايق المتزمتون من علماء الزيتونة ورجال المجلس الشرعي من أفكاره التحررية والإصلاحية، أبعدته الحكومة عن العاصمة، وسمته قاضياً ببنزرت سنة (١٣٢٣/ ١٩٠٥)، وباشر التدريس والخطابة بجامعها الكبير، وضايقته السلط الاستعمارية على أثر إلقائه محاضرة بنادي قدماء الصادقية بالعاصمة سنة ١٩٠٦ بعنوان «الحرية في الإسلام»، فاستقال من خطة القضاء، وعاد للتدريس متطوعاً بجامع الزيتونة، وسمته النظارة العلمية عضواً في اللجنة المكلفة بوضع فهرس للمكتبة الصادقية (العبدلية) إحدى مكتبتي جامع الزيتونة.

واجتاز بنجاح مناظرة التدريس من الطبقة الثانية بجامع الزيتونة في سنة (١٣٢٥/ ١٩٠٧)، وفي العام الموالي عيّن مدرساً بالمدرسة الصادقية، وفي هذه السنة ألقى دروساً في الآداب والإنشاء في المدرسة الخلدونية.

قام بثلاث رحلات إلى الجزائر، المرة الأولى سنة ١٩٠٣، والثانية في رمضان (١٣٢٢/ ١٩٠٤)، والثالثة سنة (١٣٢٧/ ١٩٠٩)، فزار عدة مدن جزائرية، وألقى فيها المحاضرات والدروس، وفي سنة (١٣٣٠/ ١٩١٢) شارك في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى، فلم ينجح لغرضين؛ لأن لجنة المناظرة آثرت أن تقدم عليه أحد أبناء البيوت العلمية الأرستقراطية، ولأنه من دعاة التحرر والإصلاح، وهي أمور تنقمها عليه اللجنة (وأعضاؤها من رجال الشريعة)،

وذلك بالرغم مما أبداه من كفاءة وتفوق.

وذاق مرارة الظلم والاضطهاد، وشهوة الإيذاء والوقيعة، لا سيما وهو من أنصار الجامعة الإسلامية (الذين يؤمنون بخدمة الملة الإسلامية خدمة لا تضيق بها حدود الأوطان)، وقام برحلة استطلاعية، وسافر العام نفسه إلى إستانبول؛ حيث كان بها خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، ومرّ بمصر والشام، ودوّن وصفاً اجتماعياً وأدبياً لهذه الرحلة نشرته جريدة «الزهرة». وعاد عن طريق البحر إلى تونس في ٢ أكتوبر ١٩١٢.

وبعد عودته منع من التدريس بالمدرسة الصادقية بحجة غيابه عن افتتاح المعهد بيومين، فقرر الهجرة إلى المشرق في نفس السنة، ومعه إخوته الأربعة، من بينهم: زين العابدين، ومحمد المكي، وزار مصر والشام والحجاز، وألبانيا، وتركيا، ومعظم بلاد البلقان، ثم استقر بدمشق، وعهد إليه بالتدريس في المدرسة السلطانية إلى سنة (١٣٣٦/ ١٩١٧)، وفي مدة إقامته بدمشق كتب المقالات، وألقى المحاضرات، ونشر بعض مؤلفاته.

دخل السجن بأمر من القائد التركي أحمد جمال باشا بتهمة علمه بالحركة السرية العربية المعادية للأتراك، ومكث سجيناً ستة أشهر وأربعة عشر يوماً، وخرج منه في ٤ ربيع الثاني سنة (١٣٣٥/ ٢٩ جانفي ١٩١٧) بعد محاكمته وثبوت براءته، وبعد ذلك استدعي إلى إستانبول حيث سمي مفتشاً بوزارة الحربية.

ثم سافر إلى ألمانيا صحبة وفد من العلماء، من بينهم: الشيخ صالح الشريف التونسي (ت سنة ١٣٣٨/ ١٩٢٠) مكلفاً بمهمة من قبل الحكومة التركية، ولبث بها قرابة تسعة أشهر، تعلم أثناءها اللغة الألمانية، وتردد بين

برلين وإستانبول إلى أواخر الحرب العالمية الأولى، حيث أقام ببرلين مرة أخرى قرابة سبعة أشهر، ثم عاد إلى إستانبول التي سقطت بأيدي الحلفاء، فقرر العودة إلى دمشق التي أصبحت عاصمة الأمير فيصل بن الحسين، وما كاد يستقر في دمشق حتى سمي مدرساً في ثلاثة معاهد، وهي: المدرسة العثمانية، والمدرسة العسكرية، والمدرسة السلطانية، وعيّن عضواً عاملاً في إحدى لجان المجمع العلمي العربي بدمشق على أثر جلسته المنعقدة في ٣٠ جويليه ١٩١٩.

وفي منتصف عام ١٩٢٠ احتل الجيش الفرنسي دمشق، فبارحها، وصار عضواً مراسلاً للمجمع العلمي، واحتفظ بهذه العضوية إلى آخر أيام حياته، وأصدرت عليه فرنسا حكماً بالإعدام غيابياً أثناء مقامه في ألمانيا، قام بتحريض المغاربة ـ والتونسيين منهم خاصة ـ على الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، فكان خروجه من دمشق فراراً من تنفيذ حكم الإعدام عليه، وتوجه إلى مصر التي له فيها أصدقاء عرفهم في دمشق وإستانبول وأوربا، وفي القاهرة سمي مصححاً بدار الكتب المصرية، وهي خطة لا تسند إلا لمن تثبت مقدرته العلمية والأدبية واللغوية، وكتب في الصحف والمجلات، وألقى المحاضرات في الجمعيات، والدروس في المساجد.

وفي سنة ١٩٢٣ أسس جمعية (تعاون جاليات شمال إفريقيا)، وهدفها رفع المستوى الثقافي والاجتماعي لتلك الجاليات، وتولى رئاسة هذه الجمعية.

ولما أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» لم تحل علاقاته بآل عبد الرازق من قولة الصدق، وبيان وجه الحق، والرد على أحد أفرادهم، ومن الهراء زعمُ بعضهم أنه ألف الكتاب خدمة لأغراض ملك مصر أحمد فؤاد الذي كان يسعى لمبايعته بمنصب الخلافة الإسلامية بعد

إلغائها في تركيا، وكأن علي عبد الرازق يرد عليه من طرف خفي، والحقيقة أن ما تضمنه الكتاب من آراء لا يوافق عليها أي عالم مسلم، فالرد عليه هو بيان لوجه الحق، وتبديد الشبهات، وإرضاء الضمير، لا خدمة لركاب أحمد فؤاد أو غيره من الأشخاص أو المؤسسات.

فلم تكد تهدأ العاصفة التي أثارها هذا الكتاب، حتى أصدر الدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦ كتابه في «الشعر الجاهلي» الذي أثار حملة من النقود والردود؛ لأنه زعم أنه يطبق منهج ديكارت على الشعر الجاهلي، وتطرق إلى إنكار نزول إبراهيم بالحجاز، فهو تكذيب صريح للقرآن؛ مما زاد اشتداد الحملة عليه، وكان من بين الذين تولوا الرد عليه المترجَم له في كتابه «نقض كتاب في: الشعر الجاهلي» وبهذين الكتابين حاز شهرة في الأوساط الأدبية والعلمية، ومنح الجنسية المصرية، واجتاز امتحان شهادة العالمية في الأزهر بتفوق؛ لأن الأزهر لا يعترف بالشهادات الزيتونية، والزيتونة لا تعترف بشهادات الأزهر، وبموجب إحرازه على شهادة العالمية صار من مدرسي الأزهر في معاهده الثانوية، ولما تولى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي سعى إلى تسمية المترجم أستاذاً في كليات الأزهر، وفي عام ١٩٥٠ طلب قبوله عضواً في هيئة كبار العلماء، ومن شروط القبول تقديم بحث علمي ممتاز، فقدم بحثاً مطولاً عن «القياس في اللغة العربية»، فقبل بالإجماع. وواصل نشاطه في ميدان الدعوة الإسلامية، فأسس جمعية (الهداية الإسلامية) في (١٣ رجب سنة ١٣٤٦هـ/ ١٦ جانفي ١٩٢٨م) لخدمة مبادئ الدين الإسلامي وأصوله، وتولى رئاسة هذه الجمعية، وإدارة مجلتها، والتحرير فيها، كما تولى رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام»، ومجلة «الأزهر»،

ولما تأسس المجمع اللغوي بالقاهرة بمرسوم من الملك أحمد فؤاد، وصدر عنه مرسوم ثان في العام الموالي في (١٦ جمادى الثانية ١٣٥٢هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٣٣م) تـم بموجبه تسـمية الأعضـاء العاملين بالمجمع، وكان من بينهـم المترجم له.

وفي يوم (الأحـد ٢٥ ربيع الثاني سـنة ١٣٥٦هـ/ ٤ جويليه ١٩٣٧م) سافر إلى دمشق، فأقام بها شهرين، ثم عاد إلى القاهرة يوم الاثنين غرة رجب/ ٨ ديسمبر، واتصل فيها بأصدقائه من العلماء والأدباء الذين رحبوا بقدومه، وأقاموا له حفلات التكريم، وألقى محاضرة في قاعة المحاضرات بالمجمع العلمي عنوانها: (أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية).

ولم يترك الاهتمام بقضايا المغرب العربي، فأسس بعد الحرب العالمية الثانية (جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا) التي قامت بعدة أعمال لفائدة المغرب العربي، وكان من بين أعضائها: الزعيم الحبيب بورقيبة عند هجرته إلى مصر، ومحيي الدين القليبي عند زيارته الأولى لمصر.

وقدم المسـاعدة اللازمة للمجاهد الأكبر الأستاذ الحبيب بورقيبة عند قدومه إلى مصر في مارس ١٩٤٦ الذي أوقفته السُّلَط المصرية للتثبت من هويته قبل دخوله القاهرة، وزار الزعيم المغربي محمد بن عبد الكريم الخطابي في السفينة الراسية في ميناء السويس.

وعندما قامت الثورة المصرية سمي شيخاً للجامع الأزهر في يوم الأربعاء (٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٧١هـ/ ٧ سبتمبر ١٩٥٢م)، وكان قد أحيل على التقاعد منذ سنة ١٩٥٠، ولما نحي اللواء محمد نجيب عن الحكم، ونفي إلى مكان مجهول في ٢٠ أوت ١٩٥٣، وكثرت أمراضه الجسمية، وهزلت صحته؛

مما عاقته عن القيام بمسؤولياته بما يرضي ضميره، وولوعه بالمطالعة، كل هذا دعاه إلى الاستقالة من منصب مشيخة الأزهر في (٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ/ ٨ جانفي ١٩٥٤م)، وعقب الاستقالة قام برحلة إلى دمشق زار فيها شقيقه الشيخ زين العابدين، ثم عاد إلى القاهرة إلى أن أدركته الوفاة ظهر يوم الأحد (١٣ رجب ١٣٧٧هـ/ ١٢ فيفري ١٩٥٨م).

وترك وصية خطيّة طلب فيها دفنه بمقبرة آل تيمور حذو صديقه العلامة أحمد تيمور باشا الذي وجد منه المساعدة والعون عند قدومه إلى مصر سنة ١٩٢٠، كما وجد منه النصح والتقدير خلال بقية السنوات، وقد طلب فخامة رئيس الجمهورية التونسية الرئيس الحبيب بورقيبة من الأستاذ الطيب السحباني سفير تونس بمصر السعي لدى عائلة الفقيد للموافقة على دفنه في أرض الوطن، ولم تقع الموافقة عليه بالإيجاب لوصيته الخطية السالفة الذكر، ومات عن غير عقب، وترك مكتبة نفيسة أهداها إلى زوجته.

*** مؤلفاته:**

١ ـ «أسرار التنزيل»، وهي تفسير للفاتحة، وسورة البقرة، وبعض آيات من سورة آل عمران، والحج، والأنفال، ويونس.

٢ ـ «بلاغة القرآن»، أشرف على طبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن شقيقه زين العابدين، وطبع بالمطبعة التعاونية بدمشق سنة ١٩٧٩، ص٢١٦، جمعه مما نشر في المجلات.

٣ ـ «تونس وجامع الزيتونة»، أشرف على طبعه حفيده للأخ، المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١، جمعه مما سبق نشره في المجلات أو الرسائل الصغيرة، وله علاقة بتونس، وخاصة تراجم العلماء المشهورين أمثال: ابن

خلدون، وأسد بن الفرات، وعمر بن الشيخ، ومحمود قابادو.

٤ ـ «خواطر الحياة»: (ديوان شعر ضخم) ط سنة (١٣٦٦/ ١٩٤٦)، وعلق عليه في الطبعة الثانية الشيخ محمد علي النجار الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر، نشرته المطبعة السلفية ومكتبتها لصاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب أحد أصدقائه سنة (١٣٧٣/ ١٩٥٣).

٥ ـ «الخيال في الشعر العربي»، نشره أولاً في شكل مقالات بمجلة «المنار» خلال سنة ١٩٢١، ط، بالمطبعة الرحمانية، ٤١ص، وط للمرة الثانية بالمطبعة السلفية (١٣٤٦/ ١٩٢٨)، ٨٤ص، ثم أعاد طبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني بالمطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٢، ٢٠٣ص، وأضاف إليه: «الخطابة عند العرب»، و«محاضرات في البلاغة والآداب».

٦ ـ «الحرية في الإسلام»، محاضرة ألقاها بنادي جمعية قدماء تلامذة الصادقية مساء يوم السبت ١٧ ربيع الثاني ١٣٢٤، وهو يومئذٍ قاض ببنزرت، المطبعة التونسية ١٩٠٩، ٦١ص، وطبعت طبعة ثانية بالأوفيست، تونس ١٩٧٢.

٧ ـ «رسائل الإصلاح»، جمع فيها جملة كثيرة من بحوثه في الدين، والأخلاق، والتراجم، والتاريخ، واللغة، وقد جعلها أربعة أقسام هي:

١ ـ الأخلاق والاجتماعيات.

٢ ـ قسم المباحث الدينية في أصول الدين، وأصول الفقه، والأحكام العملية.

٣ ـ قسم السيرة النبوية، وتراجم الرجال، والبحوث التاريخية.

٤ ـ قسم مباحث اللغة والآداب، وقد نشر منه في حياته ثلاثة أجزاء

تدور كلها على القسمين الأولين، ط، الجزء الأول بمطبعة الهداية الإسلامية، القاهرة (١٣٥٨/ ١٩٣٨)، ص٤٤ ـ ٢٤٠، وقد أعاد طبع هذا الجزء حفيده للأخ بدمشق ١٩٧١ بعد الحذف، وإضافة موضوعات من الجزء الثاني، ٢٤٠ص.

الجزء الثاني بمطبعة حليم بالقاهرة بلا تاريخ، ص٢٣١، وقد نقل الحفيد موضوع: (أديان العرب قبل الإسلام) إلى كتاب «محمد رسول الله»، كما نقل موضوع: التصوف إلى كتاب «الشريعة الإسلامية».

٨ ـ «الدعوة إلى الإصلاح»، رسالة طبعت على نفقة شقيقه السيد محمد العروسي بن الحسين، بالمطبعة العربية بتونس (١٣٢٨/ ١٩١٠)، ٤١ص، وطبعت للمرة الثانية بالمطبعة السلفية (١٣٤٦/ ١٩٢١)، ٨٤ص بعد أن أدخل عليها تنقيحاً في بعض الفقرات والفصول، وتحويراً في التبويب.

٩ ـ «الشريعة الإسلامية»، فيه معظم الجزء الثالث من «رسائل الإصلاح» في طبعتها الأولى، وأضاف إليها حفيده مقالات نشرت في مجلة «نور الإسلام»، ومجلة «الهداية الإسلامية»، وأشار لها في الحواشي، المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١، ٢٢٢ص.

١٠ ـ «طائفة القاديانية»، المطبعة السلفية سنة (١٣٥١/ ١٩٣٢)، ٤٠ص، وطبعت للمرة الثانية ضمن رسائل الإصلاح، ج٣، ص١٠٧ ـ ١٢٥.

١١ ـ «علماء الإسلام في الأندلس»، محاضرة ألقاها في نادي جمعية الشبان المسلمين باسم جمعية الهداية الإسلامية مساء يوم الأربعاء ٢٨ ذي الحجة (١٣٤٦/ ١٩٢٧)، وأردفها بخطبة في موضوع: (لماذا نحتفل بذكرى الهجرة النبوية؟) ألقاها في النادي نفسه في غرة محرم ١٣٤٧، طبعت بالمطبعة السلفية (١٣٥٧/ ١٩٢٨)، ٤٠ص.

١٢ ـ «القياس في اللغة العربية»، لما درّس المؤلف كتاب «مغني اللبيب» بالمدرسة السلطانية بدمشق تجمعت لديه كثير من الآراء عن القياس في اللغة العربية قدمها إلى تلاميذه، وناقشها مع بعض أصدقائه من العلماء، وقد اقترح عليه بعضهم، ومنهم: الشيخ محمد بهجة البيطار عضو المجمع العربي بدمشق جمع هذه الآراء في كتاب يساعد قراء العربية على معرفة هذا الموضوع الهام، فكتب بحثاً في القياس في اللغة نشره تباعاً في مجلة «المنار» سنة ١٩٢٢، ثم نشره في كتاب خاص في ١٢٧ص، وطبع بالمطبعة السلفية (١٣٥٣/ ١٩٣٤)، والطبعة الثانية نشرها حفيده ضمن كتاب «دراسات في العربية وتاريخها» (ص٥ ـ ١١٢)، دمشق ١٩٦٠، ثم إنه نقحه وجوّده وقدمه إلى هيئة كبار العلماء، فقبلته بالإجماع، وأصبح عضواً فيها سنة ١٩٥٠، ومما نشره وعلق عليه كتاب «الموافقات» للشاطبي، وعليه تعليقاته، وطبع بالمطبعة السلفية سنة (١٣٤١/ ١٩٢٣) في أربعة أجزاء.

١٣ ـ «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، المطبعة السلفية (١٣٤٤/ ١٩٢٥)، ٤٤ص ٧ + ٢٤٢.

١٤ ـ «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، المطبعة السلفية (١٣٤٥/ ١٩٢٦)، ٧ + ٣٦٤.

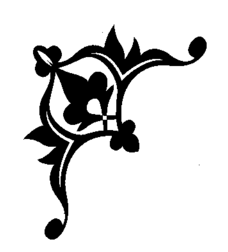
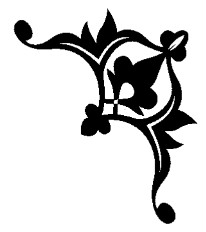
* **المراجع:**

- «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» (٢/ ١٩٣ ـ ٢٣٠).
- «أركان النهضة الأدبية في تونس» (٣٩ ـ ٤٣).
- «أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث» لأحمد تيمور (القاهرة ١٩٦٧) (٣٧٨ ـ ٣٨١).

- «محمد الخضر حسين: حياته، وآثاره» لمحمد مواعدة (تونس ١٩٧٤).
- «شيخ الأزهر الأسبق» دراسة مختارات سلسلة أعلامنا (٤) لأبي القاسم محمد كرو، تونس ١٩٧٣.
- «معجم المطبوعات» (١٦٥٢).
- «مجمل تاريخ الأدب التونسي» (٣٣٣ ـ ٣٣٧).
- «معجم المؤلفين» (٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠)، وانظر عنه، وعن مجلة «السعادة العظمى»:

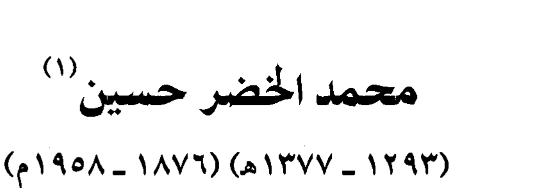
Jaafar Majed. La presse litteraire en Tunisie de 1904 a1955 Tunis 1979 p.p. 29 - 45.



محمد الخضر حسين[1]

(١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ) (١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م)



خير الدين الزركلي

محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي: عالم إسلامي، أديب، باحث، يقول الشعر، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، وممن تولوا مشيخة الأزهر.

ولد في «نفطة» (من بلاد تونس)، وانتقل إلى تونس مع أبيه (سنة ١٣٠٦) وتخرج بجامع الزيتونة. ودرّس فيه. وأنشأ مجلة «السعادة العظمى» سنة (١٣٢١ ـ ٢٣)، وولي قضاء «بنزرت» (١٣٢٣)، واستعفى، وعاد إلى التدريس بالزيتونة (سنة ٢٤)، وعمل في لجنة تنظيم المكتبتين: العبدلية، والزيتونة. وزار الجزائر ثلاث مرات، ويقال: أصله منها. ورحل إلى دمشق (سنة ٣٠)، ومنها إلى الآستانة. وعاد إلى تونس (٣١)، فكان من أعضاء (لجنة التاريخ التونسي)، وانتقل إلى المشرق، فاستقر في دمشق مدرساً في المدرسة السلطانية قبل الحرب العالمية الأولى.

وانتدبته الحكومة العثمانية في خلال تلك الحرب للسفر إلى «برلين» مع الشيخ عبد العزيز جاويش وآخرين، فنشر بعد عودته إلى دمشق سلسلة

---

(١) ترجمة الإمام محمد الخضر حسين في كتاب الموسوعة «الأعلام» للأستاذ الأديب والشاعر خير الدين الزركلي ـ طبعة ١٩٩٠، بيروت.

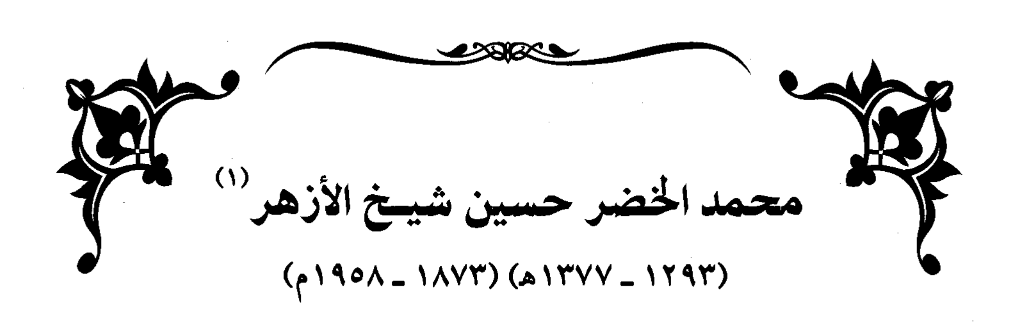
من أخبار رحلته، في جريدة «المقتبس» الدمشقية.

ولما احتل الفرنسيون سورية، انتقل إلى القاهرة (١٩٢٢)، وعمل مصححاً في دار الكتب خمس سنوات. وتقدم لامتحان (العالمية) الأزهرية، فنال شهادتها. ودرّس في الأزهر. وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية، وتولى رئاستها، وتحرير مجلتها. وترأس تحرير مجلة «نور الإسلام» الأزهرية، ومجلة «لواء الإسلام»، ثم كان من (هيئة كبار العلماء)، وعُين شيخاً للأزهر (أواخر ١٣٧١)، واستقال (٧٣)، وتوفي بالقاهرة. ودفن بوصية منه في تربة صديقه أحمد تيمور (باشا).

وكان هادئ الطبع، وقوراً، خص قسماً كبيراً من وقته لمقاومة الاستعمار، وانتخب رئيساً لجبهة الدفاع عن شمال إفريقية. في مصر. وله تآليف، منها «حياة اللغة العربية ـ ط»، و«الخيال في الشعر العربي ـ ط»، و«مناهج الشرف ـ ط»، و«طائفة القاديانية ـ ط»، و«مدارك الشريعة الإسلامية ـ ط»، و«الحرية في الإسلام ـ ط»، محاضرة، و«نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ـ ط»، و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي ـ ط»، و«خواطر الحياة ـ ط»، ديوان شعره، و«بلاغة القرآن ـ ط»، و«محمد رسول الله ـ ط»، و«السعادة العظمى ـ ط»، و«تونس وجامع الزيتونة ـ ط»[1].

---

(١) من ترجمة له بقلمه وبخطه، عندي. وجريدة «الفتح» ١٧ ذي القعدة ١٣٥٠، و«الأهرام» ٢١/٩/ ٥٢، ثم ٣/٢/ ٥٨، ومجلة «الحج»: (١٢: ٦٦)، و«معجم المطبوعات»، ١٦٥٢ ومجلة «المجمع العلمي العربي» (٨١: ١٨)، والأزهر في ألف عام (١: ١٦٥، ١٩٥)، و«مجمع اللغة» (١٤: ٣٢٣ و٤: ٢٣٢ ـ ٣٣)، و«مذكرات المؤلف».



محمد الخضر حسين شيخ الأزهر[1]

(١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ) (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨م)

محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة

محمد الخضر، أو الأخضر[2] بن الحسين الشريف التونسي.

ولد ببلدة «نفطة»[3] في (٢٦ رجب ١٢٩٣هـ، الموافق ٢١ تموز ١٨٧٣م) لأسرة تهتم بالعلم، وتتصف بالفضل، وكان والده وجدّه من كبار العلماء، واشتهر خاله محمد المكي بن عزوز في تونس والجزائر وإستانبول، ويرجع أصل أسرته إلى أسرة العمري من قرية «طولقة»، إحدى واحات الجنوب الجزائري.

نشأ في بلدة «نفطة» بجو أسرته العلمي، فحفظ القرآن الكريم، ثم رحل به والده في ربيع الأول من سنة ١٣٠٦ إلى تونس العاصمة لتلقي العلوم بجامع الزيتونة، وصحب معه إخوته: محمد الجنيدي، ومحمد العروسي،

---

(١) ترجمة الإمام محمد الخضر حسين من كتاب «تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر» (الجزء الثالث) للأستاذين: محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، بدمشق ـ الطبعة ١٩٩١م دمشق.

(٢) أبدلت الخضر بالأخضر منذ طفولته للاختصار.

(٣) في جنوب تونس، وتسمى عندهم: الكوفة الصغرى.

ومحمد المكي (على اسم خاله)، وزين العابدين. وفي تونس التحق بجامع الزيتونة سنة (١٣٠٧/ ١٨٨٧)، والتقى بالطبقة العالية من علمائه، وأشهرهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز (ت١٣٣٣)، والشيخ عمر بن الشيخ (ت١٣٢٩)، والشيخ محمد النجار (ت١٣٢٩)، وبه تأثر في الاتجاه المحافظ، والشيخ سالم بو حاجب (ت١٣٤٣)، وتأثر به في الاتجاه الإصلاحي. والشيخ مصطفى رضوان، والشيخ إسماعيل الصفايحي. وقد بقيت صلته بشيوخه هؤلاء حتى سفره إلى المشرق.

واصل الشيخ دراسته في الزيتونة باهتمام، حتى حصل على شهادة التطويع منه سنة ١٣١٦، وكان قبل انتهاء دراسته طُلب للمشاركة في بعض القضايا العلمية، فأبى.

ثم حاول القيام برحلة إلى الشرق عن طريق ليبيا، فخرج سنة ١٣١٧، لكنه لم يجاوز حدود مدينة طرابلس، فرجع إلى تونس. وبعد سنوات قام بزيارة إلى الجزائر دفعه إليها الصلة بين أصله الجزائري، وميله إلى الرحلة للعلم، فوصلها سنة ١٣٢١. ثم قام برحلة إليها ثانية في السنة التالية. وهناك تعرف على عدد كبير من الشيوخ؛ كالشيخ محمد بن شنب، والشيخ عبد القادر المجاوي. وفي هذه المدة أصدر مجلة «السعادة العظمى»، التي توقفت سنة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).

تولى إثر ذلك القضاء في «بنزرت» بتأثير من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وبقي فيه أشهراً قليلة، قدّم بعدها استقالته، ورجع إلى بلده تونس سنة ١٣٢٤؛ ليباشر التدريس بجامع الزيتونة، إضافة إلى عمله فيه بتنظيم المكتبة.

وفي سـنة ١٣٢٦ عيّن مدرسـاً بالصادقية، وكلف بالخطابة في جامع الخلدونية.

ولما قامت الحرب بين الطليان والدولة العثمانية، كان من أعظم الدعاة للوقوف في وجه العدو، ونشر في جريدته ما يحمّس ضدّ الاحتلال الإيطالي.

رغب بالرحلة إلى الشـرق، واشـتاق إليه إثر انتقال إخوته الثلاثة إلى دمشق، واستقرارهم بها، فرحل سنة ١٣٣٠ قاصداً بلاد الشام. واستغرقت رحلته أربعة أشهر وستة أيام، زار خلالها جزيرة مالطة، والإسكندرية، ثم القاهرة، واجتمع فيها بكبار العلماء، وألقى درساً في الأزهر، ثم بورسعيد، ويافا، وحيفا، ودخل دمشق أول رمضان سنة (١٣٣٠/ ٣١ تموز ١٩١٢)، وفيها التقى بإخوته، واستقبله علماء دمشق ووجهاؤها استقبالاً حاراً، وألقى دروساً في الجامع الأموي، وبقي فيها شهر رمضان بأكمله. وزار خلال ذلك المؤسسات الثقافية، ثم غادرها في ٢ شوال، وقصد بيروت، فالتقى فيها ببعض رجالات الفكر؛ كالسيد شفيق المؤيد. ومنها سافر إلى إستانبول، لزيارة خاله وأستاذه الشيخ محمد المكي بن عزّوز. وبقي في تركيا ما يقارب الشهرين، واتصل بكبار علمائها صحبة خاله. ثم غادرها إلى تونس، حيث وجد قراراً بفصله ينتظره هناك لسبب سياسي، لما قام به من أعمال تمسّ النظام الفرنسي الحاكم بتونس، فواصل على الأثر نشاطه العلمي، والتدريس في نادي جمعية قدماء الصادقية، وغيره، ونشر حديثاً ببعض الصحف عن رحلته.

بعد ذلك رغب بالهجرة إلى الشام، فودع زوجته سنة (١٣٣١/ ١٩١٢)، وقد رفض أهلها أن ترافقه، فحزن على فراقها، وأنشد:

جارتي منذ ضحوة العمر عـذراً   لأخـي خطـرة نـأى عنـه بيتـك

قال يوم الوداع وهو يعاني سكرة البين: ليتني ما عرفتك

قصد أول أمره مصر، فاتصل بعدد من علمائها؛ كالشيخ رشيد رضا، ثم انتقل إلى دمشق، فأقام بها مدة يسيرة، سافر بعدها إلى الحجاز، ثم ألبانيا، والآستانة، ثم رجع إلى دمشق، واستقرّ بها مع إخوته في حيّ الميدان.

بدأ دروسه بدمشق بالجامع الأموي، والتدريس بالمدرسة السلطانية، فقدره أهل العلم، وتوثقت الصداقة بينه وبين الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي. وبعد وفاة هذا الأخير قرأ عليه طلابه أمهات الكتب؛ كـ «المستصفى في أصول الفقه» للغزالي، و«بداية المجتهد» في علم الخلاف لابن رشد، و«المغني في النحو» لابن هشام، و«الكامل في الأدب» للمبرد، و«صحيح مسلم»، فكان في ذلك كله إماماً مستقلاً مستدلاً.

شارك في الكتابة بالصحف والمجلات، وكان له اهتمام واضح بالمشكلة العربية التركية، ودعا للألفة بين العرب والأتراك في ظلّ الخلافة العثمانية. وكان جلّ اهتمامه بالعلم والعلماء بدمشق. قال عنها: «نزلت دمشق، وللشعر فيها سوق غير كاسدة، ولكني آثرت أن أصرف القريحة في البحث العلمي، أو في العمل للقضية الإسلامية بقدر ما أستطيع»[1].

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، وتولى جمال باشا السفاح حكم سورية، عمل الشيخ مع عدد من المفكرين ضدّ حكمه الجائر، فسجن يوم ١٥ آب ١٩١٦، متهماً بالتستر على المتآمرين، وحوكم، ثم أطلق سراحه، بعد أن بقي في السجن حتى يوم ٢٩ كانون الثاني ١٩١٧. وحزّ في نفسه وهو سجين أن يمنع من المطالعة والكتابة، وقال في هذا:

---

(١) «خواطر الحياة» (ص٥).

غلّ ذا الحبسُ يدي عن قلم   كان لا يصحو عن الطرس فناما

هل يذود الغمض من مقلته   أو يلاقي بعده الموت الزؤاما

أنا لولا همة تحدو إلى   خدمة الإسلام آثرت الحِماما

ليست الدنيا وما يقسم من   زهرها إلا سراباً أو جَهاما

وعاد بعد سجنه إلى التدريس في المدرسة السلطانية، والجامع الأموي.

ثم استدعي للعمل في الآستانة منشئاً عربياً بوزارة الحربية، بسعي من الشيخ حسن ظافر، وعلي باش حامبة الزعيم التونسي؛ ليتولى الإرشاد في جامع الفاتح.

ولما استقر في الآستانة، كان خاله قد توفي سنة ١٣٣٤ ، فباشر عمله، ثم كلف بمهمة في ألمانيا صحبةَ عدد من العلماء؛ كالشيخ صالح الشريف، وإسماعيل الصفائحي التونسيين، وبقي هناك تسعة أشهر على اتصال مع النازحين من ظلم الفرنسيين إلى ألمانيا. وتعلم خلال شهر اللغة الألمانية. ثم رجع إلى الآستانة، فبقي فيها مدة قليلة، عاد بعدئذٍ منها إلى «برلين» سنة ١٣٣٧ ، ومكث بها سبعة أشهر حتى انتهت الحرب العالمية، وحين هزمت تركيا، رجع إلى الآستانة، ومنها إلى دمشق، التي دخلتها الجيوش العربية بقيادة الأمير فيصل.

وفي دمشق تابع التدريس بالمدرسة السلطانية وغيرها. وعندما تأسس المجمع العربي سنة ١٩١٩ ، وعقد جلسته الأولى في ٣٠ تموز من هذه السنة، وقع تعيينه عضو شرف[1].

---

(١) «تاريخ المجمع العلمي العربي» (ص١٠).

وبعد معركة ميسلون سنة (١٣٣٩/ ١٩٢٠) رحل إلى مصر هروباً من الحكم الفرنسي، الذي لاحقه خفية في تونس، ثم حكم عليه بالإعدام غيابياً؛ لاتهامه إياه بالمشاركة بتحريض المغاربة في ألمانيا وتركيا ضدّ السلطة الفرنسية في شمال إفريقية، فأحزن سفره أصدقاءه ومحبيه في الشام، ومنهم: الأستاذ الشاعر خليل مردم، الذي وجه إليه ـ فيما يقول بعد ـ رسالة رقيقة تدل على مكانته عند الشاميين، وصداقته لهم، وفيها قوله:

إنّ خير ما أثبته في سجل حياتي، وأشكر الله عليه: معرفتي للأستاذ الجليل السيد محمد الخضر التونسي، وإخوانه الفضلاء، وصحبتي لهم. وقد صحبت الأستاذ عدة سنين، رأيته فيها الإنسان الكامل، الذي لا تغيره الأحداث والطوارئ، فما زلت أغبط نفسي على ظفرها بهذا الكنز الثمين، حتى فاجأني خبر رحلته عن هذه الديار، فتراءت لي حقيقة المثل: «بقدر سرور التواصل تكون حسرة التفاضل».

وأتبع الشاعر رسالته بقصيدة سماها: الرتيمة[1]، ومطلعها:

طيفٌ للمياء ما ينفك يبعث لي ... في آخر الليل إن هوّمت أشجانا

يغري الدموع بأجفان مسهَّدَةٍ ... من حيث يوري على الأحشاء نيرانا

فلو تراني وأمر الليل مجتمع ... مشتت الرأي إثر الطيف حيرانا

حسبتني مطفلاً قد ضلّ واحدُها ... عنها فطبقت الآفاق تحنانا

إلى أن قال:

أكاد أقضي جَوًى والدار جامعة ... فكيف حالي إذا وقت النوى حانا؟!

---

(١) الرتيمة: خيط يعقد في الإصبع للتذكير. «المعجم الوسيط».

فأجابه الشيخ بقصيدة عنوانها: (الصداقة هي الرتيمة)، ومطلعها:

ما النجم تجري به الأفلاك في غَسَقٍ كالدر تقذفه الأقلام في نَسَقِ

ومنها قوله:

هي الرتيمة فيما قال مبدعها وهل يغيب السنا عن طلعة الفلق
إني على ثقة من أنّ ذكرك لا ينفك مرتسماً في النفس كالخُلُق
وكيف أنسى (خليلاً) قد تضوَّع في حشاشتي ودُّه كالعنبر العَبِقِ

ولم ينس الشيخ بقية أصدقائه العلماء في دمشق، كما أنه لم ينس ما وجده في دمشق من تقدير واحترام، جعلاه يذكر تلك المرحلة من حياته في كل مناسبة، ويميزها عن بقية مراحل حياته. ويصف رحلته إلى الشام. فيقول: «هذه الأوطان الثلاثة: (تونس، وسورية، ومصر) التي قضيت بها عمراً غير قصير، وإذا كان فضل العلماء والمحققين، والأدباء المستقيمين، والرؤساء الراشدين قد غطى في تونس ومصر على ما أشرت إليه من مناوأة بعض الغافلين أو الجاحدين حتى أنسى، ولم تبلغ أن يكون لها في حياتي الأدبية أثر، فإن الأعوام التي قضيتها بين أهل دمشق، لم أشعر فيها ـ على ما أذكر ـ إلا برقة العطف، وحسن اللقاء أينما كنت، فإذا حننت إلى دمشق، فإنما أحن إلى الخلق الكريم، والأدب الأخاذ بالألباب، وقد شهد لها بهذه المزايا كثير من نزلائها العلماء والأدباء من قبلي».

ولما استقر في القاهرة بعيداً عن أهله وأقاربه وأصدقائه ومحبيه، تقدم إلى امتحان العالمية الأزهرية، فنال شهادتها، واتصل ببعض المصريين الذين عرفهم في زياراته السابقة لمصر، وتعرف إلى العلامة أحمد تيمور، وقدّر

مكانته وقيمته العلمية، وساعده هذا الأخير على الاستقرار، وكان بينهما محبة وود.

عمل الشيخ مصححاً بدار الكتب المصرية، واشتغل بالفهارس، إضافة إلى الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها في المساجد، والبحوث والمقالات التي يكتبها في الصحف والمجلات.

أسس محمد الخضر في مصر (جمعية تعاون جاليات إفريقية الشمالية) (١٣٤٣/ ١٩٢٤)، ضمت أعضاء من تونس والجزائر والمغرب وليبيا. وكانت مهمتها رفع مستوى هذه الجاليات ثقافياً واجتماعياً. كما أسس (جمعية الهداية الإسلامية) سنة (١٣٤٦/ ١٩٢٧). وكان من أعضائها الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر، والشيخ عبد الحليم النجار. وكانت تهدف إلى تمتين الصلات بين الشعوب الإسلامية، والتعريف بحقائق الإسلام، ورفع شأن اللغة العربية، عن طريق إلقاء المحاضرات، وإصدار المجلة المعروفة باسم هذه الجمعية. وقد استمرت هذه المجلة حتى الحرب العالمية الثانية.

وظهر تقدير علماء مصر للخضر حسين عندما وقع الاختيار عليه ليقوم بالتدريس في قسم التخصيص بالجامع الأزهر سنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م).

وعندما أسندت مشيخة الأزهر إلى الشيخ محمد الأحمدي الظواهري (ت١٩٤٤)، اهتم بمشروع مجلة دينية، فصدرت مجلة «نور الإسلام» التي تمثل الجامع الأزهر، وتولى إدارتها عبد العزيز محمد، ورئاسة تحريرها محمد الخضر حسين. إضافة إلى الإشراف العلمي عليها. وهو الذي كتب افتتاحية العدد الأول الذي صدر في المحرم من سنة ١٣٤٩هـ.

ثم ترأس الشيخ تحرير مجلة «لواء الإسلام»، وكان من هيئة كبار العلماء.

وعندما أنشئ مجمع فؤاد الأول في القاهرة سنة (١٣٥١/ ١٩٣٢)، كان محمد الخضر من بين الأعضاء الأوائل، الذين صدر مرسوم بتعيينهم سنة (١٣٥٢/ ١٩٣٣)، وكان له نشاطه البارز في أعمال المجمع العلمية.

كان خلال حياته في مصر يتلهف إلى زيارة دمشق، ويحنّ إليها في كل مناسبة، وهو القائل عنها:

أحـــنّ إلـــى لياليهـــا كـــصبٍّ — يحـــنّ إلـــى ليـــالي الـــرقمتينِ

ومطمـــح همتـــي فـــي أن أراهـــا — تـــسامي فـــي علاهـــا الفرقـــدينِ

واستجابة لهذا الشوق، وتلبية لرغبة أسرته، سافر إلى دمشق في ٢٥ ربيع الثاني سنة (١٣٥٦/ ١٩٣٧)، وأقام بها شهرين، وكتب في مجلة «الهداية الإسلامية» حديثاً عن هذه الرحلة، تكلم فيه عن اجتماعه بالعلماء الشاميين، واستقبالهم له في عدد من حفلات التكريم، التي كانت تقام له[١].

وألقى بدمشق في بهو المجمع العلمي العربي محاضرة عنوانها: (أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية)[٢]، ختمها بقصيدة مطلعها[٣]:

زارهـــا بعـــد نـــوى طـــال مـــداها — فـــشفى قلبـــاً مجـــداً فـــي هواهـــا

ومنها قوله:

راحَ نـــشوانَ ولا راح ســـوى — أن رأى الـــشام وحيّـــاه شـــذاها

نظـــرة فـــي ســـاحها تُـــذْكره — كيف كان العيش يحلو في رباهـــا

---

(١) العددان ٥، ٦ من المجلد العاشر.

(٢) مجلة «مجمع اللغة العربية» (١٥/ ٢٨٥).

(٣) ديوان «خواطر الحياة».

مــا شــكا فيهــا اغترابــاً وإذا حدثتـه الـنفس بالـشكوى نهاهـا

ثم يقول:

فهنــا قامــت نــوادي فتيــة تبلــغ الــنفسُ بلقيــاهم مناهــا

أدب يزهـــو كزهـــر عطـــرٍ أرشفته السحبُ من خمـر نـداها

ملـــؤوا جلـــق أنـــساً فـــأرى ليلهـا طلـقَ المحيـا كـضحاها

شـدّ مـا لاقـوا خطوبـاً فانتـضوا مرهفاتِ العزم طعنـاً فـي لَهاهـا

وعقّب على المحاضرة الشيخ محمد بهجة البيطار، عضو المجمع، فألقى كلمة تحدث فيها عن الشيخ محمد الخضر، وأثنى عليه.

وزار محمد الخضر دمشق مرة أخرى سنة (١٣٦٣/ ١٩٤٣)، فاحتفى به أهلها، وعند وداعه أقاموا له حفلاً ضمّ رجالات النهضة الإصلاحية، وألقى هو قصيدة مطلعها:

ولدتك تبغـي فـي الحيـاة أنيـساً يرعـى عقـولاً أو يقـود خميـسا

ولـــربَّ أمٍّ أملـــت فـــي طفلهـــا همم الملوك فقام يحـدو العيـسا

وعند مغادرته دمشق، وجّه رسالة إلى علمائها وأدبائها، شكر لهم فيها بقوله: «ما أبهج أياماً قضيتها في ربوع دمشق. وما بهجة الأيام إلا أن تلقى وجوهاً باسمة، وأنظاراً سامية، ومعارف زاهرة، وآداباً زاهرة، وغيرة على الكرامة ملتهبة».

فكان حنينه إلى دمشق لا ينقضي، ولا يزال ينشد شعره يتغنى بها دوماً، ومن ذلك قوله يخاطب شقيقه الشيخ زين العابدين، وقد دعاه لزيارة دمشق والتمتع بربيعها:

دعوتَ إلى دمشق وفي فؤادي لها شوق أحر من الهجير
تقول: حنا الربيع على رباها وحاك طنافسَ الزهر النضير
وهب نسيمها الفياح يُهدي إلى أرجائها أزكى عبير
هلم نُعد بها عهداً مليئاً بما نهواه من عيش غرير
أثرت بمهجتي ذكرى ليالٍ قضيناها بدمر في حبور

وكان الشيخ محمد الخضر متفتحاً للقاء الشخصيات المهمة، يزورها، ويأنس بها، ويودها. وقد زار الأمير محمد عبد الكريم الخطابي[1] عندما رست باخرته بميناء السويس في منتصف ليلة السبت ١١ رجب (١٣٦٦/ ١٩٤٦)، وقال بعد عودته من زيارته:

قلت للشرق وقد قام على قدم يعرض أرباب المزايا
أرني طلعة شهم ينتضي سيفه العضب ولا يخشى المنايا

---

(١) زعيم ثورة الريف بالمغرب ضد الاحتلال الإسباني، وقدر جيشه بمئة ألف، وأنشأ جمهورية الريف. وخاف الفرنسيون امتداد الثورة إلى داخل المغرب، فحالفوا الإسبان، وأطبقت عليه الدولتان، فاستسلم مضطراً إلى الفرنسيين في ١٢ ذي القعدة (١٣٤٤/ ١٩٢٥) بعد أن وعدوه بإطلاق سراحه، ولكنهم غدروا به، فنفوه مع أخ له وبعض أقربائهما إلى جزيرة «رينيون» في بحر الهند شرق إفريقية؛ حيث مكثوا عشرين عاماً، ثم صدر الأمر بنقلهم إلى فرنسا سنة (١٣٦٦/ ١٩٤٦)، فلما بلغوا السويس، كان شباب المغاربة قد هيؤوا لهم أسباب النزول من الباخرة، فنزلوا واستقروا في القاهرة، وبها توفي الخطابي بالسكتة القلبية سنة (١٣٨٢/ ١٩٢٦). «الأعلام» (٦/ ٢١٦).

أرنيهــــا إننــــي مـــــن أمـــــة تركب الهول ولا ترضى الـدنايا

فــأراني بطــل الريــف الــذي دحــر الأعــداء فارتــدوا خزايــا

غـــضبة حـــرّاء هزّتـــه لأن يقنذ المغرب مـن أيـدي الرزايـا

شــبّ حربـاً لـو شـددنا أزرهـا لأصــابت كـل بـاغ بـشظايا

وبعد قيام الثورة في مصر سنة (١٣٧٢/ ١٩٥٢) وقع الاختيار على الشيخ محمد الخضر ليكون شيخاً للأزهر[1]، ولم يُقبل منه اعتذاره بسبب كبر سنه، إذ أشرف على الثمانين، وكان أُحيل على التقاعد سنة (١٣٧٠/ ١٩٥٠). وبعد أن درّس في الأزهر عشرين سنة، وأقنعه وزير الأوقاف بالقبول، فتولى المشيخة حتى شهر جمادى الأولى من عام (١٣٧٣/ ١٩٥٤)، فقرر الاستقالة من المشيخة؛ لهزاله، وتأخر صحته.

عكف بعدئذٍ على كتبه في منزله، وبقي يتابع أعماله العلمية مع أعماله في مجمع اللغة العربية، واجتماعاته في جميعية كبار العلماء، وكتاباته في المجلات، ومجالساته العلمية مع أصدقائه ومحبيه. وبقي على هذه الحال حتى وافاه الأجل.

ترك محمد الخضر مؤلفات عديدة: كتباً، وشعراً، ورسائل، ومحاضرات:

أ ـ المقالات:

ـ «السعادة العظمى» (مجلة صدر عددها الأول في نيسان ١٩٠٤ بتونس، وأغلب مقالاتها من تحريره، واستمرت حتى كانون الثاني ١٩٠٥).

---

(١) كانت والدته في حال صغره عند ملاطفتها له تردد الدعاء له بقولها باللهجة الشعبية: «لَخْضَر يا لَخْضَر، تكبر وتُوَلّى شيخ لَزْهَرْ».

- «رسائل الإصلاح» (مقالات في الأخلاق والاجتماع والدين)[١].
- «بلاغة القرآن»[٢].
- «تونس وجامع الزيتونة»[٣].

ب ـ المحاضرات:

- «الحرية في الإسلام»[٤].
- «حياة اللغة العربية»[٥].
- «العظمة النبوية»[٦].
- «الخطابة عند العرب»[٧].
- «علماء الإسلام في الأندلس»[٨].

ج ـ الكتب:

- «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» (رد على الشيخ عبد الرازق في أسلوب الحكم في الإسلام)[٩].

---

(١) طبعت في حياته، ثم أعيد طبعها بدمشق ١٩٧١م.
(٢) ط دمشق ١٩٧١م.
(٣) ط دمشق ١٩٧١م.
(٤) ألقاها في تونس سنة ١٩٠٦، وطبعت سنة ١٩٠٩.
(٥) ألقاها في تونس سنة ١٩٠٩، وطبعت في السنة نفسها.
(٦) ألقاها في القاهرة سنة ١٩٢٨، وطبعت في السنة نفسها.
(٧) ألقاها في القاهرة سنة ١٩٢٨، وطبعت في السنة نفسها.
(٨) ألقاها في القاهرة سنة ١٩٢٨، وطبعت في سنة ١٩٢٩.
(٩) ط١٩٢٦م.

- «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» (رد على الدكتور طه حسين)[١].
- «دراسات في العربية وتاريخها»[٢].
- «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان»[٣].
- «مناهج الشرف».
- «طائفة القاديانية».
- «مدارك الشريعة الإسلامية».

د ـ الرسائل والبحوث:

- «الدعوة إلى الإصلاح» (محاضرات في إصلاح المجتمع).
- «الخيال في الشعر العربي».
- «القياس في اللغة العربية».
- «محمد رسول الله وخاتم النبيين».

وبدأ محمد الخضر بنظم الشعر وله اثنتا عشرة سنة. ثم نضج شعره. وله ديوان سماه: «خواطر الحياة»، تناول فيه أغراضاً شعرية متنوعة، أهمها: الإخوانيات، والرثاء، والوصف، والوجدانيات، والإسلاميات، إضافة إلى ما أهمه من قضايا وطنه الكبير.

ومن ذلك قوله بمناسبة احتلال الإيطاليين لليبيا:

ردوا إلى مجدنا الذكر الذي ذهبا　　　يكفي مضاجعنا نوم دهى حقبا

---

(١) ط١٩٢٧م.

(٢) ط١٩٦١ دمشق.

(٣) ط١٩٧١ دمشق.

ولا تعـود إلـى شـعب مجادتـه … إلا إذا غـامرت هماتـه الـشهبا
حيـاكم الله قـومي إنّ خـيلكم … قد ضمّرت والسباق اليوم قد وجبا

وقال في رثاء أمه التي توفيت سنة (١٣٣٥/ ١٩١٦):

قطّـب الـدهر فأبـديتِ ابتـساما … وانتضى الخطب فما قلت سلاما
لـست أدري أن فـي كفيـك يـا … دهـر رزءاً يمـلأ العـين ظلامـا
لـست أدري أنـك القـاذف فـي … مهجتـي نـاراً ومُـذْكيها ضـِراما
فـإذا العـين تـرى عـن كثـب … كيف تلقى نفسي الأخرى حِماما
يـا سـقاةَ التـراب مـاءً هـاكُم … عبراتـي إنّ فـي الجفـن جمامـا
أفـلا يبكـي الفتـى نازحـة … سهرت من أجله الليـل ونامـا؟!
(بنـت عـزوز) لقـد لقنتنـا … خـشية الله وأن نرعـى الـذماما
ودرينـا منـك ألا نـشتري … بمعالينـا مـن الـدنيا حُطامـا
ودرينـا كيـف لا نعنـو وإن … حارب الحق وإن سـل الحـساما
كنـتِ نـوراً فـي حمانـا مثلمـا … مجتلـى البـدر إذا البـدر تـسامى
كان لـي منـك إذا أشـكو النـوى … كتـب تحمـل عطفـاً وسـلاما
فادخلي فـي سـلف قمـتِ علـى … هديـه الحـق وأحـسنتِ القيامـا
واسعدي نزلاً إلـى الملقـى إلـى … يوم لا نخشى على الأنس انصراما

وقال عندما دخل القطار في بساتين دمشق لأول مرة سنة ١٣٣٠هـ:

لـج القطـار بنـا والنـار تـسحبه … مـا بـين رائـق أشـجار وأنهـار
ومن عجائب ما تدريه فـي سَفَر … قـوم يقـادون للجنـات بالنـار

ومن جميل شعره قوله:

أنشدتنا شعر لهفان على ... وصل ليلى وليالي الرقمتين
قلت خلّي ذكر من قال ولم ... يبرز المعنى: رأت بدراً بعيني
واذكري يوم تلاقينا على ... ربوة والماء صافٍ كاللجين
غادة ترنو إلى ورد الربا ... وفتى يلحظ ورد الوجنتين

وهذه الأبيات تشير إلى قول الشاعر المشهور:

رأت قمر السماء فأذكرتني ... ليالي وصلها بالرقمتين

وقال:

رأت إذ كنت تخطبها غراماً ... ومن بعد البناء رأت نشوزا
أكانت يوم خطبتها فتاة ... وصارت إذ بنيتَ بها عجوزا؟!
هي العقبى لمن ركبت هواها ... وكم أخزى الهوى عرضاً عزيزا
ولو نشدت أخا خلق مجيدٍ ... بنت حرزاً لعصمتها حريزا

وقال يخاطب صلاح الدين الأيوبي:

لو لم تبلّغك الحياة مناكا ... لكفاك أنك قد قهرت عداكا
لك سيرة كادت تمثل للنهى ... بشراً ينافس في العلا أملاكا
ومفاخر يوم استغاث الشرق من ... خطر ألم ولم يُجره سواكا
أيتاح للشرق المعذب ذائد ... يرمى ويبلغ في النضال مداكا؟

وقال في حب الوطن:

وطني علمتني الحب الذي ... يدع القلب لدى البين عليلا
لا تلمني إن نأى بي قدر ... وغدا الشرق من الغرب بديلا

عزمـــة قـــد أبرمتهـــا همـــة وجدت للمجد في الظعن سبيلا
أنـا لا أنـسى علـى طـول النـوى وطنـــاً طـــاب مبيتـــاً ومقـــيلا
فـــي يمينـــي قلـــم لا ينثنـــي عن كفاح ويـرى الـصبر جمـيلا
هـو ذا طـاعنْ بـه خـصمك مـن قبل أن تخترط الـسيف الـصقيلا

وعندما زار مصنع الزجاج بدمشق قال:

إن هـــذا الزجـاج يُـصنع كأسـاً ليبيـــت الحلـــيم منـــا ســـفيها
ويـصوغ الـدواة مـن بعـد كـأسٍ ليـــصير الجهـــول حبـــراً نبيهـــا
فهـــو كالفيلـــسوف ينفـــث غيـــاً ثـــم يـــأتي بمـــا يـــروق الفقيهـــا

كان الشيخ محمد الخضر رجل علم وشريعة، متمكناً في علومه، الأمر الذي أهّله لمشيخة الأزهر، معتدلاً في أموره، غير متعصب في دينه، ولا مجدد التجديد الذي يحمّل الشريعة فوق ما تتحمل، فقد كان يتمسك بالقرآن الكريم، والسنّة المطهرة، ويعتمد عليهما الاعتماد المطلق، ويقول في هذا المجال: «يقع في وهم من لا يدري ما الإسلام: أن شريعته لا توافق حال العصر الحاضر، ويبني توهمه هذا على أن القوانين إنمـا تقوم على رعاية المصالح، ومصالح العصور تختلف اختلافاً كثيراً. فالدعوة إلى بقاء أحكامها نافذة، هي في نظره دعوة إلى خطة غير صالحة، ذلك ما نقصد إلى تفنيده، وتفصيل القول في دفع شبهته، حتى يثبت بالدليل المرئي رأي العين: أن الشريعة الغراء تساير كل عصر، وتحفظ مصالح كل جيل».

وكان الشيخ محمد الخضر لغوياً، مصلحاً، دؤوباً على العلم والعمل، هادئ الطبع، وقوراً، خصص قسماً كبيراً من وقته لمقاومته الاحتلال.

توفي بالقاهرة في ١٣ رجب ١٣٧٧هـ، وفق ٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨م.

وحضر تشييع جنازته كبار رجال الدولة، وعدد من علماء الشرق، ودفن في المقبرة التيمورية بوصية منه، حذو صديقه العلامة أحمد تيمور.

* المراجع:

- «الأعلام» (٦/ ١١٤)، خير الدين الزركلي.
- «أعلام الإسلام» (٢٦٩)، محمد سعيد الطناوي.
- «أعلام الفكر الإسلامي» (٣٧٨ ـ ٣٨١)، أحمد تيمور.
- «تاريخ المجمع العلمي العربي»، أحمد الفتيح.
- مجلة «مجمع اللغة العربية» (٥/ ٥٠، ٣٩٦، ٥٦٩ ـ ٦/ ٥٧٧ ـ ٧/ ٢، ٤٧٥ ـ ٨/ ٤١٠ ـ ٩/ ٩ ـ ٣٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨ ـ ١٥/ ٢٨٥).
- «مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً»، مهدي علاّم.
- «محاضرات المجمع العلمي العربي».
- «محمد الخضر حسين» (سلسلة أعلامنا)، أبو القاسم محمد كرو.
- «محمد الخضر حسين: حياته وآثاره»، محمد مواعدة.
- «معجم المؤلفين» (٩/ ٢٧٩ ـ ١٣/ ٤١٨)، محمد رضا كحالة.
- «المعجم الوجيز للمستجيز».
- «ملف الشيخ محمد الخضر حسين في المجمع العلمي العربي بدمشق».
- «يوم ميسلون»، ساطع الحصري.



مشاهير القرن العشرين
محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر
وأحد زعماء النهضة الإسلامية[1]

محمد بوذينة

«نفطة» تونس ٢٣ جويلية ١٨٧٣ ـ القاهرة ١٢ فيفري ١٩٥٨ .

نشأ بـ «نفطة»، ثم التحق بجامع الزيتونة، وتفقه إلى أن صار من العلماء الأفذاذ.

أسس أول مجلة صدرت بتونس وهي مجلة «السعادة العظمى» (١٩٠٤)، وتولى منصب قاض شرعي بـ «بنزرت» (١٩٠٥)؛ كما تولى الخطابة والتدريس بجامعها الكبير.

وفي سنة ١٩٠٦ تقدم بأول محاضرة علنية قامت في تونس عن الحرية، وهي المحاضرة التي ألقاها في نادي قدماء الصادقية بعنوان: (الحرية في الإسلام)، وهي من الأعمال الأولى الدالة على شجاعته ووطنيته وحبه لبلاده.

وفي نفس السنة قدم استقالته من منصب القضاء، وعاد إلى العاصمة ليلقي دروسه العلمية تطوعاً في جامع الزيتونة. وفي ١٩٠٧ شارك في مناظرة التدريس بالجامع الأعظم، وعين أستاذاً بالمدرسة الصادقية. وانتدبته الجمعية

---

(١) ترجمة الإمام محمد الخضر حسين في كتاب «مشاهير القرن العشرين» للأديب والشاعر والمحقق الأستاذ محمد بوذينة ـ تونس. طبعة عام ١٩٩٤ .

الخلدونية ليلقي دروس الآداب والإنشاء على طلابها.

وفي سنة ١٩١٢ شارك في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وحرم من النجاح باطلاً وعدواناً، فحز في نفسه أن تكون سياسة الظلم والمحاباة مسيطرة على الحياة العلمية بتونس. وبدأ منذ هذه الحادثة يفكر في الهجرة نهائياً إلى الشرق.

في سنة ١٩١٥ رحل إلى المشرق، واستقر بدمشق، وعين أستاذاً في المدرسة السلطانية؛ حيث مكث إلى سنة ١٩١٧، وتحول إلى تركيا وألمانيا، ثم عاد إلى دمشق. وفي سنة ١٩٢١ أصدرت السلطات الاستعمارية حكم الإعدام غيابياً على الشيخ محمد الخضر حسين إثر قيامه في ألمانيا بتحريض المغاربة والتونسيين على الثورة ضد المستعمر.

وفي سنة ١٩٢٢ انتقل إلى مصر لاجئاً سياسياً، وتولى بجامعها الأزهر خطة التدريس، وأسس (رابطة تعاون جاليات إفريقيا الشمالية)؛ كما أسس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) التي قامت بدور فعال في توجيه نضال أبناء المغرب العربي. وأسس (١٩٢٨) جمعية الهداية الإسلامية، وتولى رئاستها، وإدارة مجلتها، والتحرير فيها. كما تولى رئاسة تحرير كثير من المجلات الدينية التي أصدرها الأزهر؛ مثل: مجلة «نور الإسلام»، ومجلة «لواء الإسلام». وفي سنة ١٩٥٢ أسندت إليه مشيخة الجامع الأزهر، وكان قبل تقليده ذلك المنصب أنشأ مجلة «الأزهر» تصدى فيها للدفاع عن الأزهر الشريف.

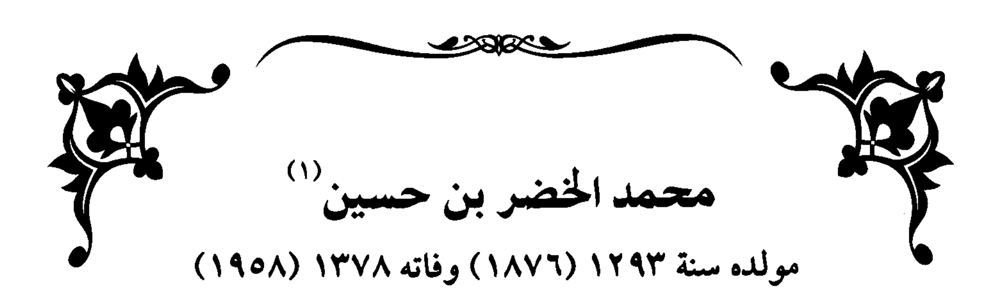
* **أشهر كتبه:**

«حياة اللغة العربية» تونس ١٩٠٩، «الحرية في الإسلام» تونس ١٩٠٩، «الدعوة إلى الإصلاح» تونس ١٩١٠، والقاهرة ١٩٢١، «الخيال في الشعر

العربي» القاهرة ١٩٢٢، «الخطابة عند العرب» القاهرة ١٩٢٧، «العظمة» القاهرة ١٩٢٧، «علماء الإسلام في الأندلس» القاهرة ١٩٢٨، «القياس في اللغة العربية» القاهرة ١٩٣٤، «رسائل الإصلاح» في أجزاء، القاهرة ١٩٣٨، «محمد رسول الله وخاتم النبيين» القاهرة ١٩٣٨، «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان» القاهرة ١٩٣٩، «بلاغة القرآن» القاهرة ١٩٤٤، «أسرار التنزيل» القاهرة ١٩٤٤، وديوان شعره «خواطر الحياة» القاهرة ١٩٤٦.

كان الشيخ الخضر يتمنى أن لا يموت حتى يرى وطنه حراً مستقلاً، وأدرك ما تمناه؛ حيث توفي سنة ١٩٥٨، ودفن في المقبرة التيمورية بالقاهرة.

❐ ❐ ❐



محمد الخضر بن حسين[1]

مولده سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦) وفاته ١٣٧٨ (١٩٥٨)

حسن حسني عبد الوهاب

نشأ في مدينة «نفطة» من بلاد الجريد التونسي في وسط ديني وعلمي، وانتقل والده إلى العاصمة، والتحق هو بجامع الزيتونة؛ حيث درس العلوم الإسلامية واللغوية، وتخرج بشهادة ذلك المعهد المبارك ـ سنة ١٣١٦ (١٨٩٨)، وأسس مجلة «السعادة العظمى» في مختلف المسائل الدينية والأدبية.

ثم إنه عيّن لمجلس القضاء الشرعي بمدينة «بنزرت»، وألقى عدة محاضرات اجتماعية مفيدة، وتولّى التدريس بالزيتونة، وفي عام ١٣٣٠ (١٩١٢) انتقلت عائلته إلى سكنى الشام، واتخذت مدينة دمشق مقراً ومسكناً، فعيّن مدرساً للغة والفلسفة الإسلامية، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى اتهمته السلطات التركية بالمؤامرة ضد أمن الدولة، وفي محاكمته ظهرت براءته، وأُطلق سبيله (١٣٣٥ ـ ١٩١٧)، فمن شعره وهو في السجن يشتكي منعه من تدوين خواطره:

---

(١) ترجمة الإمام محمد الخضر حسين في كتاب «مجمل تاريخ الأدب التونسي ـ من فجر الفتح العربي لإفريقية إلى العصر الحاضر» للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ـ تونس. طبعة عام ١٩٦٨ تونس.

غَلّ ذا الحبس يدي عن قلم كان لا يصحو عن الطرس فنامَا
هل يذود الغمض عن مُقلته أو يلاقي بعده الموت الزؤاما
أنا لولا همّة تحدو إلى خدمة الإسلام آثرت الحِماما
ليستِ الدنيا وما يقسم من زهرها إلا سراباً أو جَهاما[1]

وعاد بعد حين إلى دمشق، ومنها تحوّل إلى مصر، وتقلب في عدة وظائف علمية، منها: تدريس البلاغة بالأزهر ـ عام ١٣٤٧ (١٩٢٨)، واشتغل بجمعية (الهداية الإسلامية)، وكان رئيس تحرير مجلتها. ولم يزل الشيخ ـ رحمه الله ـ يتداول أعلى المراتب إلى أن تقلد في العهد الجمهوري وظيفة (مشيخة الجامع الأزهر)، وهي بمثابة مشيخة الإسلام في البلاد الأخرى.

وقد حصلت له بمصر شهرة واسعة، وإجلال كبير من أصدقائه وتلاميذه الوفيرين.

وكان ـ رحمه الله ـ في كتاباته العلمية والأدبية غزير المادة، متين اللفظ، تغلب عليه الآراء الحكمية، والوصف الدقيق.

فمن شعره في معنى الحياة:

إن الحياة هي الأيام زاهرة ولا أرى الموت غير العيش في نكد
ولا يطيب الفتى عيشاً إذا نسجت في أرضه مزنة والناس في جَرَدِ
وإنما الشعب أفراد مؤلفة في هيئة الفرد ذو قلب وذو جَسَدِ
أما الفؤاد فأرباب السياسة إن هُمُ بخير فباقي الجسم في رَشَدِ

---

(١) الجهام: سحاب لا ماء فيه، ويقال: جاءني من هذا الأمر بجهام؛ أي: بما لا خير فيه.

وإن زكـت أمـة لانـت قلادتُهـا ... بكفّ قائدها في السهل والسَّنَدِ
والعزّ في الدولة العظمى إذا بُنِيَتْ ... على أساس من الأحكام مطّردِ
تحمي حقوق بني الإنسان قاطبةً ... لا يعتلي أحد منهم على أحدِ

وله قصيد رائع في حيوية اللغة العربية، مطلعه:

بـصري يـسبح فـي وادي النظـرْ ... يتقـصّى أثـراً بعـد أثـرْ
وسـبيل الرشـد ممهـود لَمـن ... يتجافى الغمض ما اسطاع السهر
إنمـا الكـون سـجلٌّ رُسـمتْ ... فيـه للأفكـار آيٌ وعِبَـر

ومنها:

لُغَـة أودع فـي أصـدافها ... مـن قـوانين الهـدى أبهـى دُرَرْ
لُغـة نهـصر مـن أغـصانها ... زهـر آداب وأخـلاق غُـرَر
ضاق طوْق الحصرعن بسطتها ... ولآلـي البحـر ليـستْ تنحـصر
فـاض مـن نهـر مبانيهـا علـى ... فُـصَحاء العُـرب سـيْلٌ منهمـر
فـسرت روح بيـان فـي اللّهـى ... كخـصيب الأرض يحييـه المطـر
وابنهـا المنطيـق إن زُجَّ بـه ... فـي مجـال القـول جَلَّـى وبهـر
يـسبك المعنـى متـى شـاء علـى ... صـيغ، شـأن الغنـي المقتـدر
ثـم لا يعـوزه الـسيرُ علـى ... وضـعها فـي كـل معنـى مبتكـر
فاسـأل التـاريخ يُنبيـك بمـا ... أنجبـت أرض قـريْش ومُـضر
مـن خطيـب مـصقع أو شـاعر ... مفلـقٍ يـسحب أذيـال الفَخَـر
ضربت فـي كـل شـرب ينتحـي ... من فنون الحسن بالسهم الأغـر

أرشـفت مـن شـنب الرقّـة مـا ... يـذهل الـسامع عـن نَغـم الـوَتَر

ومنها:

والكـلام الجـزل وضـعاً واقـع ... موقع الـسيف إذا الـسيف خطـر
ضـلَّ قـوم سـلكوا فـي حفظهـا ... سـبباً أوهَـن مـن حبـل القمـر
واحتست في نُطق بعضٍ أحرفـاً ... من لُغَى أخرى فأضـناها الخـدر
بعض مَـن لـم يفقهـوا أسـرارها ... قـذفوها بمـوات مـستمر
نفـروا عنهـا لِـواذاً وإذا ... جفّ طبع المرء لـم تُغـن النُّـذُر
هكذا في نظـر الأعـشى اسـتوى ... زهـرُ روض وهـشيم المحتظـر
لغـة قـد عـضد الـدين لهـا ... ذمّـة يكلؤهـا كـل البـشر
أوَلَـمْ تنـسج علـى منوالهـا ... كلـم التنزيـل فـي أرقـى سُـوَر؟
يـا لَقـومي لِوفـاء إنَّ مَـنْ ... نكث العهـد أتـى إحـدى الكُبَـرْ
فـأقيموا الوجـه فـي إحيائهـا ... وتلافـوا عِقـد مـا كـان انتشـر

وله يرثي والدته:

قطّـب الـدهر فأبـديت ابتـساما ... وانتضى الخطب فما قلت سلاما
لـستُ أدري أن فـي الأرزاء مـا ... يرسل الدمع على الخـدّ سـجاما
لـست أدري أن فـي كفّـك - يـا ... دهـر - رُزْءاً يمـلأ الأفـق ظلامـا
لـست أدري أنـك القـاذف فـي ... مهجتـي نـاراً ومُـذكيها ضـراما
فـإذا العـين تـرى شاخـصة ... كيـف تلقـى ربّـة العـزّ الحِمامـا
كيـف توريهـا أكـف فـي الثـرى ... كيف تحثو فوقهـا التـرب رُكامـا

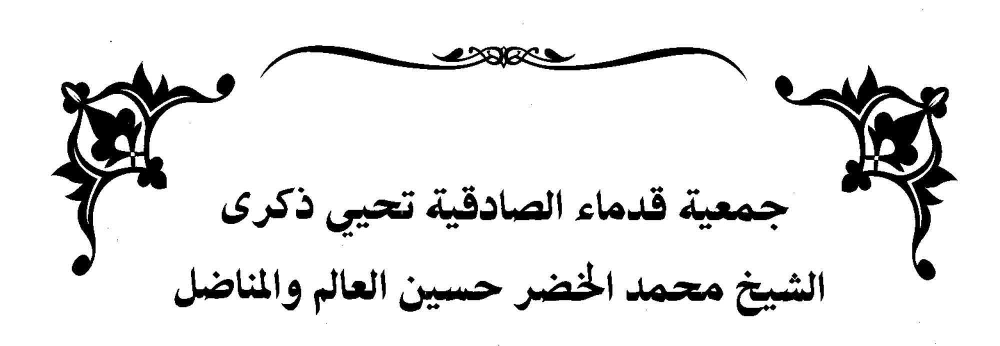
أودعوهـا قعـر لحـدٍ ضـربوا فوقـه مـن لازب الطـين خِتامـا
يـا سُـقاة الطـين بالمـاء خـذوا عبَراتـي إن فـي الجفـن جمامـا
وضـعوا إن شـئتم مـن حـدقي بل من القلب على القبر سِناما

ومنها:

إن جفـتْ بالعتـب أمٌّ فهـي قـد ضـربتْ مـن خلـق الحِلـم لِثَامـا
أفـلا يبكـي الفتـى نازحـةً سـهرت مـن أجلـه الليـل ونامـا
وانثنـت ترشـفه مـن أدب مُـذْ لهـا مـن لَبَن الثـدي فِطامـا
كنـتِ نـوراً فـي حمانـا مثلمـا نجتلـي البـدر إذا البـدر تـسامى
كنـتِ لـي دوحـةَ أُنـس أينمـا سرت أهدت نفحَ وردٍ وخُزامـى
كان لـي مـن قلبـك الطـاهر فـي كـل يـوم دعـوة لا تترامـى
كان لـي منـك إذا أشـكو النـوى كُتُـبٌ تحمـل عطفـاً وسـلاما
لهـفَ قلبـي بـات لا يرجـو لقـا ءَكِ إلا أن يـرى الطيـف منامـا

وهي طويلة تقتصر على ما أوردنا من عيونها.

❒ ❒ ❒



جمعية قدماء الصادقية تحيي ذكرى الشيخ محمد الخضر حسين العالم والمناضل

محمد بن رجب[1]

جانب كبير من الشباب التونسي، وبعض أهل الثقافة لا يعرفون أن الشيخ محمد الخضر حسين، من مواليد «نفطة» عام ١٨٧٣ تولى مشيخة الجامع الأزهر عام ١٩٥٢؛ أي: بعد أشهر قليلة من قيام الثورة المصرية التي قادها الضباط الأحرار.

وقد أمضى على وثيقة تعيينه في هذا المنصب العلمي الرفيع الرئيس محمد نجيب بنفسه، فقد كان يعرفه، ويكنّ له المحبة الخالصة، واستقبله في القصر الرئاسي أكثر من مرة قبل أن يقدم استقالته من الأزهر عام ١٩٥٤. وكان يومها قد تجاوز الثمانين، ولم يعد قادراً على تحمل أعباء العمادة العلمية.

هذا الرجل الذي أصبح أحد زعماء النهضة العربية والإسلامية منذ العشرينات، خرج من تونس بحرقة في القلب بعد أن أثبت جدارته، وأكد حضوره العلمي، فجلب له الأعداء والمتآمرين عوض أن يجلب إليه المساندين والمؤيدين.

---

(١) كاتب وصحفي تونسي معروف ـ جريدة «الصباح» التونسية، العدد الصادر في (١٠ رمضان ١٤١٨هـ ٩ كانون الثاني جانفي ١٩٩٨م).

ولكنه رجل علم من خيرة ما أنجبت تونس، ولأنه درَّس في المعهد الصادقي في السنوات الأولى من هذا القرن الذي يستعد للرحيل، ولأنه ألقى أولى محاضراته الثقافية بهدف تحريك الهمم على منبر جمعية قدماء الصادقية، فإن هذه الجمعية التي ما زالت نشيطة، بل هي اليوم من أنشط الجمعيات الثقافية في تونس، مقرّة العزم على إقامة الذكرى الأربعين لوفاته.

وسيكون الموعد يوم الجمعة القادم ١٥ جانفي، وسيتولى الأستاذ محمود شمام الحديث عن الراحل محمد الخضر حسين لإبراز خصاله وفكره ونضالاته، كما يقوم الأستاذ البشير العريبي بالحديث عن شاعرية شيخ الأزهر من خلال شعره الغزير الذي كتبه في تونس أو في مصر، والذي صدر في ديوان عنوانه «خواطر الحياة» عام ١٩٤٦.

ستكون سهرة ثقافية طيبة فيها الذكر الحسن، وفيها اعتراف بما قدمه محمد الخضر للغة العربية طيلة ٦٥ سنة، كانت زاهرة بالعطاء العلمي من خلال التدريس والمحاضرات، فضلاً عن مؤلفاته الكثيرة.

وللإفادة نشير إلى بعض جوانب من حياة المحتفى بذكراه، مستعينين بكتاب «مشاهير التونسيين» للأستاذ محمد بوذينة، الذي عاد هو أيضاً في ترجمته لمحمد الخضر حسين إلى بعض المراجع، في مقدمتها كتاب لأبي القاسم محمد كرو عنوانه «أركان النهضة الأدبية في تونس».

شيخ الأزهر إذاً هو من مواليد «نفطة» بالجنوب الغربي التونسي يوم ٢٣ يوليو جويليه ١٨٧٣. وهناك تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بجامع الزيتونة، وواصل دروسه إلى أن أصبح فقيهاً في الدين الإسلامي، ومختصاً في اللغة العربية وآدابها.

وفي سنة ١٩٠٤ دخل إلى الساحة الفكرية من الباب الواسع؛ إذ أسس مجلة اختار لها اسم «السعادة العظمى»، كان لها الأثر الطيب على طلبة العلم وأهل المعرفة.

وبعد سنة واحدة تولى منصب القضاء في «بنزرت»، وباشر التدريس بجامعها الكبير؛ حيث كان الخطيب الأول.

وفي عام ١٩٠٦ ألقى محاضرة على منبر نادي قدماء الصادقية بعنوان: (الحرية في الإسلام)، وهي المحاضرة العلنية الأولى في تونس عن الحرية لاستنهاض الفكر، وتحريك السواكن ضد المستعمر الفرنسي، وقد سجل بهذه المحاضرة أنه لن يكون من الصامتين، بل هو رجل وطني غيور، يحب بلاده، وهو على استعداد للتضحية.

ولأنه أحس بأن الساحة الفكرية والنضال الوطني يستدعي بقاءه في العاصمة، فإنه استقال من منصب القضاء ببنزرت، وانتمى إلى جامع الزيتونة لإلقاء دروس علمية متطوعاً.

وانتدبه المعهد الصادقي أستاذاً لتلاميذه عام ١٩٠٧، كما انتدبته الجمعية الخلدونية لإلقاء دروس الآداب والإنشاء على طلابها.

وفي سنة ١٩١٢ شارك في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، فحرم من النجاح باطلاً حسب تأكيدات الكثير من العارفين بتلك الفترة، وبعضِ معاصريه.

ولقد فهم محمد الخضر حسين أن عملية محاربته ليست بسيطة، فحزّ ذلك في نفسه، واستفحل الإحساس بالقهر في أعماقه، فظلمُ الأقربين أشد على النفس من ظلم الآخرين، وخوفاً على مستقبله، هاجر إلى المشرق العربي،

وحط رحاله في البداية بدمشق عام ١٩١٥، حيث عُيِّن أستاذاً في المدرسة السلطانية، فاشتغل بها سنتين، ثم تحول إلى تركيا وألمانيا، ثم عاد إلى دمشق عام ١٩٢٠.

وفي تركيا وألمانيا كان يدعو إلى الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، ولذلك فإن السلطات الاستعمارية أصدرت عليه حكم الإعدام عام ١٩٢١، فهرب إلى مصر لاجئاً سياسياً باعتبار أن فرنسا كانت تستعمر سورية أيضاً، واختياره لمصر يعود إلى أنها كانت تحت الهيمنة البريطانية.

وفي مصر انتمى إلى جامع الأزهر، وبدأ التدريس به عام ١٩٢٢، فلمع في الوسط العلمي والطلابي، وأسس رابطة تعاون جاليات أفريقية الشمالية، كما أسس جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية، التي قامت بدور فعال في توجيه نضال أبناء المغرب العربي.

وهذه التعليمات التأسيسية للجمعيات المغاربية تؤكد أن الرجل لم ينسَ تونس، فلم يخرج غاضباً عنها، إنما خرج غاضباً من فئة كانت تتحكم في التعيينات للطبقة الأولى بجامع الزيتونة، فلقد عمل ما في وسعه لخدمة النضال التونسي، وخدمة النضال المغاربي بصفة عامة.

ففي النصف الثاني من العشرينات إذاً لمع اسمه، وتعرف عليه جُلّ أهل المعرفة. وبدأت كتابته تكتسح البلاد العربية والإسلامية، فقد أسس عام ١٩٢٨ جمعية (الهداية الإسلامية) التي كانت تصدر مجلة تولى هو بنفسه رئاسة تحريرها، كما تولى رئاسة تحرير مجلات عديدة أخرى، آخرها مجلة «الأزهر» التي خصصها للدفاع عن جامع الأزهر. . وهذا الدفاع جعل منه رمزاً من رموز الجامع، ورمزاً من رموز المدافعين عن الإسلام بعيداً عن التعصب

ودعاة الظلام والركون إلى الكهوف. ولذلك استحق أن يكون إمام الأزهر، وعميده، وشيخه الأكبر عام ١٩٥٢.

وقد توفي الراحل يوم ١٢ فيفري ١٩٥٨، ودفن في المقبرة التيمورية بالقاهرة. وقد ذكر محمد بوذينة أن محمد الخضر حسين كان يتمنى أن لا يموت إلا بعد أن تنعم تونس باستقلالها، وحقق الله أمنيته، إذ عاش سنتين في عهد الاستقلال، لكنه لم ينعم بالعودة.

وفي كلمة: كان الرجل مناضلاً ضد الاستعمار، وله رؤية شمولية للأمة العربية، ويؤمن بالمغرب العربي، ووطني صادق في دفاعه عن تونس وعن استقلالها.

وللعلم: فقد أصدر ثلاثة مؤلفات في تونس من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٠، وهي على التوالي: «حياة اللغة العربية»، و«الحرية في الإسلام»، و«الدعوة إلى الإصلاح»، وهذا الكتاب الأخير أعاد نشره في القاهرة عام ١٩٢١، وفي عام ١٩٢٢ أصدر كتاب «الخيال في الشعر العربي»، ثم عام ١٩٢٧ صدر له كتاب «الخطابة عند العرب»، وفي نفس السنة كتاب «العظمة»، وبعد سنة كان كتابه «علماء الإسلام في الأندلس».

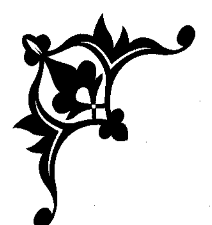
وفي سنة ١٩٣٤ صدر كتابه الذي يحمل عنوان «القياس في اللغة العربية»، يليه كتاب «رسائل الإصلاح» في ثلاثة أجزاء عام ١٩٣٨.

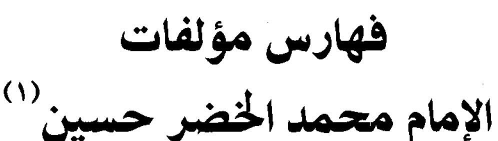
وله كتب أخرى دينية، كلها تدعو للإصلاح من الوجهة السلفية، ولكنه كان يدعو أيضاً إلى الأخذ بالعلم والمعرفة، واستعمال العقل، كما أنه لم يكن حداثياً حسب رؤية طه حسين وبعض العائدين من الجامعة الفرنسية والإنكليزية، بل قاوم التجديد، وكتب ضد طه حسين من رؤية التجديد الديني، وإن كان

يرغب في النهضة بالمجتمع من خلال محاربة الجمود والرفع من مستوى المرأة.

وفي الأخير: أريد أن أشير إلى أني قبل كتابة هذه الأسطر اتصلت بالأستاذ حمادي الساحلي، فحدثني عن الخضر حسين، وأبرز أهم الجوانب في شخصيته الدينية والنضالية، والإصلاحية السلفية، وذكر لي أن عدداً كبيراً من كبار الشخصيات التونسية درس على يديه في الصادقية، والخلدونية، فضلاً عن الزيتونة لما كان متطوعاً بالجامع، ومن بين تلاميذه المشاهير: الدكتور محمود الماطري، ومحمد بن الحسين الصحفي الذي كان تأثيره كبيراً على الساحة الثقافية والإعلامية التونسية لسنوات عديدة.





فهارس مؤلفات
الإمام محمد الخضر حسين[1]

*** أسرار التنزيل:**

تفسير سورة الفاتحة ـ تفسير آيات: من سورة البقرة، من سورة آل عمران، من سورة الأنفال، من سورة يونس، من سورة الحج، من سورة ص.

*** بلاغة القرآن:**

بلاغة القرآن ـ نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ـ رأي في تفسير القرآن ـ أمثال القرآن الكريم ـ المحكم والمتشابه في القرآن ـ اليمين في القرآن والحديث ـ الرقية والاقتباس والاستخارة والقرآن ـ إعجاز القرآن وبلاغته ـ ترجمة القرآن ـ حقيقة ضمير الغائب في القرآن ـ القرآن لا يقول إلا حقاً ـ الفن القصصي في القرآن ـ تحريف آيات الحدود عن مواضعها ـ كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد ـ كتاب يلحد في آيات الله ـ قصة أيوب عليه السلام ونقض آراء حديثة في تفسيرها.

---

(١) تسهيلاً للبحث العلمي والباحث نثبت فهارس الكتب المطبوعة للإمام محمد الخضر حسين. باستثناء ديوان شعره «خواطر الحياة»، والكتب التي حققها وعلق عليها ـ رضوان الله عليه ـ.

• محمد رسول الله وخاتم النبيين:

أديان العرب قبل الإسلام ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين[1] ـ صبر محمد عليه السلام ومتانة عزمه ـ الهجرة النبوية ـ رفقه وحكمته البالغة في السياسة ـ نظرة في دلائل النبوة ـ عظمة رسول الله ﷺ وهدايته ـ شجاعته ﷺ ـ منقذ العالم من الظلمات ـ آداب الدعوة وحكمة أساليبها ـ رجاحة عقله ﷺ وحكمة رأيه ـ هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام ـ إبادته ﷺ للأصنام ـ حياة الدعوة الإسلامية بجزيرة العرب ـ قضاء البعثة المحمدية على المزاعم الباطلة ـ البلاغة النبوية ـ الاحتفال بذكرى الهجرة النبوية ـ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ـ الهجرة مبدأ التاريخ العام في الإسلام ـ المعجزات الكونية ـ من آداب خطب النبي ﷺ ـ في الهجرة بركة ـ العظمة ـ الهجرة وشخصيات الرسول ﷺ ـ ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ ـ تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول ﷺ ـ ذكرى المولد ـ ذكرى المولد النبوي ـ مشاهداتي في الحجاز.

• تراجم الرجال:

نظرة في ناحية من خلافة عثمان ـ موسى بن نصير ـ علي زين العابدين ـ محمد الباقر وزيد ـ نظرة في حياة عمر بن عبد العزيز ـ نظرة في حياة الإمام مالك بن أنس ـ صقر قريش وكيف تأسست الدولة الأموية بالأندلس ـ أبو داود وكتابة «السنن» ـ صفحة من حياة أبي الحسن الأشعري ـ القاضي أبو الحسن الجرجاني ـ حجة الإسلام الغزالي ـ أبو بكر بن العربي ـ أحمد تيمور باشا.

---

(١) بحث مطبوع في رسائل مستقلة.

*** الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان:**

الاجتهاد في أحكام الشريعة ـ بناء الشريعة على حفظ المصالح ودرء المفاسد ـ الأصول النظرية الشرعية ـ القياس ـ الاستصحاب ـ مراعاة العرف ـ سد الذرائع ـ المصالح المرسلة ـ الاستحسان ـ مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها[1] ـ النسخ في الشريعة الإسلامية ـ «صحيح البخاري» وأثره في حفظ الشريعة ـ السنّة والبدعة ـ الرؤيا ليست طريقاً للأحكام الشرعية ـ وجوب العمل بالحديث الشريف ـ أسباب وضع الحديث ـ الحديث المتواتر وحكم ما رواه الإمامان البخاري ومسلم ـ اجتهاد ابن القاسم ـ ليلة النصف من شعبان ـ نظرة في أحاديث المهدي ـ لا عدوى ولا طيرة ـ باب في حديث السحر ـ السنن والحكم النبوية ـ شرح مسألة الاقتداء بالمذهب المخالف ـ صنع الصور واقتناؤها ـ مكافحة الجشع والغش في المعاملات المالية ـ التصوف ـ تعدد الزوجات ـ الأخذ بالديْن ـ الفتاوى والأحكام.

*** دراسات في الشريعة الإسلامية:**

الله موجود ـ الأحكام العادلة ـ كيف تستنبط القواعد من الكتاب والسنّة ـ الحديث الصحيح حجة في الدّين ـ الشهادة وأثرها في إقامة الحقوق ـ الذرائع: سدها، وفتحها ـ مراعاة العرف ـ حكمة الإسلام في العزائم والرخص ـ موقف الإسلام من الرؤيا وتأويلها ـ الكبيرة والصغيرة ـ الذوق وفي أي حال يعتد به ـ النذر ـ المتعة ـ استحضار الأرواح ـ حكم الإسلام فيمن بلغته الدعوة ـ العدوى والطيرة ـ الزكاة وأثرها في نهوض الأمة ـ الغيبة وأثرها في النفوس

---

(١) بحث مطبوع في رسالة مستقلة.

ـ حقوق الزوجية ـ صلاة الجماعة وأثرها في اتحاد الأمة ـ الدعوة القائمة على حق ـ فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه ـ مكافحة المظالم موجبة للسلام ـ ما يلاقيه العلماء من المكاره ـ ما يلاقيه العلماء من سماحة أهل العلم ـ ما يلاقيه العلماء من سماحة الأمراء ـ المال المباح في الإسلام ـ الطلاق في الإسلام ـ تعدد الزوجات في الإسلام ـ النظافة في الإسلام ـ العلوم في دائرة الإيمان ـ الرفق بالضعفاء ـ الأدباء العلماء ـ زينة الإنسان حسن السمت ـ المنافقون في عهد النبوة والملاحدة بعده ـ تحقيق مذهب مالك في رفع اليدين عند الركوع والرفع منه ـ تحقيق مذهب مالك في إشارة المصلي في التشهد بأصبعه.

* **رسائل الإصلاح:**

المروءة ومظاهرها الصادقة ـ الإلحاد: أسبابه، طبائعه، مفاسده ـ في مفاسد البغاء ـ كلمة في المسكرات ـ الشجاعة ـ المساواة في الإسلام ـ إباءة الضيم وأثرها في سيادة الأمم ـ عظم الهمة ـ الإسلام والمدنية الحديثة ـ صدق اللهجة ـ فضيلة الإخلاص ـ الأمانة في العلم ـ القضاء العادل في الإسلام ـ الإنصاف الأدبي ـ العلماء والإصلاح ـ المدنية الفاضلة في الإسلام ـ أصول سعادة الأمة ـ صدق العزيمة أو قوة الإرادة ـ الغيرة على الحقائق والمصالح ـ الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم ـ كبر الهمة في العلم ـ الدهاء والاستقامة ـ الانحراف عن الدين ـ ضلالة فصل الدين عن السياسة ـ سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين ـ العزة والتواضع ـ المداراة والمداهنة ـ الرفق بالحيوان ـ محاكاة المسلمين للأجانب ـ الاجتماع والعزلة ـ علة إعراض الشبان عن الزواج ـ النبوغ في العلوم والفنون ـ متى تكون الصراحة فضيلة.

* **محاضرات إسلامية:**

الحرية في الإسلام[1] ـ علماء الإسلام في الأندلس[2] ـ السعادة عند بعض علماء الإسلام[3] ـ التصوف في القديم والحديث ـ الدهاء في السياسة ـ الزينة والرفاهية في نظر الإسلام ـ هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام ـ الصداقة ـ مضار الإسراف ـ تعاون العقل والعاطفة على الخير ـ حقوق الفقراء على الأغنياء في الإسلام ـ السمو الخلقي في الإسلام ـ المعتزلة وأهل السنّة ـ اختلاط الجنسين في نظر الإسلام ـ نقد آراء للأستاذ فريد وجدي.

* **تونس وجامع الزيتونة:**

فقهاء تونس ـ شعراء تونس ـ الحالة العلمية بجامع الزيتونة ـ الدولة الحسينية في تونس ـ الشعر التونسي في القرن الخامس ـ حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية[4] ـ حياة أسد بن الفرات[5] ـ كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ـ نظرة في أدب الشيخ محمود قبادو التونسي ـ نظرة في حياة وزير تونسي ـ محمد ماضور من علماء تونس وأدبائها ـ محمد النجار ـ أحمد أبو خريص ـ محمد بيرم الثاني ـ محمد الخضار ـ محمد النيفر ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ عمر بن الشيخ ـ أحمد كريم ـ محمد بن

---

(١) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٢) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٣) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٤) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٥) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

الخوجة ـ أحمد الورتاني ـ الطاهر بن عاشور ـ علي الدرويش ـ صالح الشريف ـ تونس[1].

*** الرحلات:**

الرحلة والتعارف في الإسلام ـ أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية ـ النهضة للرحلة ـ الرحلة الجزائرية ـ خلاصة الرحلة الشرقية[2] ـ حديث عن رحلتي إلى دمشق ـ رحلتي إلى سورية ولبنان.

*** أحاديث في رحاب الأزهر:**

من الأستاذ الأكبر إلى أبنائه الطلبة ـ شيخ الأزهر يعترض على القبعة ـ لا قيمة للعلم ما لم يلازمه الفضائل الخلقية ـ سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين ـ الميسر وورق اليانصيب ـ أكمل رسالات الله ـ موقف الإسلام من الشيوعية والرأسمالية ـ بيان إلى العالم الإسلامي عن قضايا المغرب ـ هل للمرأة أن تباشر الوظائف العامة ـ الرفق بالحيوان في الشريعة الإسلامية ـ خير نظام للحكم ـ قضية فلسطين وإخلال ألمانيا الغربية بحيادها في اتفاقية التعويضات لإسرائيل ـ الدعوة إلى عقد المؤتمر الإسلامي في القاهرة ـ جيل يؤمن بالأخلاق ـ لماذا صار المسلمون هدفاً للمستعمرين؟ ـ التقليد والمحاكاة في نهضتنا الحاضرة ـ الأزهريون والتدريبات العسكرية ـ الإسلام لا يقر المحسوبية ـ الجهاد أعلى مراتب العبادة في الإسلام ـ الاستعمار يقرب من نهايته ـ العلم بين الأساتذة والطلاب ـ الحج المبرور ـ جددوا أنفسكم في هذا العيد ـ موقف الإسلام من حوادث مراكش ومعاهدة ليبيا ـ إشاعات السوء

---

(١) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٢) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

وموقف الإسلام منها ـ لا تعرف الإنسانية حضارة قاومت الرق كالإسلام ـ الدعوة لتحديد النسل هدم لكيان الأمة ـ رأي الإسلام في شروط التوظيف ـ مولد رسول ومولد رسالة ـ ليس للمرأة شرعاً أن تمارس السياسة ـ طغيان الاستعمار وخطر الشيوعية ـ المعاهدات في الدول الإسلامية ـ أعجبتني هذه الكتب ـ كفانا قوتاً من الكلام ـ واجب الشباب إزاء التوسع الصناعي والزراعي ـ الاحتكار والربح الفاحش حرام كالربا ـ هدية العلماء لفاروق كانت غصباً ـ فقدان الحياء بين النساء هو السبب في أزمة الزواج ـ النفاق والملق والمداراة أمام الحكام وذوي السلطان.

*** الدعوة إلى الإصلاح:**

الدعوة إلى الإصلاح[١] ـ أثر الدين في إصلاح الاجتماع ـ أثر أدب اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح ـ حرية الدعوة دليل على رقي الأمة وعظمة الدولة ـ أصول الإصلاح الاجتماعي ـ من هو الواعظ بحق ـ الإسلام والعلم ـ التربية الدينية والشباب ـ التعليم الديني في مدارس الحكومة ـ العلماء وأولو الأمر ـ تعاون الدولة والأمة على انتظام الأمن ـ من هو الشاب المسلم ـ إلى شباب محمد ﷺ ـ مقاصد الإسلام في إصلاح العالم ـ نهوض الشباب بعظائم الأمور ـ جيل يؤمن بالأخلاق ـ مثل أعلى لشجاعة العلماء واستهانتهم بالموت في سبيل الحق ـ شجاعة العلماء وإنصاف الأمراء ـ محاربو الأديان ونموذج من سلاحهم ـ العلماء وحياتهم الاجتماعية ـ العناية بالتعليم الديني ـ مناهج الشرف[٢].

---

(١) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٢) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

*** القاديانية والبهائية:**

طائفة القاديانية: غلام أحمد، أصله، وولادته، ونشأته ـ ادعاء غلام أحمد الوحي والنبوة والرسالة ـ زعمه أن له آيات على صدقه ـ غروره وتفضيله نفسه على رسل الله الأكرمين ـ تكفيره لمن لا يؤمنون برسالته ـ القاديانية فرقتان ـ وجوب مقاومتهم، والتحذير من دعايتهم.

تفنيد مذهب القاديانية: خيبة مدعي النبوة كذباً ـ انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ ـ دفع شبهة يتشبث بها القاديانية ـ نقض شبه القاديانية ـ البابية أو البهائية.

*** الهداية الإسلامية:**

آداب الحرب في الإسلام[1] ـ الروح العسكرية في الإسلام ـ الطب في نظر الإسلام ـ حقوق الزوجية في الإسلام ـ القضاء العادل ـ مكانة القضاء ـ صفات القاضي في الإسلام ـ شريك قاضي الكوفة وموسى بن عيسى أميرها ـ أكل الجيش أسلفه؟ ـ السياسة الرشيدة في الإسلام ـ الدين والفلسفة والمعجزات ـ حقوق الجار ـ السخاء وأثره في سيادة الأمة ـ الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية ـ حالة الأمة في هذا العصر ـ اليد العليا خير من اليد السفلى ـ خير نظام للحكم ـ سعيد بن جبير والحجاج ـ استعمال الألفاظ في غير مواضعها ومضاره الاجتماعية ـ فضل شهر رمضان ـ بحث موجز في أشهر الفرق الإسلامية ـ إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه حسين ـ الأدوية المفردة بين دسقوريدس وابن البيطار ـ كلمات وخواطر وآراء.

---

(١) بحث مطبوع في رسالة مستقلة.

*** هدى ونور:**

الإسـلام والفلسـفة ـ الحكمة وأثرها في النفوس ـ الحكمة العربية ـ التعاون في الإسلام ـ مكانة الأزهر وأثره في حفظ الدين ورقي الشرق ـ خواطر ـ الشورى في الإسلام ـ طرق الصوفية والإصلاح ـ رسائل إخوان الصفا ـ العمل للكمال ـ الجمعيات الإصلاحية ـ الخلافة الإسلامية ـ العرب والسياسة ـ أسباب سقوط الأندلس ـ الجزائر واستبداد فرنسا ـ الظهير البربري ـ طريق الشباب ـ للحقيقة والتاريخ ـ الشعور السياسي في الإسلام ـ العاطفة والتسامح في الإسلام ـ لهجة بلاد الجزائر ـ الدعوة الشاملة الخالدة ـ التراويح.

*** دراسات في العربية وتاريخها:**

القياس في اللغة العربية[1] ـ حياة اللغة العربية[2] ـ الاستشهاد بالحديث في اللغة ـ موضوع علم النحو ـ التضمين ـ تيسير وضع مصطلحات الألوان ـ طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية ـ حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليها ـ الإمتاع بما يتوقف تأنيثه على السماع.

*** دراسات في اللغة:**

المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية ـ من وُثق من علماء اللغة، ومن طُعن فيه ـ اللهجات العربية في هذا العصر ـ نيابة بعض الحروف عن بعض ـ الأمثال في اللغة العربية ـ وصف جمع غير العاقل بصيغة فعلاء ـ اسم المصدر في المعاجم ـ شـرح قرارات المجمع والاحتجـاج لها ـ نقد اقتراح ببعض الإصـلاح في متن اللغة ـ نقد إعرابين جديديـن في صيغة التحذيـر ـ

---

(١) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

(٢) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

ملاحظات على البحث المقدم لمجمع اللغة العربية عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى ـ الألفاظ المؤنثة من طريق السماع.

*** الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية:**

الخيال في الشعر العربي[1] ـ الشعر البديع في نظر الأدباء ـ أثر الشعر في الترويح عن النفس وإثارة العواطف الشريفة ـ نموذج من نقد الشعر ـ الشعر المصري في عهد الدولة الأيوبية ـ نظرة في شعر حسان بن ثابت ـ الخطابة عند العرب[2] ـ نشأة علم البلاغة ـ الشعر حقيقته ووسائل البراعة فيه ـ قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية ـ البراعة في الشعر.

*** نقض كتاب في «الشعر الجاهلي»:**

تمهيد: منهج البحث ـ مرآة الحياة الجاهلية في القرآن لا في الشعر الجاهلي ـ الشعر الجاهلي واللغة ـ الشعر الجاهلي واللهجات ـ أسباب انتحال الشعر: ليس الانتحال مقصوراً على العرب ـ السياسة وانتحال الشعر ـ الرواة وانتحال الشعر ـ القصص وانتحال الشعر ـ الشعوبية وانتحال الشعر ـ الرواة وانتحال الشعر ـ الشعر والشعراء: قصص وتاريخ ـ امرؤ القيس ـ علقمة ـ عمرو ابن قميئة ـ مهلهل ـ جليلة ـ عمرو بن كلثوم ـ الحارث بن حلزة ـ طرفة بن العبد ـ المتلمس ـ نتيجة البحث.

*** نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم»:**

الخلافة والإسلام: الخلافة وطبيعتها ـ في حكم الخلافة ـ في الخلافة

---

(١) أبحاث مطبوعة برسائل مستقلة.

(٢) أبحاث مطبوعة في رسائل مستقلة.

من الوجهة الاجتماعية ـ الحكومة والإسلام: نظام الحكم في عصر النبوة ـ الرسالة والحكم ـ رسالة لا حكم، ودين لا دولة. الخلافة والحكومة في التاريخ: ـ الوحدة الدينية والعربية ـ الدولة العربية ـ الخلافة الإسلامية.

*** مجلة «السعادة العظمى»[1]:**

مقدمة المجلة: الاستطلاعات ـ الاعتصام بالشريعة ـ الأخذ بالقول الراجح ـ براءة القرآن من الشعر ـ تقسيم الكلام بحسب أغراضه ـ العربية الخالصة ـ البدعة ـ التمدن ـ مهيئات الإبداع ـ التأكيد ـ فلسفة شعرية اقتصادية ـ تحقيق مسألة تاريخية ـ الحياء ـ العمل والبطالة ـ الفصيح من الكلام ـ حياة الأمة ـ المولد النبوي ـ التربية ـ التقدم بالكتابة ـ النهضة للرحلة ـ طرق الترقي في الكتابة ـ فضل ليلة النصف من شعبان ـ الشعر العصري ـ الأحاديث الموضوعة ـ مدنية الإسلام والعلوم العصرية ـ الكلام الجامع ـ الأحاديث الموضوعة ـ رأي الشرع في الصحافة ـ مدنية الإسلام والخطابة ـ كبر الهمة ـ التعاون والتعاضد ـ الديانة والحرية المطلقة ـ منذر بن سعيد ـ الصيام ـ الرحلة الجزائرية ـ الزمان والتربية.

*** نظرات في الإسلام وأصول الحكم:**

بحث في الاحتجاج بالإجماع ـ المسلمون والسياسة ـ كلمات سياسية لبعض علماء الإسلام ـ الإسلام والفلسفة ـ بحث في مبايعة الخلفاء الراشدين، وأنها كانت اختيارية ـ بحث في قوة الإرادة ـ بحث في الخلافة والملك والقوة والعصبية ـ ملوك الإسلام وحرية العلم ـ القرآن والخلافة ـ السنّة والخلافة ـ

(١) أخذنا من المجلة عناوين الأبحاث التي كتبها الإمام محمد الخضر حسين. علماً أن هذه الأبحاث طبعت في كتاب مستقل تحت عنوان «السعادة العظمى».

الإجماع والخلافة ـ شكل حكومة الخلافة ـ وجه الحاجة إلى الخلافة ـ آثارها الصالحة ـ العرب والسياسة الشرعية ـ القضايا التي ترفع إلى الحكام نوعان ـ القضاء في عهد النبوة موكول إلى الأمراء ـ نبذة من مبادئ القضاء في الإسلام وآدابه ـ المالية في عهد النبوة ـ لماذا لم يكن في عهد النبوة إدارة بوليس؟ ـ الملك ـ الرسول عليه السلام ذو رياسة سياسية ـ الجهاد النبوي ـ الجزية ـ المخالفون أنواع ثلاثة ـ سر الجهاد في الإسلام ـ من مقاصد الإسلام أن تكون لأهله دولة ـ وجه قيام التشريع على أصول عامة ـ مكانة الصحابة في العلم والفهم ـ معنى كون الدين سهلاً بسيطاً ـ الاعتقاد بحكمة الأمر لا يكفي للعمل به ـ الشريعة فصلت بعض الأحكام، ودلت على سائرها بأصول يراعى في تطبيقها حال الزمان والمكان ـ الاجتهاد في الشريعة وشرائطه ـ سياسة الشعوب وقضاؤها في العهد النبوي ـ درة عمر بن الخطاب وإدارة البوليس ـ التشريع الإسلامي والزراعة والتجارة والصنائع ـ التشريع الإسلامي والأصول السياسية والقوانين ـ أحكام الشريعة معللة بالمصالح الدنيوية والأخروية، والمصلحة الدنيوية منها هي ما يبحث عنه أصحاب القوانين الوضعية ـ لماذا لم يسم النبي ﷺ من يخلفه ـ تحقيق أنه عليه السلام جاء للمسلمين بشرع يرجعون إليه في الحكومة بعده ـ حكومة أبي بكر وسائر الخلفاء الراشدين دينية ـ أسباب سيادة الإسلام لعهد الخلفاء الراشدين ـ بيعة أبي بكر اختيارية إجماعية ـ كلمة في سيرة أبي بكر ـ هل يقال: خليفة الله؟ ـ حكم المرتدين في الإسلام ـ حكم مانعي الزكاة ـ سبب حروب أهل الردة ومانعي الزكاة ـ واقعة قتل مالك بن نويرة ـ حكمة رأي أبي بكر في تلك الحروب ـ لا حرية للشعوب الإسلامية إلا أن تساس على مقتضى شريعتها ـ ضلالة فصل الدين

6859

عن السياسة ـ خير نظام للحكم ـ العرب والسياسة ـ الخلافة الإسلامية ـ السياسة الرشيدة في الإسلام ـ الدهاء في السياسة ـ الشعور السياسي في الإسلام.

❑ ❑ ❑



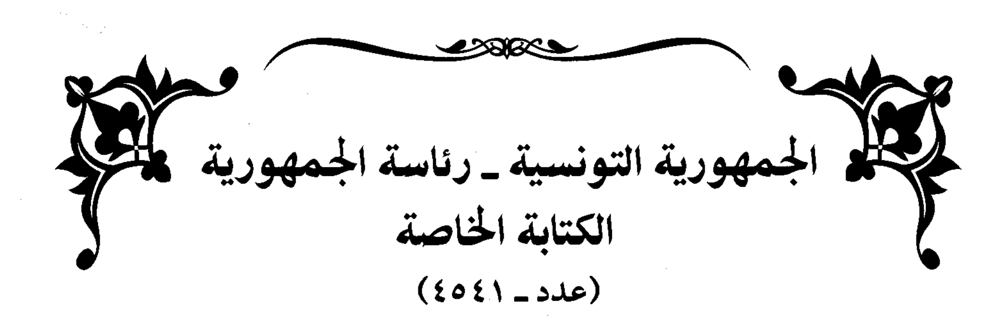
من رسائل الوفاء

إن اهتمام السادة العلماء الأفاضل، والأدباء والباحثين وطلاب العلم بآثار الإمام محمد الخضر حسين بلغ درجة عالية من حسن القبول، والاستبشار بصدورها ونشرها، ولقيت ترحيباً بالغاً من المؤسسات العلمية والجامعات في أنحاء العالم الإسلامي.

تحت يدي عشرات الرسائل التي أثلجت صدري، ومسحت عن جبيني التعب والجهد، وأنعشت القلب بطيب شذاها وبديع سناها، وكأن دماً نقياً جديداً سرى في الأعراق، ووجدت أن العمل الذي قمت به طيلة ثلاثين عاماً أتى أكله ثمراً يانعاً في الحياة الدنيا، ودعاؤنا أن يتقبله الله ـ جل جلاله ـ، ويكون في مقدمة صحيفة الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

تستحق تلك الرسائل المعبرة عن الوفاء للإمام، أن تعرض على صفحات الكتاب، وهي قطع من الأدب الرفيع، تتلمس الصدق في كلماتها، وتستنشق عبير المحبة من خلف حروفها، ولكنها على كثرتها، فإني أنشر بعضاً منها. أما الرسائل الأخرى فإلى ميدان آخر ـ إن شاء الله ـ.

علي الرضا الحسيني



الجمهورية التونسية ـ رئاسة الجمهورية
الكتابة الخاصة

(عدد ـ ٤٥٤١)

تونس في ١٤ سبتمبر ١٩٧٢ـ دمشق

الحمد لله وحده.

حضرة الفاضل المحترم المحامي الأستاذ علي الرضا التونسي.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

وافت فخامة رئيس الجمهورية التونسية السيد الحبيب بورقيبة هديتكم الكريمة المتمثلة في مجموعة من التآليف القيمة للعلامة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين، التي توليتم الإشراف على طبعها ونشرها.

وإنه ليطيب لي أن أتقدم لكم بخالص تشكرات سيادته وتقديره الكبير لعنايتكم بآثار فقيد الأمة الإسلامية الشيخ محمد الخضر حسين، ونشرها للناس، وفاء لهذا العالم الجليل، وخدمة للحركة الإصلاحية التي كان الشيخ من ألمع قادتها ومؤسسيها.

وإني أرجو في الختام التفضل بقبول فائق الاحترام والتقدير. وفي حفظ الله دمتم. والسلام.

رئيس الكتابة الخاصة
علاّلة العويتي
(توقيع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الصديق العزيز الأستاذ علي الرضا الحسيني المحترم.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد:

فآمل أن تكون سعادتكم في أوفر صحة، وأتم رفاهية، وكذلك جميع أفراد العائلة العريقة ذات المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية.

عزيزي! منذ فترة انقطعت رسائل الاتصال بيننا؛ لظروف تتصل بمشاغل الحياة، والبحث العلمي والأدبي، وكل هذا لن ينسينا عظيم كرمكم، وجميل تعاونكم في إنجاز رسالتنا العلمية للدكتوراه عن الأديب الإسلامي الكبير (محمد الخضر حسين وأثره في النهضة الأدبية الحديثة)، والرسالة ـ والحمد لله ـ قد أنجزت. وسوف أرسل لسعادتكم نسخة منها؛ لتلمسوا بأنفسكم مدى الجهد الذي بذلته في إعطاء رائدنا ما يستحقه من التكريم الذي نشرف به جميعاً. علماً بأن الرسالة تقع في حوالي ٤٠٠ صفحة عدا ذيل بالمصادر والمراجع[1].

أحمد يوسف محمد خليفة
جمهورية مصر العربية ـ قنا
كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية
تحريراً في ٣/١٢/ ١٤٠٠هـ

---

(١) هذا النص مختصر من الرسالة المطولة.

6863

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فضيلة الأستاذ المحامي الكبير السيد علي الرضا الحسيني.

حفظه الله تعالى ورعاه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فأتقدم إليكم بخالص الشكر والتقدير على جهودكم الطيبة المباركة بنشر الكتب المفيدة، التي يستفيد منها كل طالب علم وفقه الله لاقتنائها. ومن أهمها: مؤلفات الإمام الأكبر محمد الخضر حسين شيخ أهل عصره ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقد اقتنيت كثيراً من تحقيقاتكم ومنشوراتكم، وإني أطلب منكم، وألتمس من فضيلتكم أن تدلوني على كتاب «عمدة الأثبات ـ في الاتصال بالفهارس والأثبات) لخال والدكم المحدّث محمد المكي بن عزوز، وإن كان لديكم نسخة، فأرجو إرسال صورة عنها، وذلك لحاجتي الماسة لها. كما أنه يوجد ترجمة جميلة للسيد محمد المكي في كتاب «فهرس الفهارس» لتلميذه السيد عبد الحي الكتاني، فلو نشرتموها في مقدمة أحد كتبه، لكان حسَناً، كما فعلتم في الكتاب المسمى «رسائل ابن عزوز». والسلام عليكم ورحمة الله.

محبكم محمد عبدالله الرشيد[١]

الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الثلاثاء ٤/ ٥/ ١٤١٤هـ

١١٤٥١ ـ ص. ب ٢١٨٧

---

(١) باحث إسلامي، ومن أهل العلم العاملين في ميدان الثقافة، ومن المهتمين بالكتب الإسلامية ونشرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فضيلة الأستاذ المكرم علي الرضا الحسيني المحامي ـ وفقه الله لكل خير.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد[1]:

فقبل الشروع في المقصود، أتوجه إلى الله العلي العظيم أن يديم لك سوابغ نعمه، ويبلغك رضاه، ويلبسك لباس التقوى، ويزينك بزينة الإيمان، ويمتعك ببهجة الحياة.

سعادة المحامي! وصلت الكتب التي بعثتم بها إلينا، وصلكم الله بطاعته، فلقد تكرمتم علينا بأمر منيع الطلب، صعب المرام، بعيد المنال، كانت الحاجة تلفجنا إليها دائماً، حتى زالت تلك اللفجة، فبوصول الكتب سدت شفاف المطامع، وملئت أجواد الآمال.

كنا من قبل نرنو إلى كتب العلامة الشيخ محمد الخضر بالأبصار، ونتعلق لها بالآمال، ونتطاول لها بالأعناق، ونسمو إليها بالأنظار، ونشهوا إليها بالنفوس، ونشرئب إليها بالقلوب، حتى وصلت إلينا من طيب الثناء،

---

(١) خطاب كريم سعدت به من علماء أفاضل، وهم السادة: الأستاذ عبدالله بن عبد الرحمن الشثري، والأستاذ جديع محمد الجديع، والأستاذ رياض محمد المسيميري من جامعة محمد بن سعود الإسلامية ـ كلية أصول الدين ـ قسم القرآن وعلومه ـ الرياض.

رسالة تدل على مكارم أخلاقهم، وسمو فصاحتهم وبلاغتهم، وصفاء محبتهم للإمام محمد الخضر حسين، جزاهم الله خير ما يجازي به العلماء العاملين، وأحمد الله تعالى لهم ولي على نعمة الإسلام.

وجميل الذكر، وجم الفضائل، وكريم المعدن، وسليل الوفاء، وأليف المودة، وقريب الخلة.

أيها الأستاذ الفاضل!

نستأذنكم على استحياء في عتاب رقيق، حيث إنكم لم تشبعوا رغبتنا، ولم ترووا ظمأنا بتكميل مؤلفات العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، ولعل لكم عذراً في ذلك. ونرجوا في المستقبل القريب أن تحققوا لنا ذلك.

والله نسأل أن يضاعف لك الإحسان، ويمتعك بصحبة النعمة ولباس العافية، ويصلح لك أحوالك، ويحقق لك آمالك، زادك الله توفيقاً وتسديداً، ووفقك للأعمال الصالحة، وزادك الله من فضله، ولا أخلاك من إحسانه.

كما نسأله تعالى أن يصل الحبل، ويجمع الشمل، ويرزقنا اللقاء، إنه قريب يسمع ويجيب.

وفقك الله للحق تؤيد سواعده، وللصدق تشيّد قواعده، وللعمل تعلي معالمه.

وختاماً: فإن ما وصلنا جهد مشكور لكم، ونحن على أتم الاستعداد لتقديم ما نستطيعه من خدمة لكم في أي وقت وآن. وتقبلوا تحياتنا.

وكتب

عبدالله بن عبد الرحمن الشثري

جديع محمد جديع

رياض محمد المسيميري

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية أصول الدين ـ قسم القرآن وعلومه

حرر في فجر الثلاثاء ٢٧/١٠/ ١٤١٥هـ ـ الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأخ المحامي الأستاذ علي الرضا الحسيني الموقر ـ حفظه الله ـ!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحية طيبة مباركة وبعد[1]:

فكم كنت مستشرفاً لآثار سماحة شيخ شيوخنا عمكم العظيم ـ طيب الله ثراه ـ، ومتمنياً دراسة مصنفاته، والإفادة من بحار علمه وفضله.

وكنت أرى الكتاب تلو الكتاب في الأسواق، أو في أيدي الأصحاب، فأشتد لاقتنائه شراء أو استيهاباً أو عارية؛ لأني أعلم قيمتها الرفيعة، ومزاياها المنيفة، حتى جاء يوم علمت فيه بتشريفكم إلى مبنى الجامعة، جامعة العلوم الإسلامية والعربية ـ على غير موعد ـ فكان من سوء حظي أني لم أشرف برؤياكم، ثم قدمتم إلى مكتبة الجامعة من آثار صاحب السماحة عمكم الكريم الإمام، ما تقر به عيون الباحثين ـ إن شاء الله ـ في الجامعة والمعاهد التابعة.

ولقد توج ذلك كله تشريفكم ثانية متفضلين بإهداء أخيكم كاتب هذه السطور خادم العلم وأهله، ما تيسر الآن من هذه الآثار العلمية الجليلة، والأسفار النفيسة، فطوقتم بذلك عنقي، وكنت بها حفيّاً، ودعوت الله لكم

---

(١) نفحة من نفحات الإيمان خطتها يراع العالم الفاضل الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور، وهو الغني عن التعريف، كان الله معه في عمله الإسلامي، ورحم الله أباه العلامة الشيخ محمد صالح الفرفور الذي بث في صدور أبنائه عظمة الإسلام، فكانوا على سيرة أبيهم.

ببركة العمر، وبركة الوقت، وبركة الرزق، حتى تنشروا كل آثار الإمام ﷺ الذي كان والدنا يحدثنا عنه بإكبار وإعجاب، ما بعدهما إكبار وإعجاب.

هذا، وإن مكتبتي المتواضعة قد اكتملت بهذه الأعلاق النفيسة النادرة، كما أن مكتبة الجامعة قد شرفت باحتوائها هذه الآثار الكريمة الزاهرة.

ولعل ما فاتنا اليوم من آثار الإمام العم والوالد الجليل ـ طيب الله ثراهما ـ مما نفد، يستدرك بهمتكم ـ حفظكم الله ـ، فأنتم ـ بلا ريب ـ غصن هذه الدوحة الباسقة، وخير خلف طاهر لخير سلف زاهر، ولعلكم بعلي همتكم القعساء تجددون مجد الآباء وكنوز الأجداد ـ إن شاء الله ـ:

وهل ينبت الخطيَّ إلا وَشيجُه   وتطلع إلا في منابتها النَّخلُ

أما بعد:

فإني في هذه العجالة لأسجلُ شكري العظيم لهذا الجهد المشكور العظيم، ولا يفوتني أن أنوّه بأن كثيراً من هذه المؤلفات القيمة الخالدة كان من مناهج الجامعة والمعاهد التابعة قبل هذا التواصل الكريم؛ لما وقر في نفوسنا من عذوبة هذه الينابيع وأصالتها وطيبها. فكيف بعد هذا التواصل الذي بدأتم به مشكورين، يوم كنتُ فيه من قبل من المقصرين. وما ذلك عن قلى، بل عن زحمة أعمال تقدرونها، وسيادتكم خير من يعذر.

لهذا كله، فإن أكثر هذه الموضوعات، ستكون ـ إن شاء الله ـ من المقررات والمناهج التي يطالب بها الطلبة والباحثون. وبعضها مراجع ومصادر للبحث العلمي، ولا سيما في قسم الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه ـ إن شاء الله ـ.

شكر الله لكم جهدكم المبرور، وسدد خطاكم، وتقبل منكم، ورحم الله الأشياخ العظماء، وجعل فيكم وفي إخوتكم الخلف الصالح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم

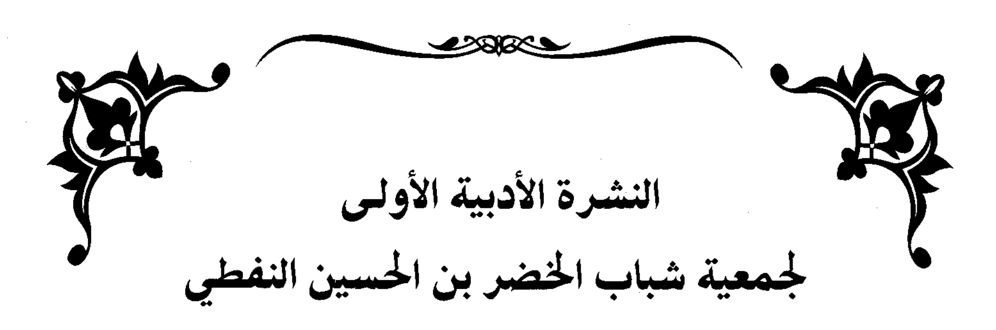
الدكتور عبد اللطيف الفرفور

رئيس المجمع والجامعة

دمشق ٢٦/٤/ ١٤١٧هـ

٩/٩/ ١٩٩٦م

❑ ❑ ❑



النشرة الأدبية الأولى لجمعية شباب الخضر بن الحسين النفطي

أرض الجريد دنيا من السحر والجمال، والإبداع في الطبيعة، وواحة من واحات الخلد، تاريخها مجد عريق بالأنفة والكبرياء، وعرفت باسم: (الكوفة الصغرى)؛ لما اشتهرت به من ثقافة، وما عرف في أبنائها من عقول نيرة، وقلوب مؤمنة. وقد جمعت بين الجمالين: جمال الطبيعة، وجمال مكارم الأخلاق العربية الأصيلة؛ من كرم، وصدق، وبطولات.

ومدينة «نفطة» من أرض الجريد في الجنوب التونسي، مولد الإمام محمد الخضر حسين، وفيها نشأته الأولى، وقد أحبه أهلها، وفاخروا وتباهوا فيه، ولم يتركوا مناسبة إلا عبّروا بها عن اعتزازهم بابن مدينتهم الذي انتقل منها عالماً مجاهداً حتى وصل إلى إمامة مشيخة الجامع الأزهر.

من مظاهر التكريم والاعتزاز: قيام جمعية أدبية راقية في مدينة تونس تحمل اسم (جمعية شباب الخضر بن الحسين النفطي)، وإصدار نشرة باسمها (النشرة الأدبية لجمعية شباب الخضر بن الحسين النفطي). وبثت لها الدعايات في الصحافة التونسية[1]. ونشرت صحيفة «الأسبوع» التونسية في عددها الصادر

---

(١) نجد مثلاً في صحيفة «لسان العرب» العدد (٨٠) من السنة الثانية الصادر (يوم الأربعاء ١١ جمادى الثانية ١٣٦٧هـ ـ ٢١ إبريل نيسان ١٩٤٨م) إعلاناً ضمن إطار بالخط الكبير (انتظروا... نشرية... جمعية شباب الخضر بن الحسين النفطي).

يوم الأحد ٢٥ أفريل نيسان ١٩٤٨ صورة للإمام في صدر صفحتها الأولى قائلة: «زينا صدر جريدتنا بصورة العلامة العبقري، والمصلح الكبير الشيخ محمد الخضر حسين؛ تنويهاً بالمجهود الذي يقوم به لفائدة قضية المغرب العربي ببلاد الكنانة، مع إفادة القراء بأن جمعية شباب الخضر حسين التي مقرها الحاضرة، وتعمل لفائدة المزاولين للتعليم بالكلية الزيتونية، قد عزمت على إصدار نشرة باسمها تحتوي على مباحثات علمية وأدبية نظماً وشعراً، هي الآن تحت الطبع، فنلفت إليها الأنظار».

وصدرت النشرة الأولى، وطبعت بمطبعة الشريف ـ تونس ١٥ نهج المبزع، في ١٦ صفحة. وقد أثبتناها في الكتاب كاملة، وعلى الشكل الذي صدرت فيه، دون أي تعديل؛ خدمة للتراث.

ولعل تأسيس الجمعية باسم الإمام، ثم صدور نشرة أدبية عنه باسمه، قد أثار حفيظة من لا يريد الخير لتونس، وهو في مركز المسؤول في الدولة، ويكره أن يعتز التونسيون بالعظماء من رجالهم؛ لأنه يريد تاريخ تونس خالياً فارغاً من العباقرة الأفذاذ، فعمد إلى تعطيلها وإلغائها.

وقد اطلعت على مقال في صحيفة «أفريقيا الشمالية» الصادرة بتونس ـ العدد رقم ٢٤ (يوم الثلاثاء ٥ رمضان ١٣٦٩هـ ـ ٢٠ جوان حزيران ١٩٥٠م) بقلم (ابن «نفطة» المطلع) تحت عنوان: (كيف وقع طعن «نفطة» من بعض أناس يدعون الوطنية)، وهو بحث طويل نقتطف منه ما يلي:

«قبل كل شيء نلفت أنظار المعتدين على كرامة مدينة «نفطة» وعظمائها وأهاليها بصفة عامة، بأن هذه المدينة مدينة عريقة في المجد، وكانت في القديم تسمى: (الكوفة الصغرى)؛ كناية عن انتشار العلم بها، كثرة علمائها ومفكريها.

ولقد أنجبت عدة عظماء في عدة ميادين، أنجبت ذلك البطل الخطير طارق بن زياد فاتح الأندلس، كما أنجبت ذلك المصلح الجريء أبا علي السني، والعالم الإمام ابن خلف، والعالم الأصولي محمد بن إبراهيم، والعالم العظيم محمد المكي، والفيلسوف الديني الزعيم الشافعي الشريف، كما أنجبت غيرهم ممن لهم مقام ممتاز، وهم كثيرون.

هذا من حيث الماضي، أما في عصرنا الحاضر، فقد أنجبت مدينة «نفطة» العالم العلامة الشيخ الخضر بن الحسين نزيل الديار المصرية، وشهرته تغني عن التعريف، وأنجبت أخاه العالم اللغوي المعروف الشيخ زين العابدين ابن الحسين نزيل الديار الشامية. والأستاذ محمد الصالح المهيدي، والشاعر العبقري الأستاذ مصطفى خريف، وغيرهم من العظماء المعاصرين. هذا والشيء الذي يعنينا في هذه العجالة، هو بيان الاعتداءات التي وقعت على «نفطة»، واهتز لها سكانها، والتي مصدرها بعض من ينتسبون للوطنية، ويدعون أنهم يخدمون بلادهم، والحال أنهم على العكس من ذلك يخدمون ضدها، ويا ليتهم يشعرون.

وإلى القارئ الكريم جانباً من الاعتداءات التي طعنت «نفطة» في الصميم.

أولاً: لما ظهر لتلامذة («نفطة» الزيتونيين) بأن يؤسسوا جمعية تجمع شملهم، وتساعد فقيرهم، اتفقوا على تسميتها (بجمعية شباب الخضر بن الحسين النفطي) وبعد أن شكلوا هيئتها، ونشروها على ألسنة الجرائد، وقع إعلام مسيّريها من بعض الأنانيين السياسيين، بأن يتراجعوا في هذه التسمية، ويسموها باسم آخر؛ لأن الخضر بن الحسين - على زعمهم - لا يستحق هذا

الالتفات، وما إن سمع التلاميذ بهذا الاقتراح الخبيث، حتى قاموا بضجة ضد هذا التدخل الذي لا حق لهؤلاء المتطفلين فيه، وتبين لتلامذة «نفطة» الأباة من ذلك الوقت، كيف أن الوطنية أصبحت ألعوبة عند هذا البعض الذي صار لا يفكر في الاستعمار وكيف يقاومه، وإنما يفكر في الانتقام من عظمائنا، ويسعى في محو أسمائهم من عالم الوجود، فيا لها من أنانية لا تشرف صاحبها، بل وتبعده عن الوطنية الحقة، وتجعله في الحضيض».

أحببت «نفطة» من الوجدان، وشددت إليها الرحال في كل عام زرت فيه تونس، وبواحتها الرائعة، وتحت ظلال نخيلها اليانع قلت الشعر الذي يمثل صفاء المحبة لها. ومنه[(١)]:

ضممتِ بصدرِكِ كلَّ الجمال ... وغيرُكِ ضمَّ الأسى والحجر

ربيعُك كلُّ فصول السنين ... ويسكن فوق سماك القمر

و(دِقْلةُ نورٍ) غذاء الحياة ... ونخلك أحلى صنوف الثمر

ومما قلته فيها أيضاً[(٢)]:

قالت: أراك بذكر «نفطة» هائماً ... ماذا بها؟ حتى رماك هواها

إن كان واحتها سبتك بنظرةٍ ... فهناك واحات الجمال سواها

فأجبتها: لو تعرفين محبتي ... لترابها وهوائها وسماها

---

(١) ديواني «قلب شاعر»، وقدمت الأبيات بقولي: «نفطة: واحة النخيل في جنوب تونس - إني أراها قطعة من الجنة».

(٢) ديواني «بثينة»، وذكرت في المقدمة: «أحببت نفطة مدينة النخيل في الجنوب التونسي، مثوى الجد مصطفى بن عزوز، ومولد العم الإمام محمد الخضر حسين».

يكفـي جمـالاً مـع جـلالٍ أنّهـا ... ضـمّت وليـاً صـالحاً بثراهـا
من طيب ساكنها المطهّر (مصطفى) ... مـن آل عـزوزٍ تطيـب رباهـا
يا روضةً ولـد (الإمـام) برَحْبهـا ... فـسما بهـا التـاريخ نحـو علاهـا
أضـحت مـزار القاصـدين تبركـاً ... والبـاحثين بعلمهـا وسـناها
شُهرَت بفضل (الخضر) حتى أصبحت ... أم المـدائن لا يُـزار سـواها

وقلت فيها[1]:

إيـه يـا «نفطـة» الحبيبـة مهـلاً ... أنا من جاب فـي الهـوى الآفاقـا
لا عُجابـاً أنـي عـشقتك أرضـاً ... وسـماء وواحـة ورواقـا
لا أبـالي مـا قـال زيـدٌ وعَمْـرٌ ... لـم يكنّـا إليـك مثلـي اشـتياقا
أيهـا المـدّعون حـبَّ الثريـا ... لـم تكونـوا فيمـا أرى عـشّاقا
إنما الحب حـبّ «نفطـة» يـروي ... للـشفاه العطـاش كأسـاً دهاقـا

وفي الجدّ لأم الوالد سيدي مصطفى بن عزّوز قلت[2]:

مرقد الطهر فـي أجـلّ الرمـوس ... ضاء كالشمس من علاء الشموس
هـو وجـه الخيـرات وهـو منـارٌ ... ومـلاذ مـن هـول ليـل عبـوس
أقبلـت نحـوه المكـارم تـسعى ... بابتهـال وحانيـات الـرؤوس

---

(١) ديواني «تونسيات»، وقلت في المقدمة: «بلدة نفطة في الجريد بالجنوب التونسي، واحة جميلة، بل أجمل الواحات، وإليها يعود أصل العائلة في تونس».

(٢) ديواني «تونسيات» ـ أبيات قيلت بعد زيارتي للزاوية العزوزية في مدينة «نفطة» بالجنوب التونسي.

يتنــــاهى إليـــه كـــل فخـــارٍ　　ولـذاك المقـام شـوق النفـوس

ســائلوا «نفطــة» الحبيبــة عنــه　　هـو بالفـضل مثـل غيـث نفـيس

يا (ابن عزوز) هل قبلـت سـلاماً　　عــن حفيـد أتـى بقلـب أنـيس

وفي «نفطة» قلت(١):

وما كـلّ الحسان كحسن ليلـى　　ولا جنّـات «نفطــة» كالجنــان

بــلادٌ رصّــع الخــلاّق فيهــا　　منـاظر مـن زبرجـد فـي جمـان

ولا تهوى العيـان سـوى رؤاهـا　　ومرآهــــا ببـــالي كــــلَّ آنِ

فــراديس يحــيط بهــا نخيــلٌ　　مباهج في الزمـان وفـي المكـان

و(دقلتها) هـو العسل المـصفى　　ونخلتهـا عـروس فـي المغـاني

ســلوا عنهــا ليــالي باســمات　　ســلوا عنهــا عبيــر الأقحــوان

إذا مــرَّ النــسيم علــى رباهــا　　يقبّــل خــدَّها قــبلات عــاني

إليهــا حــجَّ عــشاق الأمــاني　　ونــادوا: يــا لــساحرة الزمــان

وبعد: هل أوفيت «نفطة» حقها في شعري؟؟.

علي الرّضا الحسيني

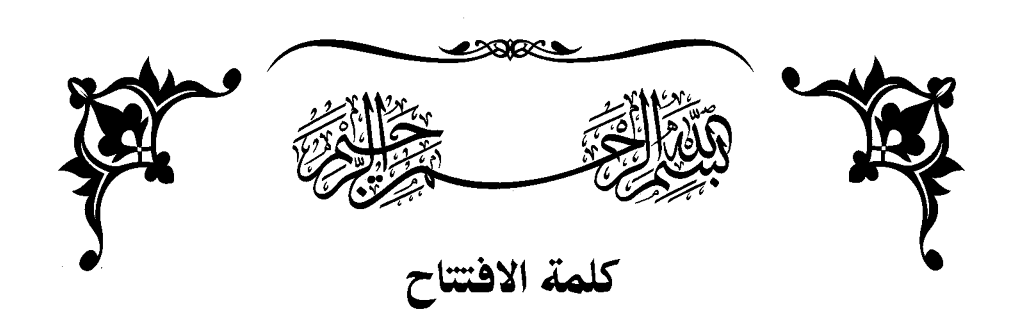
❐ ❐ ❐

(١) ديواني «تونسيات».



النشرة الأدبية الأولى لجمعية
شَباب الخَضرِ بن الحُسينِ النفطِيّ





كلمة الافتتاح

في العام الماضي فكرت نخبة من شبان «نفطة» العاملين، في إنشاء جمعية تكون رابطة متينة بينهم، ووازعاً يدفعهم إلى الأعمال الجدية المثمرة متعاونين في مضمار العلم والأدب.

فأنشأت هذه الجمعية التي اختارت لها اسم: (جمعية شباب الخضر بن حسين النفطي)، ذلك الرجل الذي يحق لتونس أن تفتخر به، ويحق للشبان أن يقتدوا به في جهاده العظيم في سبيل العلم والثقافة، والدفاع عن وطنه الذي ما هجره إلا لإعلاء شأنه، والكفاح في سبيل العروبة والإسلام.

فكان لتأسيسها الوقع الحسن في نفوس مواطنينا الأعزاء، ولاقت منهم التشجيع والتأييد مادياً وأدبياً؛ مما جعلها تدأب في طريق العمل بنشاط، وأتت بنتائج حسنة، أهمها: إعانة المعوزين من تلامذة «نفطة» بقسط من المال غرّة كل شهر، وبلغ عدد المعانين ١٥ فرداً.

وفي شهر فيفري المنصرم، أرادت تجديد هيئتها، فوقع ذلك بالانتخاب العام السري، فانتقلت بذلك إلى أيدي شبّان عاملين مخلصين، تصدّوا للعمل النافع بنشاط، وأودع فيهم إخوانهم ثقتهم بهم، يشعرون بهذا الواجب الملقى على عواتقهم، الذي إن قاموا به أحسن قيام، كان لهم الشكر، والثواب من الله، وأعدت الهيئة الجديدة قانوناً داخلياً فيما ستقوم به من أعمال ـ إن شاء الله ـ،

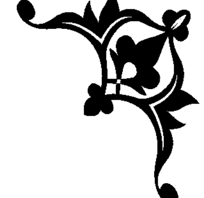
كما قسمت أعمالها إلى لجان مختلفة، كل واحدة تقوم بمهمتها.

على أن هذه الهيئة الجديدة، تتكل على الله في أعمالها أولاً، وعلى أبناء «نفطة» الذين نرجو منهم التأييد، والملاحظات الحسنة في سيرها، والنقد النزيه. ولا تشك في أنهم سيقابلون هذه النشرية المتواضعة التي تعد (زهرة أولى) بالتشجيع، حتى تستطيع أن تخرجها مرة أخرى في نطاق أوسع، وعلى الله الاتكال.

الرئيس
الطيب بن عبد الملك

❐ ❐ ❐





نبذة من تاريخ «نفطة»

ـ قسطلية ـ كتهوار ـ أقارسل نبت ـ زعفران وحمزة ـ فورشانة ـ فطناسة ودرجين ـ «نفطة».

اتفق المؤرخون العرب، وفي طليعتهم ابن الشبّاط التوزري (ترجمة م. أفلوري): بأن مؤسس مدينة «نفطة» كان قسطل بن نوح ـ عليه السلام ـ بعد الطوفان، وإنما عرفت باسم مؤسسها. واعترف المؤرخون الغربيون بوجود علاقات سياسية واقتصادية في تلك العصور السحيقة بين أهل «نفطة» وإخوانهم الساميين أصحاب أعالي وادي النيل، ودلتا مصر، والصحراء الغربية، ومجانسة في اللغة والعادات (راجع: مجموع «مجلة قرطاجنة التونسية» سنة ١٨٩٠: الهجرة المصرية، وعام ١٨٩٥ و١٨٩٩: هجرة الرعاة).

ثم قالوا: اختفت القسطلية بعد ثلاثة قرون من تأسيسها، وظهرت شمالها (في مكان زاوية الشيخ أحمد بن الحاج المصري سيدي حمد الآن الذي هاجر إلى «نفطة» سنة ٨١٥ هجرية) مدينة «كتهوار»، وأصحابها من النفتوهيم من أبناء كاسلوجين ابن مصراتم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ، ومصراتم وكوش أخوان، والنفتوهيم أول شعب آمن بالشمس وقدسها، واتخذ لها معابد ومحاريب في التاريخ، وأول شعب عرف باسمها.

وكتب العلامة (دي أكلام) رسالة قيمة نشرها المؤتمر الجغرافي العالمي

سنة ١٨٨٩ في أصول عبادات الوثنيين، حاول فيها إثبات اقتداء وتقليد الرومان للساميين، وأخذهم عبادة آلهة الأنهار والعيون عندهم، وتحريفهم اسم نفتوهيم السامي إله الشمس الأعظم والقوة والجمال ورمز الوجود والخير، ورب النيل الأكبر إلى نبتوم إله المياه.

وكان تأسيس «كتهوار» سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد، أسسها النفتوهيم الفارين من مصر لجوار إخوانهم بمدينة «القسطلية» اتقاء غزوة وسلطان الرعاة (الهيكسوس)، وأسسوا بلداناً بأسماء مدائنهم المفقودة للذكرى والعبرة. و«كتهوار» من أشهر مدنهم التاريخية، وترجمها (دي أكلام) من اللغة المصرية (كتر): المبعدون، (هوار): مدينة هوار: المبعدون من مدينة هوار. و«نفطة» مأخوذة من فتاه: ظرف مكاني معناه: معبد، أو دار، وحرف علة أيضاً من الكلمة المصرية: ها... كا.. فا..، فتكون «نفطة»: دار، أو معبد الشمس.

وقربت[1] «كتهوار» بعد خمسة قرون من تأسيسها، وظهرت في مكانها مدينة «أقارسل نبت»، وهي التي أدركت الفتح الروماني، وذكرها (ابتولومي) سنة ١٤١، و(ينجور) ٣٩٣ ميلادية بحروف كبيرة، مما يدل على مكانتها، وهي التي ولد بها الفيلسوف الديني (لايتوس) القبطي الشهيد الذي قتله الوندال، وكتب حياته ودرسها كل من (فيكتور دي فيت)، و(فيكتور دي تونان) في رسالتين، وإلى اليوم تحيي الكنيسة الكاثوليكية ذكره، واكتشف مكانها وضبطه الرحالة (دفوري) سنة ١٨٦١، وترجمها العلامة (تيسو) في الجزء الثاني من كتابه «جغرافية أفريقيا الشمالية» من اللغة المصرية القديمة إلى أقار

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الكلمة: (خربت).

سل ـ نبت. أقار. . . الأبناء. . ر. . بين. س. . . من. ر. . . ل. . نفت. . نفتاه، ومعناه: الأشراف من بين أبناء النفتاه. وهي التي صالح أهلها عقبة ابن نافع سنة ٦٥، وقاوموا حسان بن النعمان، فخربها عقاباً، وهي التي ولد بها طارق بن زياد البربري مولى موسى بن نصير فاتح الأندلس، كما حقق المؤرخ (دي أكلام) عن كلامه عن أشهر أخبار وحوادث مدينة «نفطة» في التاريخ.

وبعد تخريبها، ظهرت بالقرب منها مدن «زعفران وحمزة» سنة ٧٠ هجرية، وخربت «زعفران» سنة ١٢٢ هجرية من عبدالله بن صفوان الكلبي بعد انتصاره على ثورة البربر الكبرى، ومشاركة أهلها للهوارة.

ثم ظهرت مدينة «فورشانة» غربي الواحة في مكان بساتين بلاق البهوب وابن عياش. وابن نور اليوم قرب زاوية أبي الحسن إسماعيل المعروف بسيدي حسن عياد، وهو حديث عهد عمر في أول القرن التاسع، وهي التي ولد بها ابن الزقاق صاحب «الافتراق الخامس في مذهب الوهبية» في قنطارة إحدى أرباضها، كما ذكر أبو زكرياء في «تاريخه» بترجمة المستشرق (أميل ماسكراي)، وهي التي عرفت بالكوفة الصغرى في الشرق العربي، وخرّب فلفول بن خزرون صاحب طرابلس مدينة (فورشانة) سنة ٣٨٧.

وظهرت مدينتا (فطناسة ودرجين)، الأولى في الواحة، وهي التي نزل بها أبو علي الحسن بن إبراهيم (سيدي أبو علي) سنة ٥٦٢، وكانت بين أهل المدينتين إحن وخلافات مذهبية، انتهت بقتل الشيخ أبي علي من يد إبراهيم النخيلي الدرجيني، وخراب «درجين» بواسطة حملة من أهل القيروان ونفزاوة بقيادة الشيخ يوسف الدهماني (المدفون قرب فسقية الأغالبة بالقيروان؛ كما

أثبت . . في كتابه دليل الرحالة في القيروان وسبيطلة والجريد) وفرار أهلها لواحة «ورقلة» سنة ٦٨٤، وخرب فطناسة الأمير أبو العباس بن أبي يحيى أبي بكر الحفصي سنة ٧٣٥ انتقاماً من دويلة بني الخلف.

ثم أسس أهل فطناسة مدينة عرفت بـ «نفطة» في مكان البلد الحالية الآن سنة ٦٣٣، خربها أبو محمد الحسن بن المسعود بن المولى أبي عمر الحفصي؛ لثورة أهلها، وامتناعهم من دفع الأتاوات؛ لمحالفته الإسبان سنة ١٥٣٤، ثم ظهرت مدينة «نفطة» العامرة الموجودة من أرباض عشروات المدينة الأخيرة سنة ٥٣٥ ـ ٥٤٠هـ.

وفي إمكان الباحث والمؤرخ كتابة مجلد ضخم به أحاديث مجد وتضحية وفخار لكل مدينة من المدائن المختلفة، تحت اسم وحيوية وخلود اسم «نفطة» والنفتوهيم بين القرون.





والذكر للإنسان

بقلم الأستاذ الجليل
محمد الصالح المهيدي

إنها لسنة حسنة هاته التي شرعها الشبيبة النفطية، وهي اختيار الاسم الذي وضعته عَلماً على جمعيتها؛ اعترافاً بما لشخصية المسلم الصادق، والعلم الفرد، الكامل الإيمان: محمد الخضر حسين من الخدمات والمزايا التي قام بها في حياته الحافلة بجلائل الأعمال لفائدة العروبة والإسلام.

الخضر حسين الذي جاهد الباطل والمحسوبية، وكافح الجهل والأنانية، وتصدى لرد الباطل ودحضه أينما حل وارتحل، فكان موفقاً في عمله إلى أبعد حد.

ومن أجدرُ بتخليد ذكرى اسمه، وهو حي يرزق، من رجل هاجر وطنه في سبيل الله، يوم كانت عوامل الطغيان والظلم تتوافر في هذا الوطن، فانتقل إلى المشرق، وطاف في أرجائه باحثاً عن وكر جديد، عششت فيه الحرية، إلى أن ألفى ذلك في بلاد الكنانة، فاستقر فيها كوكباً نيراً، يضيء أرجاء العالم الإسلامي شرقيه وغربيه، عربيه وعجميه.

فأرشد بـ «نور الإسلام» السارين في ظلمات الجهالة. وأنار بـ «الهداية الإسلامية» دجنة الغاوين المتمردين عن سبل الحق والرشاد، وحمل «لواء

الإسلام» بيد قوية، وساعد متين إلى عنان السماء، فأفاد المسلمين والمؤمنين.

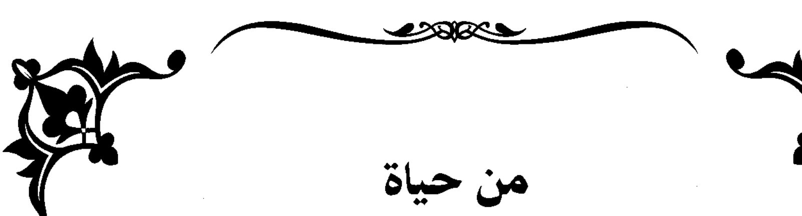
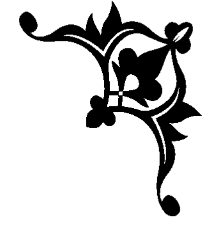
ولقد أصابت الشبيبة النفطية المرمى والمحز، فسجلت ذكرى حي يرزق؛ ليكون ذلك أدعى لشحذ القريحة، وحفز الهمة، وراحة الضمير، وذلك أدعى لنُجح العمل، نظير ما هو متوافر لدى الأمم الحية الناهضة التي تقدر أعمال بنيها البررة، فتخلد أسماءهم وذكرياتهم بما تقيمه من معالمهم ومنشآت.

وأين هذا مما اعتادته بعض الأوساط التونسية، التي لا تقدر العاملين من أبنائها متى كانوا بقيد الحياة، ولا تساعدهم على سلوك العمل الذي يرتضونه لفائدة وطنهم، حتى إذا ما أدركوا الموت، حزنوا وتحسروا، وإن وجد من أصدقائهم أوفياء، قاموا بمآتم الذكريات يحيونها، ثم يندمون على ما فرطوا في جانب النبغاء، ولات حين مندم!.

وإذا كانت الشبيبة قد خطر لها هذا الخاطر، أو لم يخطر حين فكرت في إنشاء جمعيتها الفتية، فإن المرجو منها، والمؤمل أن تكون عند حسن الظن بها، وأن تجعل من ذلك العالم العامل الجليل قدوة في مستقبل عملها؛ لتضيف إلى فخرها فخراً، ومجدها أمجاداً.

محمد الصالح المهيدي



من حياة الشيخ الخضر بن الحسين

ولد الشيخ الخضر في «نفطة الجريد» يوم ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣، ونشأ فيها، وترعرع في وسط علمي إلى أن انتقل والده إلى العاصمة التونسية سنة ١٣٠٦؛ حيث أتم تعليمه الابتدائي، والتحق بالزيتونة، وتخرج منها بشهادة التطويع سنة ١٣١٦، ومن أكابر أساتذته: الشيخ عمر بن الشيخ، والأستاذ محمد النجار، والشيخ سالم بوحاجب.

وفي سنة ١٣١٧ عزم على الرحلة إلى المشرق؛ ليدرس حالته العلمية والاجتماعية، إلا أنه لم يتم رحلته، إذ اضطر للرجوع من طرابلس الغرب، وبقي بالزيتونة يفيد ويستفيد. وفي سنة ١٣٢١ أنشأ مجلة «السعادة العظمى»، فكانت من أحسن المجلات في ذلك العصر، تتبارى فيها أقلام الكتاب الزيتونيين في مختلف المسائل الدينية والأدبية، وقد لاقى في سبيلها ما يلاقيه كل مصلح من (المحافظين).

وفي سنة ١٣٢٣ تقلد منصب القضاء ببنزرت، كما عهد له بالخطابة والتدريس في جامعها الكبير، ولم يكن التوظف بالمقيد له عن القيام بواجباته الاجتماعية، من ذلك محاضرته (الحرية في الإسلام) التي ألقاها بنادي (جمعية قدماء الصادقية)، وكان لها تأثير كبير، ونشرت، فنقلتها الصحف، ولما أحس أن الحكومة تحاول أن تطفئ منه ذلك النور المشع، وتقتل روحه المتأججة؛

ليكون على ما عودت به سائر موظفيها من السكون والاستسلام في ظل مرتب، أبى عليه حزمه أن يكون ذلك المستضعف المغبون، فقدم تسليمه من وظيفته، ورحل للعاصمة متطوعاً بإلقاء دروس بالكلية الزيتونية، وعندها عينته نظارة الجامع لتنظيم خزائن الكتب.

وفي سنة ١٣٢٥ تولى وظيفة التدريس بالجامع بصفة رسمية، وفي سنة ١٣٢٦ عين مدرساً بالصادقية، وانتخبته الخلدونية لإلقاء محاضرات في الإنشاء، فقام بهاته الوظائف أحسن قيام، وكان لا يفتر عن إتحاف الشعب ببنات أفكاره؛ كمحاضراته: (حياة اللغة العربية).

ولما قامت الحرب الطرابلسية، كان من أعظم الدعاة لإعانة المجاهدين في سبيل استقلالهم، وقام برحلة إلى الجزائر، زار فيها أكثر مدنها، وكان يلقي المحاضرات أينما حل، ويلاقي التعظيم والتبجيل.

وفي سنة ١٣٣٠ انتقلت عائلته إلى الشام، ونزلت دمشق، فالتحق بها ماراً بمصر، ثم سافر إلى الآستانة، ودرس حالتها العلمية والاجتماعية، ورجع إلى تونس ١٣٣٠ في ذي الحجة، ونشر رحلته على بعض الجرائد التونسية، ورجع لما كان عليه، وأول محاضرة ألقاها بعد رجوعه: (مدارك الشريعة الإسلامية)، وعينته الحكومة التونسية في لجنة تبحث عن التاريخ التونسي، إلا أنه في شعبان من هذه السنة، عزم على مفارقة مسقط رأسه بتاتاً، والهجرة إلى الشرق.

سافر إلى الشرق بعد أن ودع أصدقاءه في الجزائر، حيث ركب من «عنابة»، فلما نزل بمصر، تعرف بكثير من دعاة الرابطة العربية، مثل: رفيق بك العظيم صاحب «أشهر مشاهير الإسلام»، والشيخ رشيد رضا صاحب

«المنار»، ثم سافر إلى الشام، فقوبل من طرف عظمائه بالترحاب، ونوّهت الجرائد هناك بمسامراته.

وعزم على زيارة الإمبراطورية العثمانية، فنزل جنوباً حتى المدينة المنورة، وصعد شمالاً حتى الآستانة، ومن هناك تعين مدرساً للغة العربية والفلسفة بالمدرسة (السلطانية) بدمشق، وكان مثابراً على إلقاء المسامرات، ونشر المقالات الإصلاحية في الجرائد، واهتم بوجه خاص بالمشكلة العربية التركية، محاولاً تجديد روابط الألفة بين السلطنة العظمى، والأغلبية من رعاياها.

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى، وتولى جمال باشا حكم المقاطعة السورية، كاد أن يكون أحد ضحايا الصرامة التي استعملها القائد مع كل من ينتمي إلى النهضة العربية؛ حيث ألقى عليه القبض بدعوى اطلاعه على حركة المتآمرين دون أن يحاول تنبيه السلطة من الأخطار، فاعتقله ستة أشهر وأربعة عشر يوماً، وظهرت براءته لما قدم للمحاكمة، فأطلق سبيله في ربيع الثاني سنة ١٣٣٥، ورجع إلى التدريس بالمدرسة العثمانية، ثم نظم مسامرات علمية ودينية عالية لبعض طلبته المنتهين.

واستمر على ذلك إلى أن استدعاه المركز سنة ١٣٣٦ منشئاً حربياً بالوزارة، كما عينته المشيخة الإسلامية واعظاً بجامع (الفاتح)، فبقي في وظائفه إلى سنة ١٣٣٧ التي فيها ارتباكات الآستانة، فرجع إلى دمشق، وما كاد يصلها، حتى عين عضواً بالمجمع العلمي العربي، ومدرساً بالمدرسة العثمانية، والمدرسة السلطانية، إلا أنه عزم على الذهاب إلى مصر محورِ النهضة العربية، فلم يباشر وظائفه تلك، فقصدها، وهناك في بلاد النيل ولي التصحيح بدار الكتب

العربية، ثم صرح له جلالة ملك مصر في دخول الشهادة العالمية التي ما كاد يحرز عليها، حتى انتدب للتدريس بقسم التخصيص. وفي سنة ١٣٤٧ أضيف لدرس البلاغة الذي كان يلقيه لطالبي التخصص درسان آخران، أحدهما: في الوعظ والإرشاد، والثاني: في التاريخ. ومع ذلك لا ينقطع عن إلقاء المسامرات العلمية، والاجتماعات المؤيدة بروح الدين.

وعمل في كثير من الجمعيات مثل: جمعية (الشبان المسلمين)، وأسس (الهداية الإسلامية)، كما تولى رئاسة تحرير كثير من المجلات والصحف؛ مثل: مجلة «الهداية الإسلامية»، والمجلة الكبرى «لواء الإسلام»، و«نور الإسلام». ونشر عدة كتب قيمة في العلم والأدب مثل: كتاب «نقض الشعر الجاهلي»، و«حياة اللغة العربية»، وديوانه الشعري.

وهو الآن رئيس (جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا)، وركن من أركان النهضة العربية الحديثة في الشرق العربي الذين تفتخر بهم العروبة والإسلام.

هكذا كانت حياة الشيخ جهاداً وكفاحاً مستمراً في سبيل إعلاء كلمة الإسلام والوطن العربي، ـ أطالها الله ـ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

